الرحلات البحرية إلى أمريكا
ما قبل كولومبس
الأساطير والواقع


المشروع الوطني للترجمة
العلوم الإنسانية

الرحلات البحرية إلى أمريكا
ما قبل كولومبس
الأساطير والواقع

تأليف : فاليري غولیایف
ترجمة : طارق معصراني

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٢م

العنوان الأصلي للكتاب:

Круизы в доколумбовую Америку

الكاتب: **Валерий Гуляев**

الناشر: **Змий,2001**

المترجم: **طارق معصراني**

المقدمة

كولومبس واكتشاف أمريكا

"يقودُ الدفةَ راسخَ الجنان
على صدرِ الزاخرِ الرحيبِ
... مركباً طيع العنان"

بريوسوف، عام ١٨٩٤

"كان ذلك في منتصف ليلة ١١ تشرين الأول عام ١٤٩٢. سيمر ما يقرب الساعتين، وسيقع حدث قدر له أن يغير مسيرة التاريخ بأسرها. وفي السفن لم يكن أحد ليدرك هذا بكل أبعاده، ولكن الجميع على وجه التحديد، من الأميرال إلى أصغر تلميذ في البحرية، كانوا في تأهب متوتر. لقد وعد أول من يرى الأرض بجائزة قدرها عشرة آلاف مارافيدي، والآن أصبح واضحاً للجميع أن الرحلة الطويلة تشرف على الانتهاء... كان اليوم يلفظ أنفاسه الأخيرة، وفي الليل المتألق بالنجوم انزلقت مندفعة إلى الأمام ثلاثة مراكب تسوقها ريح مواتية..."[1].

بهذه اللهجة الحماسية المهيبة يصف المؤرخ الأمريكي بيكلس اللحظة المثيرة التي سبقت اكتشاف كولومبس لأمريكا.

أقلعت البعثة من ميناء بالوس الإسباني الواقع على ساحل الأطلسي في ٣ آب عام ١٤٩٢. على ثلاثة مراكب خشبية غير كبيرة - "القديسة ماريا" و"بينتا" و"نينيا" وطاقم قوامه نحو مئة شخص، وأقل ما يمكن من الأغذية والعتاد، ولكن كان على رأس كل هذا المشروع إنسان لا يشق له غبار استولى عليه حلم جريء بأن يقطع المحيط الأطلسي من الشرق إلى الغرب، ويصل إلى ممالك الهند والصين ذات الثروات الأسطورية. وكان اسمه كريستوبال كولون (اللفظ الإسباني لاسم كريستوف كولومبس). وهو من مواليد جنوى، وكان في ذلك الوقت يعمل في إسبانيا.

ها قد مضى شهران على أضنى رحلة في رحاب المحيط. لقد خلفت السفن آخر قطعة من الأرض، جزر كناريا منذ ٣٣ يوماً على وجه التحديد. بدا أن لا نهاية لفلوات البحر. كانت احتياطيات المؤونة والماء العذب تشارف الانتهاء، و تعب الناس. أما الأميرال، الذي كان يبقى ساعات متزايدة من غير أن يغادر سطح السفينة، فكان يسمع صيحات السخط والتهديد يطلقها البحارة.

ولكن أصعب فترة أصبحت الآن في طيات الماضي. البوادر كلها تشير إلى قرب الأرض: الطيور، وأغصان الشجر الخضراء التي تسبح في ماء البحر، وحتى العصي التي من الواضح أن يد إنسان نجرتها.

في تلك الليلة انطلق القبطان مارتين بينسن مستقلاً "بينتا" على رأس العمارة الصغيرة، أما البحار رودريغو دي تريانا، فكان مناوباً على الصاري. كان أول من رأى الأرض - لمعان ضوء القمر على التلال الرملية البيضاء. "الأرض! الأرض!" - صاح رودريغو، وبعد دقيقة بشر دوَّى طلق مدفعي باكتشاف أمريكا.

نزعوا الأشرعة في كل السفن، وأخذوا ينتظرون الفجر بفارغ صبر. وحل أخيراً الفجر الصاحي والبارد ليوم الجمعة، ١٢ تشرين الأول عام ١٤٩٢. وأضاءت أشعة الشمس الأولى أرضاً تتراءى إلى الأمام بلون قاتم غامض، ورأى كولومبس أن أمامه جزيرة. كتب في يومياته لاحقاً: "هذه الجزيرة كبيرة جداً، ومستوية جداً، وفيها الكثير من الأشجار الخضراء والماء، وفي شطها بحيرة كبيرة جداً أما الجبال فلا أثر لها".

أنزلت القوارب من السفن، وبعد أن وطئ الأميرال الجزيرة، نصب هناك الراية الملكية وأعلن الأرض المكتشفة ملكاً لإسبانيا!!

كانت الجزيرة مأهولة يسكنها أناس مَرِحون، لطفاء ببشرة سمراء مائلة إلى الحمرة، يكتب كولومبس: "يسيرون جميعاً عراة، كما ولدتهم أمهاتهم، وكذلك النساء... وكل الناس الذين رأيتهم كانوا لا يزالون شباباً، لم يتجاوز أحد منهم الثلاثين من العمر، وكانوا جميعاً ذوي بنية حسنة، وأجسامهم ووجوههم جميلة جداً، أما شعورهم فخشنة، كشعر الخيل تماماً، وقصيرة... وملامح وجوههم حسنة تطفح بالترحيب... لم يكن هؤلاء الناس سود اللون، بل كانوا مثل سكان جزر كناريا..."[٢].

هكذا، جرى أول لقاء بين الأوروبيين وسكان أمريكا الأصليين. وتكونت عند القادمين الجدد أولى الانطباعات الساطعة عن العالم الجديد. كل شيء كان يبدو هناك خارقاً وجديداً: الطبيعة، النباتات، الطيور، الحيوانات، وحتى "ذروة الخليقة" - الإنسان.

كان الهنود أنفسهم، إن فُهموا بشكل صحيح، يسمون جزيرتهم غوانا خاني. أما كولومبس فعمد الأرض المكتشفة حديثاً باسم سان سلفادور

("المنقذ" - بالإسبانية). لا مجال للشك في أنها كانت إحدى جزر بهاما[٣]. وعلى مرمى حجر من هناك تقع فلوريدا، والرحاب البرية الشاسعة لجزر الأنتيل الكبرى. لقد بدأ اكتشاف "الهند الغربية" (أمريكا).

ولكن في ذلك الصباح المشهود من ١٢ تشرين الأول عام ١٤٩٢ لم يكن شيء قد أخل بحياة القارة الأمريكية الشاسعة الممتدة من ألاسكا إلى أرض النار حاجزاً من آلاف الأميال بين أكبر محيطين في كوكبنا، ومع ذلك، كان ظهور المراكب الثلاثة المتهاوية بهدوء على المياه الزرقاء الدافئة عند شواطئ غوانا خاني، سان سلفادور يعني أن تاريخ العالم الجديد دخل مرحلة جديدة تماماً، حافلة بالأحداث الدرامية.

تحولت عودة كولومبس إلى إسبانيا في آذار عام ١٤٩٣ على متن سفينتين بقيتا سالمتين رغم تضررهما الشديد إلى نصر للبحار العظيم. أغدق عليه الزوجان الملكيان الكثير من عطفهما وجوائزهما، وتلقى وعداً قاطعاً بالمساعدة في تجهيز بعثات مقبلة إلى "الهند".

كانت الغنيمة الفعلية من الرحلة الأولى متواضعة، طبعاً: حفنة حلي هزيلة من الذهب ذي العيار، وعدة سكان أصليين شبه عراة، وريش زاه لطيور مدهشة، ولكن كان قد تحقق الأمر الرئيس: هذا الجنوي الغريب وجد في الغرب، بعيداً وراء المحيط، أراضيَ مجهولةً جديدة. وفتحت الخزنة الملكية وذوو الجيوب المنتفخة من الإسبان اعتماداً سخياً للأميرال توقعاً لأرباح خيالية.

ساهمت في بعثة كولومبس الثانية عبر الأطلسي ١٧ سفينة تحمل على متنها أكثر من ١٥٠٠ شخص. واكتشفت جزيرتان كبيرتان جديدتان،

جامايكا وهايتي. وجرى لقاء مع قبائل هندية مجهولة، وكثيرة الأفراد. ولكن لم يعثر بالنتيجة على ما هو رئيس، على الذهب والبهارات والأحجار الكريمة التي كان يطمع فيها بجشع، سواء المساهمون في البعثات أو الذين موَّلوهم. وهوى طابع كولومبس باندفاع. لقد استطاع، والحق يقال، أن ينظم رحلتين ثالثة ورابعة إلى نصف الكرة الغربي. وحتى إنه اكتشف جزءاً من برزخ أمريكا الوسطى (نيكاراغوا، كوستاريكا، باناما)، حيث حصل بالمقايضة (ولا سيما من هنود باناما) على كمية كبيرة من الذهب. ولكن كل ذلك كان عبثاً؛ إذ إن البلاط الملكي والأعيان الإسبان المتغطرسين لم يتلقوا الشيء الرئيس: كنوز الحكام الصينيين والهنود؛ ومات البحار العظيم في إسبانيا منسياً ومعدماً في ٢٠ أيار عام ١٥٠٦.

لم يستطع معاصرو كولومبس، كما يحدث غالباً في التاريخ أن يقدروا حق التقدير المغزى الحقيقي لاكتشافاته، وهو نفسه لم يعرف أنه اكتشف قارة جديدة، معتبراً حتى آخر حياته أن الأراضي التي اكتشفها هي "الهند"، وأن سكانها "هنود".

ولم يصبح واضحاً إلا بعد البعثات اللاحقة لبالبوا وماجلان وأمريكو فسبوشي أن قارة جديدة تماماً، ومجهولة تقع خلف رحاب المحيط الشاسعة، وقد سميت، بعجيب القدر، أمريكا (باسم أمريكو فسبوشي)، لا كولومبيا، كما يقتضي الإنصاف. كانت الأجيال اللاحقة من مواطني كولومبس أكثر امتناناً لذكراه. وتأكد المغزى الكبير لاكتشافاته على نحو ملموس في عشرينيات وثلاثينيات القرن السادس عشر حينما انهال الذهب والفضة الأمريكيان سيلاً عارماً على أوروبا بعد غزو مملكتي الأتستيكيين والأينكيين الغنيتين. بدا أن ما سعى إليه البحار العظيم كل حياته، وما بحث عنه

بإصرار في "الهند الغربية" لم يكن طوباوية، ولا هذياناً محموماً لمجنون، بل حقيقة واقعة، ولا يزال كولومبس يحظى في إسبانيا بالتبجيل إلى أيامنا.

ويحاط اسمه بمجد لا يقل عن ذلك في أمريكا اللاتينية، حيث أطلق على أنأى بلد إلى الشمال في القارة الأمريكية الجنوبية اسم كولومبيا على شرفه، ولكن في الولايات المتحدة وحدها يحتفل بيوم ١٢ تشرن الأول كعيد وطني (يوم كولومبس) وأطلق هناك اسم الجنوي العظيم على مدن كثيرة، وناحية وجبل ونهر، وجامعة ووفرة لا تحصى من الشوارع ودور السينما والصيدليات. يبدو أن العدل انتصر، أخيراً، ولو بشيء من البطء. تلقى العبقري نصيبه من المجد والامتنان من البشرية المعترفة بالجميل، وعند هذا يمكن وضع نقطة وإنهاء الحديث.

كلا، على الإطلاق. فبعد اكتشافات العصر التي قام بها كولومبس، وجد على الفور تقريباً أناس نازعوه الحق في قصب السبق كأول مكتشف لأمريكا، ولم يكن عددهم يتقلص مع السنين، بل كان ينمو بوتائر متسارعة. أناس لا عد لهم ولا حصر اعتبروا بمثابة سابقين للأميرال العظيم. ويدخل في هذه القائمة الفينيقيون والإسرائيليون والإغريق والرومان والإيرلنديون والعرب، وأخيراً، أكثر المنافسين خطراً - الفيكينغ السكاندنافيون. وزاد من تفاقم الأمر أنه وجدت في الولايات المتحدة نفسها مجموعتان كبيرتان من المواطنين الأمريكيين المنحدرين من إيطاليا وسكاندينافيا، ولهذا اكتسبت الاصطدامات هناك تحت شعاري "كولومبس" و"الفيكينغ" طابعاً حاداً على نحو خاص.

إن الحدس الرائع للنروجي خولغي اينغستاد، الذي عثر في الستينات في الطرف الشمالي لينوفولاند على أنقاض مستوطنة نورماندية من القرنين

العاشر والحادي عشر، أدى إلى اعتراف واسع بواقع أن الأوروبيين (الفيكينغ في هذه الحالة) قد وصلوا قبل كولومبس بخمسمئة سنة إلى ساحل أمريكا الشمالي الشرقي وحتى أنهم حاولوا الإقامة هناك. كانت الحجج وجيهة، وفي خريف عام ١٩٦٤ وقع رئيس الولايات المتحدة ليندن جونسن، بتوصية من الكونغرس، مشروع قانون حول الاحتفال سنوياً في ٩ تشرين الأول بعيد "يوم لايف أركسن". وعلى هذا النحو اعترف بهذا النورماندي رسمياً أول مكتشف للعالم الجديد.

بيد أنه احتفظ بالعيد القديم أيضاً (يوم كولومبس). ولكن "مشروع القانون النورماندي" وقع في ٩ تشرين الأول (تشرين الأول)، أي: إن عيد الفيكينغي لايف، على الرغم من سخط الأمريكيين ذوي الأصل الإيطالي، كان يسبق عيد الجنوي كولومبس بثلاثة أيام. احتدمت الانفعالات إلى أقصى حد، وكانت شرارة صغيرة كافية لتفجيرها. وما لبثت أن اشتعلت في ١٢ تشرين الأول عام ١٩٦٥. فقد بدأت في أماكن كثيرة مظاهرات عاصفة لأنصار كولومبس. وساهم فيها من حيث الأساس الأمريكيون ذوو الأصل الإيطالي المحتجون على "النظرية النورماندية" المعروفة منذ زمن قديم، والتي تلقت فجأة براهين جديدة تؤكدها، وبسبب المظاهرات عمَّت الفوضى حركة السير في شوارع نيويورك على امتداد خمس ساعات.

بدأ كل ذلك بمقالة نشرتها بنيَّة متعمدة جريدة "نيويورك تايمز" المتنفذة للغاية قبل العيد (يوم كولومبس) بيومين عن العثور على خارطة من القرن الخامس عشر تصور جزءاً من أمريكا الشمالية (منطقة "فينلاند" في الحكايات السكاندينافية - الساغات)، مما أثار عقول الأمريكيين الإيطاليين الذين لم يريدوا أبداً التخلي عن أولوية كولومبس. وقد جاء في المقالة ما يلي حرفياً:

"تحدث علماء جامعة يل صباح اليوم(*) عن أعظم اكتشاف عرفه هذا القرن في ميدان الخرائط، إذ عثر على الخارطة الجغرافية الوحيدة التي رسمت قبل كولومبس لبلدان العالم الجديد التي اكتشفها لايف أركسن في القرن الحادي عشر". وإلى جانب المقالة نشرت الخارطة نفسها. وفي زاويتها اليسرى إلى الأعلى ظهرت بوضوح هذه الكتابة - "فينلاند". وقد حدد الاختصاصيون زمن رسم الخارطة نحو عام ١٤٤٠، أي: قبل ٥٠ سنة من رحلة كولومبس الأولى إلى شواطئ أمريكا (٤).

وموافقة الوقت الذي اختير لنشر هذه المادة المثيرة عشية يوم كولومبس أثار بشكل خاص سخط الإيطاليين الأمريكيين الذين لم يروا في هذا مجرد تحد صريح، بل رأوا فيه أيضاً شيئاً يخلو من اللباقة. بيد أنه ظهرت بعد بعض الوقت شكوك في صحة "خارطة فينلاند"، ولكن سبق السيف العذل، وتلقت الأولوية "النومانديية" في "اكتشاف أمريكا" دعماً قوياً.

في كل هذه القصة، طبعاً، الكثير من الهراء والاختلاق، مع أنه يستحيل "تسمية" صراع جالِـيَـتَي الأمريكيين المتحدرين من سكاندينافيا ومن إيطاليا بهزل مسرحي، وتكمن المفارقة كلها في أن مواطني الولايات المتحدة أنفسهم يحفظون بحمية منذ مقعد الدراسة مسلَّمة راسخة تقول: إن الفيكنغ اكتشفوا شمال أمريكا قبل كولومبس بخمسمئة سنة، وبعد ذلك "ينسى" الأمريكيون ذوو الأصل الإيطالي، الذين يتراوح عددهم ما بين ١٠ ملايين و١٥ مليوناً، حملات الفيكنغ الجريئة على "فينلاند"، معلنين أنها

(*) أي في ١٠ تشرين الأول عام ١٩٦٥. - المؤلف

مجرد أساطير لا تقوم على أساس، ويتابعون تكريم مواطنهم العظيم بمثابة أول مكتشف للعالم للجديد.

ولكن كولومبس نفسه لم يطأ أبداً أرض القارة الأمريكية الشمالية وحتى لم يرها من بعد ولو مرة واحدة. ولم يكتشف سوى جزر في البحر الكاريبي وجزء من الساحل الشرقي لأمريكا الوسطى (هندوراس، نيكاراغوا، كوستاريكا، باناما)، وذلك فقط في خلال رحلته الأخيرة، الرابعة عام ١٥٠٢. ولهذا ثمة كل المسوغات لاعتبار أوروبي آخر، وهو جون كابوت من إنكلترا، أول مكتشف لأمريكا الشمالية. ففي ٢٤ حزيران عام ١٤٩٧ نزل في رأس بولد (جزيرة نيوفوندلاند)، ثم دار بسفنه الشراعية حول رأس ريس الواقع في الجزيرة نفسها. وتيمناً بهذا الحدث سمي باسمه على الخارطة الجغرافية المعاصرة الخليج بين جزيرتي نيوفوندلاند وكيب بريتون. ولعجائب القدر تلقى الإيطاليون قصب السبق هنا أيضاً: كان جون كابوت يسمى في الواقع بجوفاني كابوتو، وكان بحاراً إيطالياً يعمل في إنكلترا، ولكن لا ينوي أحد أن ينزع من كولومبس أكاليل المكتشف الأول للعالم الجديد. "ومع أن كولومبس لم ير أبداً القارة الأمريكية- الشمالية وبقي يفترض حتى آخر أيامه أنه اكتشف الهند، فانه يبقى مع ذلك الشخصية الرئيسة لعصر الاكتشافات الجغرافية الكبرى، ومآثره أمام البشرية أرفع بكثير من أفعال الفيكنغ"[٥].

من المهم جداً في هذا الصدد التحديد الدقيق لما يقصد بمصطلح "الاكتشاف الكبير". يكتب الجغرافي المعروف ماغيدوفيتش: "الاكتشاف الجغرافي يعني زيارة ممثلي شعب متحضر لجزء من سطح الأرض لا تعرفه البشرية المثقفة أو اقامة صلة مكانية بين أجزاء معروفة من سطح

الأرض"[٦]. من الواضح تماماً أن رحلات كولومبس عبر الأطلسي تخضع كلية لجزئي هذا التعريف، إذ إن الجنوي العظيم لم يكتشف قطاعات من اليابسة في الغرب جديدة ومجهولة "للبشرية المثقفة" فحسب، بل وأرسى أساس الترابط الوطيد والمنتظم بين العالمين القديم والجديد.

ولا يضام الفيكنغ في غضون ذلك. يقول الكاتب الألماني المعروف كيرام: "نستطيع أن نقول اليوم شيئاً واحداً فقط، وهو أن رحلات الفيكنغ إلى أمريكا موضع اهتمام من نواحٍ كثيرة، ولكنها لم تغير العقائد، ولا الظروف الاقتصادية للحياة سواء لدى الأوروبيين، أو السكان الأصليين للقارة الأمريكية. كولومبس هو الذي فعل هذا..."[٧].

يبدو لي أن أولياء الأمور في مدينة بوسطن الأمريكية القديمة وجدوا في هذا الصدد أكثر الحلول حكمة، إذ أقاموا منذ القرن الماضي تمثالين رائعين من البرونز لكولومبس، ولايف اركسن.

ولا يقل عن ذلك أهمية أن نمعن أيضاً في علاقة كل الحالات المعروفة للرحلات إلى أمريكا قبل كولومبس باكتشافات هذا البحَّار العظيم. في رأيي أن هذه القضية الفائقة التعقيد قد عرضها بأكثر ما يكون من الموضوعية المؤرخ المعروف من الولايات المتحدة جون فيسكي الذي وضع مؤلفاً ضخماً من مجلدين عن اكتشاف أمريكا[٨]. كتب في معرض حديثه عن مغزى اكتشاف الفيكينغ الذين انطلقوا من مستعمراتهم في غرونلاند وأيسلاندا إلى شواطئ أمريكا الشمالية: "من كل ما قيل يتضح تماماً أن كل هذه الرحلات القديمة التي سبقت كولومبس لم تنطوِ على أية آثار تاريخية مهمة. لم تسفر في قضية الاستيطان إلا عن إقامة مستعمرتين بائستين على

ساحل غرونلاند، ولم تؤدِّ في النواحي الأخرى أيَّ قسط فعلي في ذخيرة المعارف الجغرافية، ولم تمارس أي تأثير في عقول الأوروبيين خارج سكاندينافيا... في أواخر القرن السادس عشر أصبحت الرحلات إلى فينلاند أمراً منسياً... ولم توجد أية علاقات فعلية بين النصفين الشرقي والغربي من كوكبنا قبل رحلة كولومبس الكبرى عام ١٤٩٢"(٩).

إذا ضربنا الصفح عن المبالغات والتطرفات التي ارتكبها هنا المؤلف الأمريكي، وذلك كما هو واضح، في وطيس النقاش مع معارضيه، فمن الممكن عموماً الموافقة على هذا التقدير، ولكننا لن نتسرع، وسنعطي الكلمة أيضاً لأحد معارضي فيسكي، وهو من المدافعين عن أولوية البحارة البولينيزيين في اكتشاف أمريكا. إنه، لسخرية القدر، إيطالي أيضاً من حيث القومية، أي من مواطني الجنوى العظيم، واسمه فولكو كويليتشي.

يقول في كتابه "المحيط": "كان أخلاف الفينيقيين الأباة في البحر الأبيض المتوسط يتنقلون على مقربة من شواطئ يعرفونها جيداً، وفي حالات نادرة كان أجرؤهم يقطعون البحر المغلق مجتازين مسافة لا تعدو ٢٠٠ ميل. بيد أن الفينيقيين قلما كانوا يقْدِمون على الإبحار بعيداً عن الشاطئ".

جمع البحَّارة البرتغاليون معلوماتٍ كثيرةً عن المحيط الأطلسي، ولكن اقتضى الأمر ٦٠٠ سنة كاملة ليكتشفوا جزر أسور وجزيرة ماديرا الواقعة غير بعيد نسبياً عن سواحل أوروبا، ووصل بعض السفن إلى الساحل الإفريقي. بيد أنهم لم يجرؤوا على التقدم إلى أبعد من ذلك. إذ كانوا يعرفون أنهم لا يستطيعون رؤية نجمة القطب بعد قطع خط الاستواء، وهذا من

شأنه أن يعني هلاكهم الأكيد: كان البحارة المتهوِّرون، حسْبَ تصور معاصريهم، إما أن يُسْلَقوا أحياءً في مياه المحيط المغليّة، وإما أن يسقطوا في الهاوية بعد أن يقعوا عن حافة الارض.

وعلى الطرف المقابل من الأرض كانت الجنوك (المراكب الشراعية) الصينية تبحر من جزيرة إلى أخرى، ولكنها لم تكن أبداً تترك ساحل القارة يفلت من أنظارها. وكان التجَّار من شبه الجزيرة العربي والهند يقومون برحلات جريئة، ولكنهم أيضاً لم يوغلوا بعيداً في عرض البحر. في شمال أوربا فقط أقدَمَ الفيكينغ على رحلات تمكن مقارنتها برحلات البولينيزيين، وكانت لهم سفن كبيرة جداً بمقاييس تلك الأزمنة، وخرائط مفصَّلة جداً، وإن لم تكن دقيقة، وأشرعة من القماش. وكان الفيكينغ يحسنون استخدام الأدوات المعدنية. ومع ذلك لم يقْدِموا على رحلات بعيدة وخطرة، كما فعل البولينيزيون.

وكانت من نصيب البولينيزيين مهمة صعبة، وهي خوض الصراع وجهاً لوجه مع المحيط الهادئ والتغلب عليه. لقد صنعوا المعجزات بدون خرائط، وبدون أجهزة متطورة إلى هذه الدرجة أو تلك، مهتدين بالنجوم وحدها ومتكلين على رحمة الآلهة فقط. مضت سبعة قرون كاملة قبل أن يقوم كريستوف كولومبس المولود في جنوى والذي يحمل الجنسية الإسبانية على متن ثلاث سفن متينة كبيرة برحلته الشهيرة التي كانت أقصر وأقل خطراً بكثير من رحلات البولينيزيين على زوارق الكنو السريعة الانقلاب"[١٠].

يمكن متابعة الحديث إلى ما لا نهاية عن هذه المجابهة بين النظرات والآراء. وهذه المناقشات تضرب جذورها في طيات العصور وصولاً إلى

تلك اللحظة التاريخية حينما وطئ كولومبس الساحل الرملي لجزيرة غواناخاني في عام ١٤٩٢. وبعد أن أثبت البحارة الإسبان والبرتغالون الحقيقة التي لا تدحض والقائلة بأن قارة ضخمة أخرى تقع خلف رحاب الأطلسي الزرقاء، ظهرت على الفور مناقشات حول الاكتشاف الحديث. وكان سؤالان رئيسان يشغلان دوماً الاختصاصيين والجمهور الواسع على حد سواء: مِن أين أخذت ثقافة الهنود المحليين مصادرها، وهل كان لكولومبس سابقون؟

نفى بعض العلماء بشدة أية إمكانية لأية اتصالات عبر المحيط بين سكان القارة الأمريكية والعالم الخارجي قديماً. أما الآخرون فيحاولون، على العكس، البرهان على أن قطع المحيطات كان، شأنه ألا يشكل صعوبة كبيرة بالنسبة إلى إنسان العصور السابقة. ولهذا يحاولون إرجاع كل منجزات الهنود الحمر الثقافية إلى هذه المراكز أو تلك لحضارة العالم القديم.

واليوم لم ينجرَّ العلماء وحدهم إلى هذا النقاش، بل كذلك الدبلوماسيون والموظفون والكتَّاب ورجال الدين، وحتى دول بأكملها. وكان الذود عن الهيبة القومية ورسوخ مسلَّمات الدين والغرور، وحتى الثروات والركض وراء الإثارة تسبغ على النقاش أحياناً شكلاً مشوهاً جداً. بيد أن هذا الاحتدام للنقاش الذي لم يخمد إلى الآن يشكل، في رأيي، برهاناً رائعاً على المغزى العلمي والبشري العام للموضوع المشار إليه.

في غضون القرون المنصرمة تكدست أدبيات كثيرة عن الصلات بالعالم الجديد قبل كولومبس. وحجج الأطراف مشوشة جداً وتكاد تكون مستعصية على الفهم في حالات كثيرة. وليس من النادر أن نجد الفرضيات

القديمة التي رفضها العلم قد ارتدت بفضل جهود الأشخاص المعنيين ملابس زاهية جديدة، وصارت تهرع مجدداً لتشغل مكانها في النقاش. والتمعن في بحر المناقشات المتلاطم هذا ليس بالأمر السهل أبداً بدون خبرة وإعداد خاصَّين.

ولذا يعرب المؤلف عن الأمل في أن يشكل هذا الكتاب بوصلة للقارئ المهتم بالصلات بين سكان العالمين القديم والجديد.

هوامش المقدمة

١ - بيكلس. أمريكا بمنظار المكتشفين الأوائل. موسكو. التقدم، ١٩٦٩، ص ١٧.

٢ - رحلات كريستوف كولومبس. يوميات. رسائل. وثائق. موسكو: غيوغرافغيز، ١٩٥٦، ص ٨٩.

٣- تجري إلى الآن مناقشات حادة في هذا الصدد. بعد أبحاث المؤرخ مريسون من الولايات المتحدة في الأربعينيات اعتبر أغلب الباحثين أن غواناخاني هي جزيرة وتلنغ. ومنذ أمد قريب فقط، في عام ١٩٨٦، كشفت مجموعة اختصاصيين من الجمعية الجغرافية الوطنية (الولايات المتحدة) بواسطة الكمبيوتر أن غواناخاني هي جزيرة سامانا كاي راجع:

"Con ayuda de computadores se aclara la llegada de colon a este continenete". – "El Universo" 9 oct. 1986, Quito.

4- R.A.Skelton, T.E.Martson and G.d. Painter. The Vinland Map and The Tartar relation. New haven and London, Yale University press, 1965.

5- C.W. Ceram. The First American. A Story of north american Archaeology. New York, 1971, p.15.

٦ - ماغييدوفيتش. مقالات في تاريخ الاكتشافات الجغرافية. موسكو ١٩٤٩، ص٣.

7- C.W.Ceram. The First American..., p. 28.

٨- فيسكي. اكتشاف أمريكا مع عرض موجز لأمريكا القديمة والغزو الإسباني. موسكو، ١٨٩٢، ص ١٠٥.

٩ - فيسكي. اكتشاف أمريكا...، ص ١٧٣ ـ ١٧٤.

١٠ - كويليتشي. المحيط. موسكو، دار "ميسل"، ١٩٧٦، ص ٧٢.



الفصل الأول

بداية النقاش – (نظريات غريبة)

في الفترة الأولى بقيت الأراضي التي اكتشفها كولومبس وراء البحار تسمى "جزراً"، ولكن في عام ١٥٠٥، بعد أن قام الإيطالي أمريكو فسبوشي برحلتين إلى شواطئ البرازيل، أعلن بثقة: "نستطيع أن نسميها بحق عالماً جديداً... **القارة**(*) الأكثر كثافة بالسكان ووفرةً بالحيوانات من أوروبا وآسيا أو إفريقيا..."(١). لم يقدر جهود فسبوشي حق التقدير سوى أحد معاصريه، وهو واضع الخرائط الألماني فالدزييميولر. ففي مؤلفه الضخم "المدخل في علم الكونيات"، الذي صدر عام ١٥٠٧؛ سمى لأول مرة الأراضي الواقعة في غرب الأطلسي "الأراضي الأمريكية" (أو "أمريكا" على شرف أمريكو فسبوشي)، لأن الخرائط التي وضعها الأخير هي بالذات التي أوحت إليه بفكرة القارة الجديدة.

التقاليد شيء عظيم، والحق يقال! بقي الإسبان طويلاً، على أثر كولومبس، يسمون ممتلكاتهم وراء البحار "الهند" (أو "الهند الغربية")، ويسمون سكانها "هنوداً". وهذا في ظل التبدد السريع لخطأ البحَّار العظيم الذي اعتبر الأراضي التي اكتشفها جزءاً من آسيا الشرقية (الهند، الصين،

(*) إشارة التشديد من المؤلف.

اليابان)، ففي عام ١٥١٣ انطلق فاسكو نونيس دي بالبوا إلى شاطئ المحيط الهادئ، وفي عام ١٥١٩ قام مأجلان بأول رحلة حول الأرض. اتضح أن أمريكا تفصلها عن سائر قارات العالم، سواء من الغرب أو من الشرق، أرجاء مائية شاسعة لمحيطين. الاعتراف بهذا الواقع أثار على الفور عدداً من الأسئلة في صدد منشأ الهنود الأمريكيين. هل كانوا سكاناً أصليين للقارة؟

كتب المؤرخ الأمريكي وليم بريسكت: "حينما وصل رسل أوروبا إلى شواطئ العالم الجديد، بدا ذلك وكأنهم وطئوا كوكباً آخر... كل شيء هناك كان بعيد الشبه عن اللوحات المألوفة لهم. عرفوا أصنافاً جديدة من النباتات والحيوانات. وكذلك كان الإنسان المحلي، سيد الطبيعة. غير مألوف بالدرجة نفسها من حيث المظهر الخارجي واللغة والنظام الإجتماعي، وهؤلاء الأوروبيون، الذين أدهشهم ما رأوه، أسموا الأرض التي اكتشفت لتوها "العالم الجديد".[٢]

في ذلك الحين، عندما ظهر البحارة الأوروبيون لأول مرة عند شواطئ أمريكا في أواخر القرن الخامس عشر، كانت كل هذه القارة المزدوجة الشاسعة، بما فيها جزر وست أنديا، آهلة بالعديد من القبائل والشعوب الهندية التي كانت تضم (حسب تقدير العلماء المعاصرين) عشرات ملايين الأشخاص. وكان أغلبهم يعيش حياةَ رُحَّل يمارسون القنص وصيد السمك وجمع النباتات، أو كانوا يمارسون زراعة بدائية. في المكسيك وبيرو فقط لقي الكونكستادور[*] الإسبان حضارات عالية

(*) كلمة إسبانية (Conquistador) معناها "الفاتح"، وتطلق على المشاركين في الغزو الإسباني لأمريكا الجنوبية والوسطى (Conquista) في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. **المترجم**

التطور، ورأوا مدناً تعج بالناس ذاتَ قصور ومعابد رائعة ومؤسسات متكونة للدولة: قضاة وموظفين، وكهاناً ومحاربين محترفين، وحكاماً فائقي الغنى. كان كل هذا يقتضي التفسير المناسب وضرورة ربط اللوحات العجيبة للعالم الجديد بالمفاهيم الأساسية للفلسفة المسيحية. وأثار الهندي الأحمر بشكل نفسه، بأنظمته ومعتقداته وعاداته غير المفهومة موقفاً متناقضاً خاصة لدى الأوروبيين.

إن القوالب الخاطئة والأوهام التي حملوها من أوروبا أعاقتهم كثيراً عن أن يفهموا ويقدروا الواقع الأمريكي بشكل صحيح. وهل ثمة من اختلاقات سخيفة عن سكان العالم الجديد لا نصادفها في الأدب والفن الأوروبيين في القرن السادس عشر: من الأصداء الملموسة للأساطير الكلاسيكية عن "المتوحش غير المبالي. والمرح" الذي يعيش في "عصر ذهبي" من نوع خاص، في تكاسل ورخاء، في أحضان الطبيعة الإستوائية الفاخرة واللطيفة، وإلى وضع إشارة مساواة بين الهنود الحمر و"أعوان الشيطان"، ممن لم يصلوا إلى مرتبة الإنسان والمجردين من الأرواح"[٣].

لقد حكم أنصار وجهة النظر الأخيرة هذه (وكانوا كثيرين بشكل خاص بين الكونكستادور) على سكان أمريكا الأصليين إما بالإبادة الكاملة، وإما بالعبودية الدائمة. ويكفي إلقاء نظرة سريعة على شهادات "فرسان الكونكستا" هؤلاء (رسائل كورتس والفارادو، ومفكرات الجندي بيرنال دياس ديل كاستيليو) لفهم حقيقة واحدة، وهي أن الهندي الأحمر كان بالنسبة إليهم مجرد صيد وإضافة من نوع خاص إلى المنظر المحلي أو عقبة على الطريق المؤدي إلى الاستيلاء على ذهب ملوك الهنود الحمر.

ووجد أيضاً موقف سلبي عند الكونكستادور إزاء كل ما صنعته عبقرية الهندي الأحمر في مجالي الحياة المادي والروحي. وهكذا، لم يحاول أحد لأمد طويل أن يدحض تأكيد المؤرخ السكوتلاندي وليم روبرتسن الذي أعلن بغطرسة في عام ١٧٧٧، مستنداً إلى الوثائق الإسبانية: "عاش سكان العالم الجديد على مستوى من الوحشية جعلهم لا يعرفون الفنون التي تشكل المحاولات الأولى للنتاج الإنساني على طريق الكمال... وفي كل الإمبراطورية الشاسعة للعالم الجديد (*) لا يوجد أي أثر أو أطلال لمبنى أقدم من آثار ومباني المستوطنين" (٤).

ووجد كذلك نوع آخر من هذه الآراء المتطرفة. فالكونكستادور، إذ اصطدموا في جملة من الأماكن بآثار جلية لحضارة عالية على شكل مدن، وعمارة حجرية، وتماثيل وتصوير جداري، و"كتب" هيروغليفية من نوع خاص، وتقويم شمسي، ومعارف في الفلك، قرروا بلا تردد،أن الهنود الحمر الوثنيين شبه العراة ما كانوا ليستطيعوا أن يبدعوا وحدهم هذه النماذج الرائعة للثقافة، وهذا يعني أنه ينبغي البحث عن جذورها في العالم القديم.

ولما كانت معلومات الأوروبيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر عن الثقافات القديمة في الكرة الأرضية محدودة جداً، فقد استعانوا لتفسير الظاهرة الأمريكية بكل المصادر المتوفرة تحت أيديهم، وبالدرجة الأولى، طبعاً، الكتاب المقدس. ولكن الكتاب المقدس لا يتحدث بشيء عن سكان العالم الجديد ذوي البشرة الحمراء. فهل ثمة والحالة هذه ما يدعو إلى العجب في أن الكثيرين من الغزاة الأسبان في الفترات الأولى كانوا يفضلون عموماً عدم اعتبار الهنود الحمر أناساً ويسمونهم "إفرازات الشيطان".

(*) يقصد الممتلكات الاستعمارية في أراضي المكسيك وغواتيمالا. المؤلف

كانت وجهة النظر هذه تبشر المستعمرين بفوائد جمة، إذ تسوغ استعباد السكان الهنود الأصليين واستغلالهم البشع، وتخفف في الوقت نفسه من تأنيب الضمير عند المدافعين الغيورين عن العقيدة المسيحية المقدسة. وها هو الهيدالغو(*) "النبيل" خينس دي سيبولفيدا يقول عن الهنود الحمر بلا أي تردد أنهم "متخلِّفون عن الإسبان من حيث العقل والابتكار والفضيلة قدر تخلف الأطفال عن البالغين، والنساء عن الرجال. والفرق بينهم كبير شأن الفرق بين... القرود والناس"(٥). ولكن فيما بعد رفضت الكنيسة الكاثوليكية والملك الإسباني وجهة النظر هذه بعد أن أقلقهما التقلص الشديد لعدد رعاياهما الجدد. واضطلع بدور كبير هنا بيان البابا بولس الثالث بتاريخ ٩ حزيران عام ١٥٣٧ الذي أعلن أن كل الهنود الحمر أناس جديرون بتقبل نور الايمان المسيحي. وفي الوقت نفسه رفع الراهب بارتولوميو دي لاس أساساً صوتَه الغاضب كإنساني ضد فظائع وعسف الغزاة الأوروبيين، داعياً إلى احترام الكرامة الإنسانية لسكان أمريكا الأصليين. كتب الباحث الأمريكي لويس هانكي: "هنود العالم الجديد بالنسبة إليه... لم يكونوا وحوشاً، ولا عبيداً بطبيعتهم، ولا مخلوقات في طور النشوء بعقل محدود أو جامد، بل أناساً حقيقيين بكل فضائلهم وقدراتهم"(٦).

وفي نهاية المطاف صار الهنود الحمر أيضاً يعتبرون جزءاً من الجنس البشري، ولكن هذا زاد من تفاقم مسألة أصلهم أكثر فأكثر. لقد كان عند العلماء ما يُعمِلون التفكير فيه.

(*) (hidalgo) احد أفراد فئة الفرسان الصغار والمتوسطين في إسبانيا في القرون الوسطى. **المترجم**

«أسباط إسرائيل العشرة»

لم يكن واضعو الفرضيات الأولى عن أصل الهنود يخمنون أن العادات أو ملامح الثقافة المتشابهة يمكن أن تظهر عند مختلف الشعوب من غير أن يتأثر بعضها بالبعض. بالنسبة إليهم كانت كل حالة كهذه تغدو على الفور برهاناً لا جدال فيه على صِلات تاريخية ملموسة. وبفضل الكتاب المقدس، كان المؤرخون واللاهوتيون يعرفون تاريخ اليهود القدماء أكثر من أي شيء. وحينما تسنى اكتشاف بعض عاداتهم ومعتقداتهم، التي كانت تعتبر فريدة، عند الهنود، كما كانوا يظنونهم، نشبت عاصفة حقيقية. وصار التخمين يعقب التخمين. وأخيراً، في القرن السادس عشر، طرح بارتولوميو دي لاس بالذات أساس فكرة انتقال "عشَرة أسباط إسرائيلية" اختفت إلى العالم الجديد.

جاء في العهد القديم أنه بعد أن هزم الآشوريون المملكة الإسرائيلية في القرن الثامن ق.م، "اختفت" بعض القبائل الإسرائيلية في مكان ما، ومنذ ذلك الحين لم يرد ذكرها في مدونات التاريخ. يبدو أنه ليس ثمة هنا ما يستحق الاعتبار، وهل هي قليلة الأمثلة التي نعرفها عن هلاك شعوب وحضارات بأكملها تحت ضربات الغزاة القساة، ولكن يتضح أن الأمر لا يكمن هنا على الإطلاق، فحسب القناعة العميقة لبعض المؤلفين، لم تتلاش "الأسباط الإسرائيلية العشرة"، بل وصلت إلى العالم الجديد بوسيلة

خفية. وطبيعي أنه عزيت إليها بالذات إقامة تلك الحضارات الرفيعة التي اصطدم بها الغزاة في القرن السادس عشر. وعلاوة على ذلك، صار ينظر بجدية تامة إلى "القبائل الإسرائيلية المختفية" كأسلاف مباشِرين للهنود الحمر، سكان أمريكا الأصليين.

كان أنصار هذه النظرية السخيفة يؤكدون أن المدونات الإسبانية المبكرة احتفظت ببراهين "واضحة" على الدور الكبير الذي اضطلعت به عناصر الكتاب المقدس في ديانة المكسيك قبل كولومبس. كان يكفي، مثلاً، أن يعرف الرهبان الكاثوليك أنه كانت توجد عند المايا القدماء حكاية عن الطوفان، لكي يقارنوها على الفور بقصة الكتاب المقدس المعروفة. وعثر في معابد المايا على صور لصلبان يبجلها الهنود الحمر. لقد "أعرب" الإله المكسيكي كيتسالكواتل عن جملة من المسلمات المسيحية وحتى أنه كان يوجد صليب بين شعاراته الأخرى. واتضح أن الهنود الميشتيكيين كانوا يعلمون بصلب المسيح. وثمة تصوير لهذا المشهد، وإن كان معدلاً على الطريقة المكسيكية، في عدة مخطوطات وجدت قبل الإسبان. أليس كل هذا برهاناً على التأثير المثمر الذي مارسته "الأرض المقدسة" الواقعة في الشرق؟[٧].

يكتب المؤرخ ديكسن من الولايات المتحدة: "إن قصة الطوفان الكبير، الذي لم يسْلَم بعده إلا قلة من النخبة، منتشرة على نطاق واسع في كل مكان (وهي ظاهرة أندر في إفريقيا وحدها). ولكن الشيء المشترك بينها هو فكرة الطوفان فقط. وكل ما عداها متباين من حيث الجوهر، لا في التفاصيل فحسب. في إحدى الأساطير يظهر الطوفان مصادفة. وفي غيرها كنتيجة لغضب إلهي. وفي ثالثة يرتبط باصطدام قوتين سماويتين. ونجا

الناس من الطوفان بصورة متباينة: في قارب أو على شجرة عالية أو على جبل... هذه المياه التي تفيض عن ضفافها لا تزال إلى الآن توفر الإمكانية لوضع نظريات خيالية"[٨].

على هذا النحو، كانوا في السنوات الأولى بعد الكونكستا (أواخر القرن الخامس عشر - القرن السادس عشر) يبحثون غالباً عن أسلاف الهنود الحمر بين شتى الشعوب السامية في العالم القديم. وكان المؤلفون الكاثوليك، تنفيذاً لمشيئة بابا روما وملك إسبانيا، يسعون بكل قواهم إلى البرهان على أن سكان أمريكا الأصليين أخلاف مباشِرون لأبناء نوح وينتمون، بالتالي إلى العالم نفسه الذي ينتمي إليه الناس الآخرون. وليست مصيبة إذا لم تكف أحياناً البراهين المقنعة على الصلات بين الهنود وشعوب الكتاب المقدس. كان يكفي مثلاً وضع علامة مساواة بين بيرو وبلاد أوفير الأسطورية وإعلان أن أسطول الملك سليمان وصل إلى أمريكا قبل كولومبس بنحو ٢٠٠٠ سنة. في القرن الثامن عشر كان الأصل اليهودي للهنود الأمريكيين لا يزال يعتبر في الولايات المتحدة صيغة يكاد يعترف بها الجميع.

وفي القرن التاسع عشر حاول الوجيه الإنكليزي اللورد كينغسبورو مجدداً البرهان على أن الأتستيكيين والمايا يرجعون بأصلهم إلى "الأسباط الإسرائيلية المختفية" المزعومة. وقد جمع ونشر في تسعة مجلدات فاخرة من "العاديات المكسيكية" العديد من المخطوطات الهندية التي لا تقدر بثمن، ولكن كل محاولاته لايجاد مقارنات مقنعة ولو بعض الشيء بين ثقافتي أمريكا الوسطى واليهودية مُنيت بالإخفاق. وبعد أن أنفق كينغسبورو على هذه الاستقصاءات العميقة كل ثروته الضخمة، غرق،

في نهاية المطاف، بالديون، وزج به في سجن مدينة دوبلن إلى أن مات بنوبة قلب. بيد أن النظرية "الإسرائيلية" لأصل هنود أمريكا، التي ذاد عنها، لم تتبدد أبداً بعد هذا، وتصادف أصداؤها في أيامنا أيضاً، مع العلم أن المسلمات الأساسية لهذه النظرية تسلح بها أفراد الطائفة الدينية الكبيرة وذات النفوذ "كنيسة يسوع المسيح" **(**المورمون**)** التي تنمو وتزدهر في الولايات المتحدة.

كتاب المورمون المقدس

في "كتاب المورمون المقدس" (ظهر أول أشكاله المطبوعة عام ١٨٣٠ في الولايات المتحدة) جاء بلا لبس أو إبهام أن مختلف القبائل السامية الأسطورية - الياردين والنيفيين واللامانيين - التي قدمت إلى أمريكا في مختلف الأزمنة هي مؤسسة حضارات أمريكا ما قبل كولومبس. الأولى بينها سلكت سبيلها بعد بناء برج بابل إلى النصف الغربي من الكرة الأرضية، حيث انقرضت عن بكرة أبيها في القرن الثاني ق.م. والمجموعات الثانية من الإسرائيليين توجهت إلى العالم الجديد برئاسة المدعو ليخي نحو عام ٦٠٠ ق.م. وإحدى هذه المجموعات، النيفيون، أسست الحضارات الرئيسة في المكسيك وبيرو، ولكنها اختفت بلا أثر في عام ٣٢٤ ق.م. وكانت مجموعة أخرى من المستوطنين القادمين من اليهودية، وهي أكثر بدائية من حيث مستوى الثقافة، سلفاً لهنود أمريكا الشمالية. لا حاجة إلى القول أنه لا توجد أية براهين علمية في مصلحة هذه التأكيدات الخيالية.

ولكن لما كان قساوسة المورمون الروحيون أناساً غير مجردين أبداً من الذكاء العملي، فإنهم لم يقتصروا على مجرد الإستناد إلى هيبة الكتاب المقدس. فقد أقيمت في الولايات المتحدة بأموال الطائفة على وجه الحصر جامعة برينغهم يانغ الخاصة التي أصبحت المصدر الرئيس لآراء المورمون. وإذ يتقنَّع بعض العاملين في الجامعة بقناع العلم، يحاولون أن

يبعثوا من جديد أكثر فرضيات القرون الماضية خيالاً وسخفاً. في عام ١٩٥٣ طبعت في "نشرة" برينغهم يانغ مقالتان مكرستان لموضوع الصليب في فن المايا القدماء. يؤكد مؤلفو المقالتين بكل جد أن الصليب برهان لا يدحض على تغلغل المسيحية في أمريكا قبل كولومبس بزمن طويل. ونصادف هناك الرواية القديمة القائلة بأن المايا القدماء عرفوا قصة الكتاب المقدس عن الطوفان، وبأن إلههم كوكولكان- كيتسالكوات ليس إلا يسوع المسيح نفسه.

في عام ١٩٧٠ تحدثت صحافة الولايات المتحدة غير مرة عن لقية زُعِمَ أنها تبرهن بصورة مقنعة على أن مجموعات من اللاجئين اليهود وصلوا، بعد هزائم كبرى ألحقها الرومان باليهودية المنتفضة في عامي ٧٠ و١٣٥ ب. م إلى شواطئ أمريكا الشمالية. ويذود عن هذه الرواية بنشاط خاص البروفسور الفيلولوجي سايروس غوردن الذي يستند بمثابة حجة رئيسة له إلى لوح غامض برموز كتابية عثر عليه في عام ١٨٨٥ في تل في أراضي ولاية تنيسي (الولايات المتحدة) في مدفن قديم. والنص في رأي غوردن، يقرأ بوضوح تام، ومعناه: "لبلاد اليهودية".

وليسبغ على محاكماته المزيد من الصدق، يشير إلى قبيلة الميلونغيونيين الغريبة في تنيسي، فهؤلاء "ليسوا هنوداً حمراً، ولا أفارقة، بل ينتمون إلى المجموعة الانتروبولوجية القوقازية".

ينبغي القول أن الأغلبية الساحقة من الاختصاصيين لا تحمل "براهين" غوردن على محمل الجد، وتنفي نفياً قاطعاً وجود متحدرين من اليهودية في أي مكان من العالم الجديد قبل كولومبس.

من المستبعد أن يستحق الأمر التوقف بمثل هذا التفصيل عند كل هذه الاختلاقات السخيفة لو أنها، للأسف الشديد، لم تظهر من حين إلى آخر على صفحات الكتب الشائعة أيضاً. ولم يعد الآن خافياً على أحد أن تصوير الصليب كان موجوداً عند الكثير من القبائل والشعوب القديمة، وهو مرتبط عادة بعبادة النار والشمس. ولهذا لا يجوز اعتبار الصليب وقفاً على شعب واحد، أو دين واحد، ومن باب أولى المسيحية.

ومن الطريف أن تصوير الصليب يصادف في المكسيك على الأواني الفخارية المزخرفة من الألف الأول ق.م، أي قبل ظهور التعاليم المسيحية الرسمية بأمد طويل. أما قصص الطوفان، فهي انعكاس لجوائح وكوارث طبيعية واقعية أصابت مختلف الشعوب في مختلف الأزمنة. وعند المايا، كما عند غيرهم من الشعوب القديمة، حكايات مماثلة بطابعها. وبناء على معتقداتهم، أُبيد العالم أربع مرات بسيول ماء هبطت من السماء.

قارتا أطلنطيد ومو المنقرضتان

حظي بشعبية لا تقل عن ذلك عند مؤرخي "الهندات"(*) الأوائل ما يسمى بالنظرية "الأطلنطيدية" القائلة بأنه ينبغي البحث عن مصادر كل الحضارات القديمة الرائعة في أطلنطيد، الجزيرة الشاسعة التي غابت في لجة المحيط بعد كارثة غامضة. من المستبعد أن الفيلسوف اليوناني أفلاطون، إذ أَلَّف في القرن الرابع ق.م هذه الأسطورة الجميلة والبريئة، كان يفترض أنها ستستغل بعد مرور قرون كثيرة. لقد حاولوا استخدام هذه الجزيرة، التي يلفها ضباب رومنتيكي، لحل الكثير من ألغاز التاريخ. وحينما فتحت سيوف الكونكستادور الإسبان أمام أوروبا المشدوهة الستار عن العالم الجديد المجهول، المختبئ حتى ذلك الحين، ورأى الجميع ثروات الحضارات الهندية الصريعة عامت على السطح فوراً أسطورة أطلنطيد من جديد. وأُعلنت أطلنطيد وطناً لكل الحضارات الرفيعة في أمريكا قبل كولومبس.

كان المؤرخ الإسباني فيرناندو دي أوفييدو (عام ١٥٣٥) والشاعر الإيطالي جيرالومو فراكاستورو (عام ١٥٣٠) أول من نشر هذه الفكرة.

(*) "الهندات" ("Indias") مصطلح جغرافي انتشر في أوروبا في القرن الرابع عشر، ويقصد به شبه جزيرة هندوستان (الهند الكبرى) والهند الصينية (الهند الصغرى) وأثيوبيا (الهند الوسطى). وبعد اكتشاف كولومبس جزر أنتيل اعتبر خطأً أنه اكتشف واحدة من هذه الهندات. المترجم

وفي القرن السابع عشر وضع الفيلسوف الإنكليزي المعروف فرنسيس بيكون علامة مساواة بين هذه الجزيرة الأسطورية وأمريكا. وآمن بالأطلنطيد أيضاً نابغا عصريهما العظيمان فولتر ومونتن.

بقيت أسطورة أطلنطيد بلا تغيير تقريباً حتى عام ١٨٨٢، حينما أصدر المحامي الأمريكي أغناطيوس دونيلي، الذي لم يكن معروفاً قبل ذلك لأحد، كتاباً بعنوان "الأطلنطيد - عام ما قبل الطوفان". وقد ألف بروح "الكتب الرائجة" في ذلك الزمن، وهو حافل بتأكيدات جريئة، ولكنها، للأسف، مجردة من الأساس العلمي تماماً. ولما كان دونيلي يؤمن تماماً بواقع الجزيرة المختفية، اعتبر أن الانتقال من الهمجية إلى الحضارة تم في أطلنطيد بالذات، ثم حمل شعب أطلنطيد الجبار ثمار الحضارة الرفيعة إلى كل أرجاء الكرة الأرضية: إلى شواطئ خليج المكسيك، وإلى سكانديناڤيا، ووادي نهر المسيسبي، وحوض البحر الأبيض المتوسط.

ومع ذلك لقي الكتاب نجاحاً صاخباً لدى الجمهور. وفي عام ١٨٩٠ كان قد صدر ٢٣ مرة في الولايات المتحدة و٢٦ مرة في إنكلترا، وظهر لدونيلي العديد من الاتباع. ولمَ لا، إذا كان تفسير أي لغز في التاريخ القديم باختفاء قارات غامضة ذات حضارات مبكرة رفيعة للغاية أبسط بكثير من إجهاد الفكر في الأسباب الحقيقية لتلك الأحداث.

وسرعان ما تحولت الأسطورة البريئة للفيلسوف اليوناني إلى أكثر الأديان تعصباً بالنسبة إلى الكثيرين. ودار الثيوصوفيون(*) والصوفيون

(*) الثيوصوفيا (theosophy) - كل مذهب صوفي يتطلع إلى الاتصال بالإله والاتحاد به، وتلقي الإلهام والقوة الخارقة منه. ويطلق خاصة على جملة من المذاهب الصوفية غير المرتبطة مباشرة بالتقاليد الكنسية المسيحية. - **المترجم**

ومثقفو الانحطاط سرباً مبرقشاً حول الجزيرة الأسطورية، كأطفال يدورون حول شجرة رأس السنة. ثمة هنا ميدان رحب لكل محب للظواهر الغيبية الخفية: قارة كاملة غرقت، إضافة إلى ذلك، في لجة المحيط تجنباً لمختلف المنغصات من جانب العلماء المتعنتين بإفراط. وغدت أطلنطيد موضة من نوع خاص. وها هو الشاعر الروسي بلمونت، إذ يقف أمام الأطلال العظيمة لمدينة المايا القديمة أوشمال، يكتب في مفكرته وعيناه مغرورقتان بدموع الحنان:

"لن أقدم على الحديث عن هذه الانقاض. سرها عظيم جداً. وجمالها، مهما نقصه الناس والزمن، يبعث على التفكير في السر الذي يربط برباط محسوس، ولكنه متزعزع، في مستيريا(*) واحدة بلداناً شتى مثل مصر وبابل والهند، وهؤلاء المايا الذين لم يحل لغزهم. يفكر المرء في أطلنطيد الزائلة التي كانت مركزاً ومهداً لحضارات عالمية متباينة تماماً، ويشعر بأنه المستحيل بدون أطلنطيد فهم وتفسير عدد كبير من الظواهر في ميدان الخواطر عن نشأة الكون، وإبداع النحت والتصوير، وفن البناء. حالات التشابه والتطابق بليغة جداً"(٩).

وفي غضون ذلك استمرت الأحداث بالتطور في مجراها الطبيعي. واضطر العلماء، عوضاً عن حل الكثير من القضايا الناضجة لتاريخ العالم الجديد، إلى هدر الزمن والقوى على مناقشات دائمة وعقيمة حول صحة وجود أطلنطيد. وفي الوقت نفسه كان أتباع دونيلي يكتبون مؤلفات جديدة

(*) مستيريا (mystery) تمثلية دينية تصور مشاهد من الكتاب المقدس كانت أوروبا في القرون الوسطى تعرضها في الساحات العامة أيام الأعياد الدينية. - المترجم

باستمرار، سعياً منهم إلى تطوير آراء معلمهم. وكان ينجم عن وصفهم أن أطلنطيد كانت تسكنها كائنات غريبة شبيهة بالإنسان وجدت عندها قبل أيامنا بزمن طويل معادن مدهشة ومراكب جوية وغواصات، وكانت بالإضافة إلى ذلك تستخدم الطاقة الذرية. وحينما غرقت هذه القارة الكبيرة، وصل الأطلنط الناجون إلى سواحل أمريكا المقفرة، وأصبحوا سكانها الأوائل.

وفي عام ١٨٩٣ أعلن الأمريكي بليكت أن معبد الهنود الغواتيماليين في أوتلاتلان هو معبد الأطلنط الضخم الذي وصفه أفلاطون. وبعد أربع وستين سنة بدأت البعثة الآثارية لجامعة تولين (الولايات المتحدة) تنقيبات واسعة في الأطلال القديمة. وقد تجلت إبان الحفريات لوحة مدهشة: المعبد، الذي أشار إليه بليكت، وكل المدينة عموماً بُنِيا في القرن الخامس عشر ب.م، أي بعد ١٩٠٠ سنة من موت أفلاطون، وبعد ١٠٠٠٠ سنة من اندثار أطلنطيد المفترض!

وكان كتابا الإنكليزي لويس سبنس "الأطلنط في أمريكا" (عام ١٩٢٤) و"قضية أطلنطيد" (عام ١٩٢٥) نهاية منطقية لمناقشات استمرت قروناً عديدة حول الجزيرة الأسطورية. كان ذلك في القرن العشرين. وكان زمن الأساطير الخيالية قد مضى منذ زمن بعيد. ولهذا لم يعد سبنس يؤكد أن أطلنطيد هي مهد كل الحضارات القديمة للبشرية. كلا، لقد حاول فقط أن يؤكد من جديد أن كل المنجزات الكبرى للهنود الأمريكيين، بما في ذلك معالجة المعادن والكتابة والعمارة والتقويم، قد جلبها قادمون من أطلنطيد. وبحثاً عن آثار إقامتهم في العالم الجديد انتبه سبنس إلى القوام المهيب لإله

الريح المكسيكي كيتسالكواتل. في إحدى المخطوطات الهندية القديمة توجد صورة لهذا الإله على شكل شخص يدعم قبة السماء بيديه.

وبدا هذا كافياً تماماً بالنسبة إلى سبنس. وأعلن على الفور أن كيتسالكواتل هو أطلس(*) المكسيكي، وأن كليهما كان إلهاً للأطلنط.

لا داعي للقول أنه لم توجد إلى الآن أية معطيات جيولوجية أو تاريخية أو أثرية تبرهن على أنه وجدت في الأطلسي جزيرة كبيرة أو قارة "مقابل أعمدة هرقل" (جبل طارق). ومع ذلك لا يزال يزدهر إلى الآن كل ما يخطر على البال من جمعيات الأطلنطولوجيين في الولايات المتحدة وبعض بلدان أوروبا الغربية. إنهم يعقدون لقاءات سنوية، ويصدرون طوابع خاصة إحياء لذكرى أطلنطيد، وينشرون وفرة من المجلات الخاصة والكتب، وينشب بين هذه الجمعيات في أحيان كثيرة تنافس ضار لا يتخذ في جملة من الحالات أشكالاً أكاديمية أصلاً. وهكذا، ففي عام ١٩٢٧ قام في مؤتمر "جمعية الأسكيزات الأطلنطيدية" السنوي في باريس إرهابي من إحدى المنظمات المتنافسة بإلقاء قنبلة على هيئة رئاسة المؤتمر ليقضي بضربة واحدة على كل قيادة الجمعية المعادية.

البحث عن أطلنطيد لم يكلل بالنجاح إلى الآن. وقد أعرب عن افتراضات تقول بأنها كانت تقع في إسبانيا، وفي جزر كناريا، وفي مصب نهر نيجري في إفريقيا، وفي اسكانديناڤيا، وفي بحر إيجة. وأثارت مداخلات القس يورغن سبانوت في الصحافة نقاشات حامية في ألمانيا. وحاول في

(*) أطلس في الميثولوجيا اليونانية، أحد العمالقة الذين حاربوا الآلهة. حكم عليه سيد الآلهة بحمل قبة السماء على كتفيه. المترجم

أعوام ١٩٤٧-١٩٥٢ في البداية نظرياً، ثم عملياً أن يعثر مرتدياً ملابس الغواص على الجزيرة الأسطورية في قاع بحر الشمال، قرب غيلغولاند [١٠]. ولكن القس، بقي في نهاية المطاف صفر اليدين شأن سابقيه: رغم أصالة الفكرة لم يبتسم له الحظ.

في عام ١٩١٨ أصدر الألماني رودولف شتينر في برلين كتيباً بعنوان يثير الفضول: "أجدادنا الأطلنط". وكان بين أقوال المؤلف الجريئة الأخرى هذه السطور: "وكما نستلخص الآن الطاقة لحاجات النقل من الفحم الحجري، كذلك كان الأطلنط يحسنون استخدام قوة البذور التي تنبت. في ذلك الحين لم يكونوا يزرعون النبات لأكله فقط، بل ولاستخدام القوى الكامنة فيه من أجل الصناعة والنقل، وكان الأطلنط يستطيعون تحويل قوى بذور النبات النامية إلى طاقة ضرورية للتقنية. وكانت أجهزة الأطلنط الطائرة التي تستخدم هذه الطاقة تحلق فوق الأرض على ارتفاع منخفض" [١١].

بعد هذه التأكيدات لا يدهش استنتاج شتينر القائل بالأصل الأطلنطيدي الأكيد لكل ثقافات الهنود في أمريكا ما قبل كولومبس.

أسطورة أطلنطيد، موطن حضارة البشرية بأسرها، لا الحضارة الأمريكية القديمة فحسب، لا تزال، للأسف، قائمة إلى الآن، حتى إنه تكتب على أساسها مؤلفات "علمية" مُسْهِبة مدعوة إلى البرهان على ما لا يبرهَن عليه.

يكتب عالم الآثار الأمريكي ووكب: "بأطلنطيد هذه يربطون في الغالب تاريخ الثقافات القديمة في أمريكا. ولكن هل تخضع هذه النظرية للاختبار؟ أطلنطيد قارة غير موجودة حالياً. ولا يستطيع الآثاريون قول

شيء عن ثقافتها. الحديث يجري عن يابسة غارت في لجة المحيط. وبديهي ألا توجد في الطبيعة آثار مادية لتاريخها. ثم إن المصادر (إذا كان يمكن إدراج حوار أفلاطون في هذه الفئة) شحيحة جداً. وليس مما يدعو إلى الدهشة أن وصف أطلنطيد والقارة المغمورة الأخرى، مو، وغيرها من المعجزات القديمة خيالي إلى درجة أن مصير هذه الأراضي الأسطورية يجذب اهتمام الفنانين والروائيين والشعراء"[١٢].

ثمة قارة أسطورية أخرى، وهي مو التي ظهرت من أعماق المحيط الهادئ بمشيئة الإنكليزي جيمس تشيرتشوارد. وهذا القطاع الواسع من الأرض وجد، على حد قوله، في الجزء الأوسط من المحيط بين أمريكا وآسيا، وكان له شكل يشبه مثلثاً تصل إحدى زواياه إلى جزر هاواي، والأخرى إلى جزيرة الفصح.

كتاب تشيرتشوارد "قارة مو المنقرضة"، الذي صدر في إنكلترا عام ١٩٢٩، نموذج كلاسيكي لأرخص إثارة وأوقح كذب. وكان المصدر الرئيس لمعلوماته عن القارة الخفية ما يسمى "الألواح الناكالية" التي أعطاها لتشيرتشوارد كاهن هندوسي غامض. هذا الكاهن، الذي لم يره أحد أبداً، ترجم على حد زعم المؤلف، نصوص هذه الألواح وحدثه عن سكان مو.

والقارة نفسها، كما يقول تشيرتشوارد، لم تثبت على سطح المياه المضطربة للمحيط الهادئ إلا بفضل "أحزمة غازية" خفية. وما إن انفجرت هذه الأحزمة حتى غاصت مو ببطء في لجة المحيط، وكأنها بارجة ملغومة. ولكن قبل أن يحدث هذا، كانت القارة قد تمكنت، حسب قول صانعها، أن تنشر حولها بعيداً كل ما يمكن من المواد والناس والحيوانات، بما في ذلك الديناصورات (؟؟؟). وكان يعيش في مو إبان ازدهارها ٦٤ مليون نسمة.

أعلن تشيرتشوارد، من غير أن يرهق نفسه بالبراهين والاستشهادات بأهل الثقة، أن قارة مو هي موطن كل حضارات كوكبنا القديمة. وحينما فنيت الجزيرة فجأة في الألف الثاني عشر ق.م، تمكن أهلها من الهرب إلى المكسيك ومصر، حيث ظهرت مستوطنات كثيرة ومزدهرة. وطالما أنه لا وجود لقارة مو الآن، فلا مجال كما قال تشيرتشوارد، لدحض فرضية وجودها الغابر بأي شيء![١٣].

ولعجائب القدر ما لبث الصانع السيئ الطالع للقارات الجديدة أن وقع في وضع محرج للغاية. حينما ألف كتابه، كانت أقدم الآثار في أراضي المكسيك مجهولة للعلم تقريباً، ولكن بعد فترة تتراوح بين ١٥ و٢٠ سنة أصبح واضحاً أنه لم يكن يعيش هناك في الألف الثاني عشر ق.م سوى صيادي الماموت البدائيين، وكانت تسود ثقافة العصر الحجري. فيالهم من "متحضرين" هؤلاء القادمون من قارة مو!

الحجج الآثارية ومعطيات الجيولوجيا تحت الماء لا تقلل أبداً من حماسة أنصار مو وأطلنطيد. وقد وحدوا صفوفهم منذ أمد ليس بالبعيد. وأعلنوا أن "سكان مو" حفروا عبر سلاسل جبال الأند قناة خاصة إلى حوض نهر الأمازون، رابطين على هذا النحو المحيط الهادئ بالمحيط الأطلسي. وعلى هذه القناة بالذات انطلقت السفن من مو، على حد زعمهم، إلى شواطئ أطلنطيد. إذا نظر أي إنسان سليم العقل إلى الذرى الشامخة التي تناطح السحاب لسلاسل الأند، يصبح واضحاً له على الفور، أن شق قناة في هذا المكان سعي جنوني من وجهة النظر الهندسية.

من نارامسين إلى إسكندر المقدوني

المطبوعات المعاصرة التي يصدرها المتحمسون لفكرة "القبائل المختفية والقارات الغارقة" باعتبارها التفسير الرئيس لمسيرة التاريخ البشري قلما تختلف من حيث المضمون عن سابقاتها في الفترة من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر، فهي تتسم، كقاعدة عامة، بتحليق جامح الخيال مع الانعدام الكامل لأية حجج جادَّة. وسأقف لاحقاً بإيجاز عند مؤلفين فقط من هذا النوع، وهما أكثر هذه المؤلفات مدعاة للنفور.

"الفرضية" التي طرحها مؤخراً المؤلف الأمريكي فيرل حول التأثير السومري في المكسيك فريدة من نوعها من حيث الوقاحة وانعدام البراهين. في البداية يطلع القارئ بلا كلفة على أبطال مؤلفه الأصليين، وهم، بالدرجة الأولى، ملك ما بين النهرين نارامسين، وهو، حسب قول فيرل، **نارامر** ابن الملك مينس وحفيد **سرجون الآكدي**.(*)

فضلاً عن أنها جمعت هنا على نحو كيفي تماماً أواصر قربى لحاكمي دولتين مختلفتين: سومر (سرجون الاكدي) ومصر (الفرعون مينس)، فقد عاشا في عصرين تاريخيين مختلفين (حكم مينس نحو عام ٣٠٠٠ ق.م، وسرجون الآكدي في القرن الرابع والعشرين ق.م-؟)، يعلن المؤلف أن الحاكم الآكدي نارامسين هو الإله المكسيكي الملتحي كيتسالكواتل وأن

(*) إشارة التشديد من المؤلف

واقع وصول نارامسين إلى شواطئ المكسيك أوجد الأسطورة الجميلة عن "الثعبان ذي الريش". والبراهين؟ أنها موجودة حتماً: في المنحوتات القديمة لما بين النهرين يصور نارامسين بلحية أيضاً!

ثم يستشهد واضع الفرضية بآثار لا يعرفها أحد من المواد والنقوش السومرية التي أنجزت على حد زعمه في أمريكا إبان السنوات الأخيرة: تميمة من الحجر الأخضر الصلب ذات نقوش غامضة (عثر عليها "مصادفة" عام ١٩٣٦ في ولاية نيو مكسيكو، الولايات المتحدة) ترمز، حسب قول فيرل، إلى اسم نارامسين؛ ونقوش سومرية "كتبت بالشفرة" على جدران معبد المايا في سانتا- ريتا (هندوراس) إلخ [١٤].

كل هذا الهراء لا يصمد في وجه أي انتقاد علمي، فالخداع والزيف جليان هنا منذ النظرة الأولى.

في عام ١٩٤٧ ظهر على رفوف مخازن الكتب في الولايات المتحدة كتاب صغير بغلاف زاه بعنوان "جاء الإنسان من آسيا". ولم يكن اسم المؤلف - هارولد غلادوين - معروفاً إلا لدائرة ضيقة نسبياً من الاختصاصيين الآثاريين والانتروبولوجيين، ولم يكن يوحي بشيء إلى القارئ العادي.

غلادوين - الذي كان في حينه إنساناً ميسوراً وعاقلاً جداً - أغرم بعلم الآثار فجأة. قام بحفريات على حسابه الخاص، فعثر على أطلال مدينة قديمة للهنود في جنوب غرب الولايات المتحدة، وبنى متحفاً في ولاية أريزونا. ولكن سرعان ما مل من دور حامي العلوم، وقرر أن يجرب قواه في ميدان آخر. وإذ استخدم غلادوين الطريقة نفسها التي حشرت

بواسطتها "أسباط إسرائيل" في تاريخ أمريكا القديم، حل بسهولة أعقد قضايا تاريخ الحضارة الأمريكية. وكانت وصفته بسيطة: بالنسبة إلى كل ظاهرة محيرة أو متنازع عليها في أراضي العالم الجديد ينبغي فقط إيجاد مصدر آسيوي مناسب.

كتب يقول: "عوضاً عن اعتبار الهنود الحمر رجالاً خارقين حققوا في غضون عدة قرون المنجزات نفسها التي اكتسبتها البشرية الباقية بعد آلاف كاملة من سنوات الاستقصاءات المضنية، ينبغي مواجهة الحقيقة. فالمنطقي أكثر افتراض أن الملامح المتطورة والمعقدة لحضاراتهم قد جلبها من الخارج أناس ملتحون بيض..." ألم يصوِّر إلها الهنود الأكثر تبجيلاً كيتسالكواتل وويراكوتشا في الحكايات الهندية على شكل إنسانين ملتحيين أبيضين، حاميين للثقافة والمعارف؟ وتماثيل الناس الملتحين التي عثر عليها بين أنقاض المدن المكسيكية القديمة. لمن هي؟ ما كان لهذه الصور الغريبة أن تظهر من تلقاء ذاتها عند الهنود ذوي اللون البرونزي والوجوه الخالية من الشعر تقريباً! ويقرر غلادوين: "نعم، لقد كان الناس الملتحون البيض بالفعل حملة للتبشير الحضاري بين الهنود الحمر "المتوحشين".

ولكن ما شأن الأوروبي هنا؟ فكل ما هو أمريكي يرجع، في رأي غلادوين، بأصله إلى آسيا. وإذ يحاول إزالة هذا التناقض الجلي، ينقلنا إلى شرقي البحر الأبيض المتوسط في عصر الإسكندر المقدوني. بعد موت القائد العسكري العظيم (عام ٣٢٣ ق.م) انهارت امبراطوريته الشاسعة التي أقامها بقوة السلاح فقط، إلى أجزاء وكأنها بيت من الكرتون. وبدأ بين ورثة الإسكندر صراع ضار على السلطة. والوحيد الذي لم يشارك في هذا الصراع

هو نيارخ، أميرال الأسطول اليوناني الضخم المعَدِّ من أجل الحملات البعيدة على الشرق. "اختفى" مع كل مراكبه. الغموض هو أنسب ميدان لنشاط المتلاعبين بالوقائع التاريخية من شتى الأنواع.

بمشيئة غلادوين يقوم أسطول الإسكندر المقدوني "المختفي" برحلة كبرى من البحر الأبيض المتوسط إلى الشواطئ الغربية لأمريكا. وفي نحو عام ٣٠٠ ق.م وصل الإغريق المتمدنون، وقد "تشربوا" في الطريق بالكثير من منجزات الثقافة الشرقية، إلى القارة الأمريكية. وحيث وطئت أقدام القادمين الأرض ازدهرت فيها بعد الحضارات الهندية. ولكن هل بقيت أية آثار لإقامتهم في العالم الجديد؟ يجيب غلادوين: "طبعاً، وهل نستطيع تجاهل صور المحاربين بالخوذ اليونانية ذات الأعراف على المزهريات البيروانية، وتماثيل الشخصين الملتحيين من المكسيك، وأخيراً، الأساطير الهندية؟"[١٥]

هذه الحجج مُعَّدة للناس السذَّج. ومن المستبعد أن تكون مقنعة لغالدوين نفسه. ولهذا حاول أن يعوض من نقاط الضعف في فرضيته بهجمات ضارية على العلماء المحترفين- الأكاديميين "المتحجرين" وذوي التعصب الأعمى، متهماً إياهم بأنهم لا يطيقون صبراً على الآراء الجريئة والنظريات المبتكرة. ولم يخطئ غالدوين في توقعاته. فقد كانت آراء الاختصاصيين في كتابه، باستثناء حالات نادرة، سلبية للغاية. وهذا مفهوم؛ لأن كل استنتاجات المؤلف لا تقوم على أي أساس: الآنية البيروانية التي صُوِّر عليها محاربون بخُوَذ تعود إلى ثقافة موتشيكا (أعوام ٤٠٠ - ٨٠٠ ب.م). أما تمثالا الشخصيتين الملتحيتين من المكسيك اللتين لهما، كما يزعم، ملامح آسيوية واضحة، فإن أحدهما، الذي عثر عليه في تريس سابوتس (فيرا كروس)، يعود إلى ما بعد عام ٣٠٠ ب.م،

أي بعد ٦٠٠ سنة من الظهور المفترض للأسطول اليوناني. والآخر لا يصور إنساناً، بل نمراً. تبقى (والحق يقال) أساطير الهنود الحمر عن الآلهة الملتحين البيض. بلا براهين على المنشأ القديم لهذه الحكايات، ولا نعرفها إلا كما رواها المؤلفون الإسبان، أي ليس قبل القرن السادس عشر ب.م. ومن المحتمل تماماً أن الأساطير المذكورة اخترعها المبشرون الكاثوليك أنفسهم بعد الغزو الإسباني لكي يسهلوا عليهم نشر المسيحية بين الهنود الحمر واستعبادَهم.

وللأسف توجد للمؤلفين على هذه الشاكلة مجموعة كبيرة من القراء في مختلف البلدان[١٦].

يتلخص سحر هذه الكتب بالنسبة إلى الإنسان الساذج في كونها ترد على أسئلة لا حصر لها وتحل القضايا التي تهمه لأسباب رومنتيكية والتي لم يفكر فيها جدياً في يوم من الأيام، وبالتالي، لا يعرف مقدماتها ولا صعوبتها.

هذه الكتب، وهنا سبب نجاحها، لا تعرف المعضلات، ولا تمزق الحجب عن الأسرار، ولا توضح ما يسعى إليه العلماء؛ إنها تحجب الحقيقة وتغطيها بضوء مبهم من الغموض، وتعرض على القارئ المفتاح الذي يجعله على الفور عضواً في "دائرة النخبة" العارفة بالأسرار الخفية، والقادرة على الغور في أعماقها، مما لا يستطيع العلماء فهمه "بسبب ضيق تفكيرهم وفقر شعورهم".

لا يستطيع أي عالم، طبعاً، تجنب الانفعالات، ولا يمكن تصور تاريخ البحث العلمي بدون إلهام وهواجس وهفوات وأخطاء. تتلخص الحقيقة الأولية في أن الآثاري لا يبرر لقبه إلا حينما يبعث بواسطة المخيلة ("المخيلة

هي نار الاكتشاف"،- كما قال الآثاري الإنكليزي البارز فليندرس بيتري) الماضيَ من المادة الميتة إلى حياة جديدة. ومع ذلك ينبغي التذكير بأنه يجب أن ينظر إلى العلم في نهاية المطاف كطريقة تضع المخيلة تحت الإشراف، وبأن الحقيقة المبرهن عليها هي معياره، وبأن الفرضيات، باعتبارها جزءه المكون، لا تغدو بديهيات أبداً إلى أن يبرهن عليها. كل هذا معارض للعلم المزيف الذي يمارسه متعصبون وسطحيون. يمكن للمثقفين المطلعين غالباً وذوي القدرة الفائقة على العمل والذين لا ضرر منهم في أغلب الأحيان أن يسببوا أكبر المصائب أحياناً.

كرس الآثاري روبرت ووكب للسطحيين في علم الآثار الأمريكي كتاباً خاصاً وصف فيه بأسلوب ساخر لاذع مفاهيمهم الأساسية وأسلوبهم في خوض النقاش مع العلماء المحترفين.

كتب يقول: "لا يسعنا إلا أن نلاحظ بعض الثبات في سلوكهم. فالممثل النموذجي للنظريات المحشوة هراءً في صدد أصل الهنود الأمريكيين يبدأ كتابه، كقاعدة عامة بالاحتجاج. يشكو أن العلماء يزدرونه ويسخرون منه، أو لا يعترفون به في أفضل الحالات، ثم يتنبأ بأنهم سينظرون إلى وصفه بشكل سلبي أو أنهم لن يُعِيروه اهتماماً أبداً، ويَصِمُ بالعار "المنافقين المتحجِّرين في الجامعات والمتاحف". وغالباً ما يلمح بين السطور إلى أن خصومه ليسوا مجرد محافظين ميؤوس منهم يقفون موقف الحسد من منجزات الهواة فحسب، بل هم كذلك مجردون من الشرف، وحينما يصادفون براهين تناقض آراءهم يخفونها، وإذا اقتضت الضرورة يتلفونها..."(١٧).

ثم يكتب ووكب عن الخطل المطبق للأفكار التي يطرحها الهواة السطحيون في صدد أصل الهنود الأمريكيين: "... في هذا الخصوص "يحالف الحظ" المايا والأتستيكيين والأنيكيين بشكل خاص. إنهم يجذبون الهواة بكل ما هو غامض، كما يجذب العسل الذباب. هؤلاء الهواة مستعدون لأن يغوصوا في عالم الرموز العويصة، وتجذبهم الطقوس المقدَّسة الغامضة والأطلال الغريبة في الغابات العذراء؛ ويلعبون بطيبة خاطر لعبة "الغميضة اللغوية"، خالطين كيفما اتفق مقاطع اللغات غير المفهومة (التي لا تمت بأية صلة ومناسبة للغات الهندية - الأوروبية) ... هذه النزوات تتحول إلى سحر ذي جاذبية دينية أحياناً. وإذ يذود هؤلاء المتعصبون عن آرائهم ويصطدمون في غضون ذلك بصد حاسم من جانب العلماء المحترفين، يعلنون أنفسهم ضحايا للملاحقات القاسية، وشهداء للفكرة، ويخوضون رغم كل شيء النضال من أجل "نظرياتهم" التي يقترن فيها الإلهام الصوفي بالاختلاقات الخسيسة"[١٨].

تأسِر ملامح التشابه مخيلة المؤلفين- الهواة ذوي الإعداد الضعيف. وذلك مثل وجود الأهرام والتحنيط والتقويم وَفق دورة طولها ٣٦٥ يوماً في العالم القديم وأمريكا. وإذ يقود المؤلفون الهواة إن العناصر المتشابهة للثقافة لا يمكن لبعضها أن يوجد بصورة مستقلة عن البعض الآخر، يحاولون البرهان على صلة القربى بين الحضارات القديمة، ويصممون كل ما يمكن من الفرضيات، معلنين أن الثقافة المكسيكية القديمة وليدة للثقافة المصرية القديمة، أو أن كل الثقافات القديمة في العالمين القديم والجديد وريثة لحضارة منقرض أقدَمَ (على غرار أطلنطيد أو مو). وفي غضون ذلك

يؤكد الهواة السطحيون أن العلماء عادة إما ألا يلاحظوا تشابه الثقافات هذا، وإما أن يصمتوا عنه عمداً لأهداف مريبة.

أما في الواقع فإن العلم يبحث دوماً بإمعان ومن كل الجوانب في ملامح التشابه بين شتى الثقافات، وقد تأكد منذ زمن بعيد أن العناصر المتشابهة للثقافة المادية والروحية، كما للنظام الاجتماعي، تتجلى حتماً في مراحل معينة من تطور المجتمع، وفي حال تشابه ظروف التضاريس والمناخ تظهر عناصر واحدة للثقافة مميزة لها لا ينكر أحد، طبعاً أن الكثير منها انتشر عن طريق الاقتباس أو نتيجة للهجرة، ولكن في كل حالة معينة، إذا لم يكن طبعاً هذا التشابه مجرد تشابه ظاهري، لا بد قبل كل شيء من تبين ما إذا كان قد ظهر نتيجة للتطور المستقبل (التقارب) أو الاقتباس. وللأسف، فإن السطحيين والمشعوذين، عموماً، لا يرتفعون أبداً إلى هذا المستوى من التحليل.

هوامش الفصل الأول

1- H.Honour. The New Golden Land. European Image of America from the Discoveries to the Present Time. New York, 1975, p. 12.

2- “Selected J.A.Hallowell. The Beginnings of Anthropology in America. Papers from the America Anthropologist, 1888 –1920” New York, 1960, p. 3.

3- J.A.W.Crosby. The Columbian Exchange. Biological and Cultural Consequences of 1492. Westport, Connecticut, 1972.

٤- فريد. غواتيمالا المبتسمة. موسكو، ١٩٥٨، ص ٤٨.

5- S.Zavala. New Viewpoints on the Spanish colonization of America. Philadelphia, 1943, p. 33

6- L.Hanke. Bartolomeo de las Casas. Philadelphia, 1952, p. 97.

7- R.Wauchope. Lost Tribes and Sunken Continenets. Chicago, 1962, p. 4.

٨- غولياييف. أمريكا والعالم القديم قبل كولومبس. موسكو دار "ناؤوكا"، ١٩٦٨، ص ١٧٠.

٩- بلمونت. زهور الأفعى. موسكو، ١٩١٠.

10- J. Slanuth. Atlantis. Tubingen, 1965.

11- C.W.Ceram. The First American…, p. 207-208.

12- R.Wauchope. Lost Tribes…, p. 28 – 29.

13- J.Churchward. The Lost Continenet of Mu. New York, 1931.

14- H.A.Verrill and R. Verrill. America’s Ancient Civilizations. New York, 1953.

15- H.S.Gladwin. Men out of Asis. New York, 1947, pp. 224 – 291.

١٦- في الستينيات روج في الصحافة السوفييتية لكل ما يمكن من الاختلاقات عن الصلات المباشرة عبر المحيط بين الحضارات القديمة للعالمين القديم والجديد (على أساس أعمال المؤلفين الغربيين) غربوفسكي (راجع كتابه الذي آثار ضجيجاً "ألغاز التاريخ الاقدم"، موسكو، دار "زنانييه"، عام ١٩٦٦؛ وفي المطبوعات الغربية يتمتع بأكبر شهرة إلى الآن مؤلَّفا المدعوَّين بري فل وتشارلز بيرلتس: B.Fell. America B.C. Ancient Settlers in the New Word. New York, 1977; Ch.Berlitz. Mysteries from Forgotten Worlds. New York,1972.

17- R.Wauchope. Lost Tribes. Sunken Continenets. Chicago, 1962 pp. 81-82.

١٨- موكب القارات الغرقى وأسرار القبائل المفقودة. موسكو. دار "مير"، ١٩٦٦، ص ١٧- ١٨.

الفصل الثاني

الأهرام المصرية والتيوكلي المكسيكية[1]

«منظر لأنقاض ممفيس عظيم
وبعين عمرها ألف عام
ينظر القمر بحزن سقيم
إلى المدينة والأطلال والأنام»

بريوسوف، عام ١٩١٣

في أواخر القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين، بعد جملة من أكبر الاكتشافات الآثارية انفتحت أمام العالم بكل بهاء صفحة من أنصع صفحات تاريخ البشرية القديم، ألا وهي الحضارة المصرية.

كانت كلمة "الأرخيولوجيا" نفسها تبعث في مخيلة أغلب الناس حينذاك أهرام الجيزة الحجرية العملاقة، وابتسامة أبي الهول الغامضة، ومدفن توت عنخ أمون المليء بالذهب، والوادي الأخضر للنيل العظيم على خلفية الرمال الصفراء للصحراء المترامية الأطراف. من الطبيعي تماماً، والحالة هذه، أن العلماء إذا اكتشفوا في مكان ما آثاراً قديمة لها ولو شبه

---

(١) تيوكلي (teocalli) أتستيكية؛ هرم مدرج بقمة مسطحة يقام عليها معبد لإله ما. - المترجم

خارجي بعيد بالآثار المصرية، حتى ولو عثروا عليها في الجانب الآخر من المحيط، يربطونها على أي حال بالتأثير المواتي لمصر.

وكانت هناك، طبعاً، مسوغات معينة لمقارنات كهذه. فقد وجدت سواء في أمريكا، أو في وادي النيل عادة بناء الأهرام، وتحنيط الموتى، وكانت عبادة الشمس منتشرة هنا وهناك، وكانت في المنطقتين كتابة هيروغليفية، وتقويم شمسي معقد، ومدافن ملكية فاخرة. كانت هذه المقارنات مدعوة إلى البرهان على أن الحضارات الأمريكية القديمة متحدرة من مصر. في البداية كان الفرنسيان لي بلونجن وبرسير دي بوربور، وكذلك الانكليزي أليوت سميث أكثر أنصار هذه الفكرة تحمساً.

كان مفهوم لي بلونجن مشوشاً واصطفائياً، وتبدو فيه بوضوح شظايا للنظريات والفرضيات التي نعرفها جيداً. اعتبر أن مستوطنين من العالم الجديد جلبوا إلى وادي النيل الحضارة المصرية القديمة بصورة جاهزة، أما الثقافات الأمريكية الرفيعة فتتحدر بدورها من الأطلنطيد الغريقة، وينجم من قوله: إن أمريكا ومصر كانتا تقيمان الصلات فيما بينهما منذ الألف العاشر ق.م على الأقل.

وطرح الطبيب الإنكليزي اليوت سميث وأنصاره، بدورهم، ما يسمى بالنظرية "الهيليوليتية"[1] التي تقول بأن كل الثقافات الرفيعة في الكرة الأرضية تنبع من مصدر واحد، وهو مصر. اتضح أنه ولدت هناك وهناك فقط أعظم منجزات العقل البشري، ثم حملها "أبناء الشمس"، سكان وادي النيل ذوو

---

(١) هيليوس (باليونانية) الشمس، وليتس (باليونانية) الحجر، وقد سميت النظرية "هيليوليتية" انطلاقاً من المغزى الكبير الذي كان أنصارها يسبغونه على خاصيتين للثقافة، وهما عبادة الشمس والمباني المشيدة من كتل أو ألواح حجرية. - المترجم

الحضارة العالية، عبر البحار والمحيطات إلى كل أرجاء كوكبنا. وكان البحث عن الذهب والفضة واللآلئ الهدف الرئيس لرحلاتهم الغامضة.

يعتبر سميث أن انتشار المجمع المميز للثقافة المصرية (عبادة الشمس والمباني الحجرية الضخمة والتحنيط) إلى أجزاء العالم الأخرى جرى في غضون وقت قصير نسبياً، نحو القرن العاشر ق.م، وانتقل عبر شتى مناطق آسيا إلى بولينيزيا وأستراليا، ومن ثَم إلى أمريكا، وكانت هذه النظرية مدعوة إلى البرهان على انتشار "المجمع المترابط على نحو وثيق للطقوس القديمة... الذي امتد منذ نحو ٣٠ قرناً بمحاذاة ساحل الجزء الأكبر من الكرة الأرضية، باعثاً القبائل المتوحشة المحلية إلى حياة جديدة"[١].

وإلى جانب الثالوث الأساسي، تجلى التأثير المصري أيضاً، على حد زعمهم، في وجود ملامح للثقافة، مثل البوميرانغ[١] والري والزراعة على المدرجات، وحكاية الطوفان والوشم والختان والتدليك، والتشويه الاصطناعي للجمجمة، وعبادة الحية، والايمان بالأصل الإلهي للملوك واستخدام الأصبغة الأرجوانية إلخ. أما في خصوص المباني الضخمة فإن الأمر الرئيس هنا هو نشوء، ومن ثَم انتشار الدلمنات أو "صناديق الدفن" المكونة من كتل وألواح حجرية عملاقة.

وكانت في عصر النيوليت، وبداية عصر البرونز معروفة بكميات كبيرة في ساحل أوروبا الغربية، وثمة الكثير منها في القوقاز وجنوب الهند والصين واليابان. وكل هذه المنشآت الحجرية العملاقة تعود في نهاية

---

(١) boomerang قطعة خشبية ملوية أو معقوفة تستخدم لرشق هدف ما. ومن أصنافه ضرب يرتد الى الرامي. - المترجم

المطاف، حسب قول أنصار النظرية الهيليوليتية، إلى الأضرحة المصرية، "المصاطب"، التي اختفت في مصر في أواسط الألف الثالث ق.م. وكان ينظر إلى كل دلمن كمجرد شكل متدهور، انحطاطي من أشكال "المصطبة".

يعترض الآثاري الأمريكي ديكسن على سميث قائلاً: "إذا كان حملة الثقافة "الهيليوليتية" لم يغادروا مصر إلا في القرنين التاسع والثامن ق.م، فمن المستبعد أن يمكن التحدث عن أنهم بالذات نشروا في كل مكان "المصطبة" التي لم تستخدم في مصر نفسها على امتداد ١٥٠٠ سنة على الأقل". هذا بالإضافة إلى أن أبكر دلمنات أوروبا تعود إلى أواسط الألف الثالث ق.م، ولم يعثر هناك إلى الآن على أية "مصطبة" مصرية نموذجية[٢].

ولما لم يتسنَّ اكتشاف منشآت حجرية ضخمة ذات مظهر آسيوي وأوروبي في العالم الجديد، قرر سميث أن يملأ الفراغ في نظريته بواسطة الأهرام الحجرية المدرجة، الواحدة، في رأيه، بالنسبة إلى سكان أمريكا الأصليين وسكان وادي النيل على حد سواء.

ولكن يظهر حاجز زمني يستحيل تذليله. لقد بُنيت أهرام تيوتيهواكان وتشولولا (المكسيك) بشكلها النهائي في أواخر الألف الأول ق.م وبداية الألف الأول ب.م، في حين جرى تشييد أغلب الأهرام الشهيرة للفراعنة المصريين في الألف الثالث ق.م. وعلاوة على ذلك، كانت للأهرام المكسيكية خاصية وظائفية مهمة لم تصادف أبداً في مصر: كان ينتصب على هامتها معبد، كقاعدة عامة، ويمكن الاستشهاد أيضاً بجملة من الفوارق الجوهرية في تصميم أهرام المنطقتين وشكلها الخارجي. أما في خصوص الأهرام عموماً، فإن شكلها يجذب انتباه البنائين في أي بلد كأبسط وأمتن نوع لمنشأة عالية على أساس وطيد.

ولا تصمد في وجه النقد خاصية مهمة أخرى لمجمع الثقافة "الهيليوليتي"، وهي التحنيط. حينما درس العلماء بإمعان كل أنواع التحنيط المعروفة اتضح أن العدد الأكبر من أهم أساليب التحنيط المصرية ينعدم عموماً في البلدان الأخرى، أما الأساليب الأخرى فظهرت في وقت متأخر إلى درجة يستحيل معها الحديث عن أي تأثير مارسه "أبناء الشمس". ولكن أهم ما يدحض آراء أنصار "النظرية المصرية" هو الزمن. لقد بلغت أقدم حضارة مصرية ذروتها في الألف الثالث ق.م، في حين أن هذا الازدهار في المكسيك وبيرو جرى على عتبة القرن الأول ب.م في أفضل الأحوال. هذا الفاصل الزمني الكبير الذي يبلغ ثلاثة آلاف سنة، ينفي أي إمكان لتأثير مباشر مارسه مركز الثقافة المصري في أمريكا ما قبل كولومبس.

انتهى النقاش الطويل بين سميث ومعارضيه بحادثة مضحكة حقاً. ففي عام ١٩٢٤ أصدر كتاباً بهذا العنوان المثير للفضول "الفيلة والأثنولوجيون"، حيث حاول على أساس نقاط التشابه في الفن البرهان على تغلغل المؤثرات في العالم الجديد من جنوب شرقي آسيا. وكانت صور الفيلة التي عثر عليها، كما يزعم، في نقوش ومسلات بعض مدن المايا القدماء (كوبان، بالينكي) إحدى الحجج الرئيسة لواضع النظرية "الهيليوليتية". وأكد سميث أنه "لم يكن في وسع المايا أن يعرفوا كيف يبدو الفيل لو لم يحدثهم عنه البولينيزيون الذين قطعوا المحيط الهادئ".

بيد أن الباحثين الأكثر حذراً، ومن بينهم آثاريون ومختصون في الفن مشهورون جداً، أعلنوا، بعد تحليل متمعن للصور المختلف عليها، أنها إما

صور لتابير[1] أمريكي أو لببغاء مرسوم بأسلوب خاص. إنهم وقد حللوا بعناية أدق تفاصيل الأشكال الشبيهة بالفيل، بينوا على نحو ملموس كل طريق تطور وتحوير المواضيع المشار إليها. وعندئذ لم يتمالك البروفسور سميث أعصابه. وإذ فقد بوضوح السيطرة على نفسه، اتهم على الملأ زملاءه الأمريكيين بأنهم شوهوا وزوروا عمداً تلك الأشكال المشؤومة من مدينتي المايا ليحسموا النزاع في مصلحتهم[3].

وكان آخر أصداء هذه المواد الصاخبة في العشرينات مقالة المدعو أنخل باريدس من بيرو الذي اعلن، ربما لاعتبارات وطنية بحتة، أن إنكيي بيرو يتحدرون من المصريين القدماء؛ لانهم كانوا على غرار الفراعنة، يتزوجون بأخواتهم. ولكن الأثنوغرافين المعاصرين يعرفون جيداً أن هذه العادة تصادف عند الكثير من شعوب الكرة الأرضية. يبدو أنه ينبغي في هذه الحالة اعتبار الجنس البشري، انطلاقاً من آراء باريدس، خلفاً للمصريين القدماء.

في أيامنا اكتسبت "النظرية المصرية" شهرة معينة من جديد. إذ يؤكد البروفسور سايروس غوردن من الولايات المتحدة، مثلاً، أن المصريين في الألف الثاني ق.م قاموا مراراً برحلات عبر الأطلسي إلى شواطئ أمريكا الوسطى، ويذكر بمثابة برهان على هذه الاتصالات منحوتة من اليشم عليها نقوش هيروغليفية من مونتي البان (ولاية واخاكا، المكسيك) تعود إلى الفترة بين القرنين الثالث والتاسع ب.م، وتنطوي على شيء من التشابه الخارجي مع النحت المصري (تمثال "الكاتب" الجالس وغيره)[4].

---

(١) تابير (tapir) حيوان أمريكي استوائي شبيه بالخنزير. المترجم

بوسعي أن أورد أمثلة مدهشة أكثر على هذا التشابه، فالمسلات التي عليها صور حكام المايا من مدينة كيريغوا القديمة (غواتيمالا)، مثلاً، تشبه تماثيل الفراعنة وكأنها نسخة طبق الأصل. ولكن الفرق في الزمن، للاسف، لا يسمح بحال من الأحوال التحدث هنا عن أي تأثير مصري، إذ تفصل بينهما في هذه الحالة فترة تتراوح ما بين الفين وثلاثة آلاف من السنين.

في عام ١٩٦٩ نشرت الصحافة العالمية كلها هذا الخبر المثير: بطل "كون - تيكي"(١) البالغ من العمر خمساً وخمسين سنة، حفيد الفيكينغ، الرحالة النروجي الشهير تور هيردهل قرر مجدداً أن ينطلق في رحلة بعيدة، ولكن لا على طوف اينكي من البلزا هذه المرة، بل على السفينة "رع" المصنوعة من البردى على غرار السفن المصرية القديمة. اراد ان يقطع مع طاقم أممي من ستة أشخاص كل الأطلسي من الشرق إلى الغرب، ليبرهن على متانة سفن العهد الفرعوني المصنوعة من القصب. يمكن أن نعتبر الآن أن هدف تجربته الجريئة قد تحقق تماماً: على الرغم من أنه بقي للسفينة في عام ١٩٦٩ بضع مئات من الاميال لتصل إلى النقطة المحددة على شاطئ المكسيك، فقد تكللت بالنجاح الكامل الرحلة الثانية التي قامت بها "رع" بشكلها الجديد في عام ١٩٧٠.

بيد أن هذه الرحلة الحافلة بالأخطار عبر المحيط إلى شواطئ جزيرة برbadوس قد استخدمها فيما بعد كحجة قاطعة لتعليل آرائه "المبتكرة" في صدد أصل حضارات العالم الجديد قبل كولومبس.

---

(١) طوف أطلق عليه اسم إله الإنكيين مصنوع، على نمط الأطواف البيروانية القديمة، من شجر البلزا (شجر أمريكي استوائي) وشراعه من القصب. على هذا الطوف وصل تورهيردهل الى جزر تواموتو في المحيط الهادئ ليبرهن على إمكان استيطان القادمين من الشرق لبولينيزيا. المترجم

ليس من السهل أبداً عرض وجهة نظر الباحث النروجي في هذا الخصوص بإيجاز ووضوح. في كتبه المبسطة ومقالاته المعدة لجمهور واسع من القراء، مثل "كون - تيكي" و"أكو - أكو" و"رع" وغيرها، غالباً ما يهيل كومة كاملة من التأكيدات والفرضيات الجريئة التي قلما تدعم بوقائع فعلية.

أما مؤلفات هيردهل العلمية البحتة، وهي ليست بالقليلة، فلا يعرفها جمهور القراء الواسع جيداً، باستثناء مؤلفه "مغامرات إحدى النظريات"(٥). في حين أن المقالات والمواد العديدة في المجلات تعطي في الغالب تصوراً مشوهاً لأهداف التجربة الجديدة للرحالة الشهير والتعليل العلمي لآرائه.

في عام ١٩٦٩ ظهرت في مجلة "باري - ماتش" مقالة عنوانها "التوجه إلى أمريكا في مركب من البردى"، وفيها أعرب هيردهل عن وجهة نظره بكل تحديد: "وفجأة مثل أمام ناظري الكثير من الملامح المشتركة للحضارتين القديمتين في أمريكا وإفريقيا: عبادة الشمس والمعارف الفلكية التي مكنت من نحت التقاويم على الصخور وحساب طلوع النجوم الشهيرة؛ الطائفة الاجتماعية التي يتزوج فيها الأشقاء بشقيقاتهم... العمارة القائمة على الفن الرفيع للنحاتين الذين يرصفون الحجر لصق الآخر بدقة من غير أن يثبتوه بالإسمنت، السقي بالمدرجات، دفن الملوك في الأهرام، الملاحة المدهشة بواسطة السفن المصنوعة من القصب"(٦).

لعل الأسلوب المبسط للعرض قد شوه هنا بعض الشيء الجانب العلمي البحت لحجج المؤلف. ولهذا فلنأخذ مقالة أخرى، وهي "على آثار إله الشمس" التي نشرت في مجلة "إيجيبت ترافل مغزين" الصادرة في القاهرة. وفيها يتحدث هيردهل مجدداً عن التشابه الكبير بين الثقافتين

القديمتين في المكسيك ومصر. ينبه قائلاً: " لا يقتصر التشابه بين الحضارتين المبكرتين لمصر والمكسيك على الأهرام وحدها... فقد وجد سواء في المكسيك أو في مصر نظام رفيع التطور للكتابة الهيروغليفية... ويشير العلماء إلى التشابه بين التصوير الجداري في المعابد والمدافن، وتتشابه تصاميم المعابد وأروقة الأعمدة الحجرية المتقنة... وعند تشييد العقود من الألواح لم يكن المعماريون على جانبي الأطلسي يعرفون فن إقامة قنطرة حقيقية. ويلفت النظر وجود التماثيل البشرية الحجرية العملاقة من حيث الحجم والمعارف الفلكية المدهشة، ونظام التقويم الرفيع التطور في المكسيك. يقارن العلماء الممارسة المدهشة، بتطورها لتربنة (ثقب) الجمجمة البشرية المميزة للثقافات القديمة للبحر الأبيض المتوسط والمكسيك والبيرو، ويشيرون كذلك إلى عادة التحنيط المتشابهة في مصر وبيرو. هذه الشهادات والكثير غيرها على تشابه الثقافات من شأنها، إذا أخذت معاً، أن تؤكد النظرية القائلة بأن سفناً انطلقت مرة أو عدة مرات من شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وقطعت المحيط الأطلسي وحملت أسس الحضارة إلى سكان المكسيك الأصليين"(٧).

وهكذا، فإن الكثير من أهم منجزات هنود أمريكا قبل كولومبس (ولا سيما في المكسيك وبيرو) كانت، في رأي الرحالة النروجي، مرتبطة على هذا النحو أو ذاك بأقدم مراكز الحضارة في العالم القديم (البحر الأبيض المتوسط ومصر). وعلاوة على التطابقات المشار إليها لبعض ملامح الثقافة على جانبي الأطلسي، يورد تور هيردهل أيضاً جملة من الحجج ذات الطابع النظري العام.

يؤكد قائلاً: "لم يجد الآثاريون في أي مكان، لا في المكسيك، ولا في أي جزء آخر من أمريكا، سمات محددة لتطور الثقافة الارتقائي. في كل مكان، كما بينت الحفريات، ازدهرت الحضارة فوراً، وكأنما جلبت من الخارج. ونجد في كل مكان آثار مهاجرين قدموا من مكان ما حملوا معهم حضارة ناضجة ومرهفة إلى مناطق كانت تعيش فيها سابقاً شعوب بدائية. ولا نجد في أي مكان مركزاً بدأ منه ارتقاء الحضارات الأمريكية المبكرة. وما يبعث على دهشة أشد كون الحضارة المبكرة في أمريكا[1] كانت تحدها منطقة غير مناسبة بالمرة من الأدغال الاستوائية في أمريكا الوسطى، ولكن هنا بالذات يصب التيار المحيطي الكبير القادم من جبل طارق، وجزر كناريا في خليج المكسيك..."[8].

لا جدال في أن التجربة الجريئة للرحالة النروجي في المركب المصنوع من البردى تنطوي على مغزى كبير بالنسبة إلى المعرفة، وتساعد على تصور أفضل لحدود الإمكانات التقنية للإنسان القديم في الرحلات البحرية الطويلة. لقد برهن هيردهل في الواقع على الامكانية النظرية لوجود صلات عبر المحيط بين مصر القديمة والمكسيك ما قبل كولومبس، ولكن هذا مجرد إمكانية، لا واقع.

ليسهل على القراء حل عقدة البراهين الآثارية على وجود اتصالات معينة بين مراكز الثقافة القديمة، أريد أن أذكر بأن أهم وأمتن حجة في مصلحة الصلات التجارية أو الثقافية هي العثور على مصنوعات مستوردة، أي مواد مميزة لشعب أو قبيلة معينين يعثر عليها في أراض أخرى.

---

(١) المقصود ثقافة الأولميكيين التي وجدت في أراضي ولايتي فيراكروس وتاباسكو المكسيكيتين من عام ١٢٠٠ أو ٨٠٠ ق.م إلى عام ٤٠٠ ق.م. المؤلف

حينما يعثر الآثاريون مثلاً في مدينة نوفغورود الروسية إبان الحفريات على مشط من خشب البقس، فمن الواضح تماماً أن هذا الشيء نفسه أو الخشب المستخدم لصنعه استورد من مكان ما من الجنوب، حيث ينمو صنف الأشجار المذكور. والأمر نفسه ينطبق على الأشياء المصرية القديمة التي يعثر عليها في أراض أخرى. إذ ان مصنوعات الصناع المحليين على شكل أختام- جعلان وكل ما يمكن من التمائم ومنحوتات الآلهة والأواني الحجرية المنقوشة والألواح الهيروغليفية من الطين والحجر، كانت تتمتع قديماً بإقبال واسع في مناطق بعيدة عن وادي النيل. ويلاحظ الوضع نفسه أيضاً بالنسبة إلى مصنوعات الصناع الإغريق والرومان، وحرفيي الصين والهند، وما بين النهرين إلخ المستوردة إلى مناطق أخرى.

المظهر الأصيل الذي لا يقارن بشيء لهذه الأشياء المستوردة يمكن المختصّين من تمييزها عن سلع الإنتاج المحلي. وبفضل الصلات التجارية والثقافية، تغلغلت البضائع المصرية في أنأى وأبعد أصقاع العالم القديم، فقد عثر على لقيات كهذه في شمالي البحر الأسود، وأواسط الدون، وغابات منطقة نهر كاما، وجبال ألتاي والتيبت والصين.

يتكون أحياناً انطباع بأنه لم تكن توجد أية حواجز طبيعية بالنسبة إلى تجار العالم القديم النشيطين. لم تكن تستطيع أن توقفهم لا الأنهار ولا البحار، ولا أعلى السلاسل الجبلية، ولا مجاهل الغابات المترامية الأطراف، ولا القبائل الهمجية المقاتلة، وقد عثر في شبه جزيرة كامتشاتكا على عملة رومانية تعود إلى القرون الأولى بعد الميلاد، وتغلغل التجار الإغريق من أولفيا وبانتيكابيون (كرتش) بصورة عرضية في الأورال والتاي. وكانت

قوافل لا تكل تحمل الحرير الصيني النفيس بإصرار تُحسد عليه عبر كل آسيا إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط. ونستطيع الاستمرار والاستمرار بإيراد المحتويات الغريبة لهذه القائمة.

حينما تتأكد على نحو راسخ حقيقة وجود ملامح الثقافة المجلوبة من الخارج على شكل مواد مستوردة، تحل المرحلة الثانية من البحث العلمي، وهي ضرورة معرفة الوسيلة التي وصلت بها. هنا بالذات تضطلع بدور مهم في جملة من الحالات التجربة (النمذجة التاريخية) على غرار رحلة "كون- تيكي" أو "رع".

ولكن فحوى الأمر أنه لم يعثر إلى الآن في القارة الأمريكية على أية مادة حقيقية (أنا لا أتحدث هنا عن حالات التزييف والتزوير المعتمَّدة) مجلوبة من مراكز الحضارة العريقة في العالم القديم، إذا لم نأخذ في الاعتبار اللقيات المتأخرة من حيث العمر لبعض المواد الرومانية في المكسيك وفنزويلا. ولا يعرف الآثاريون إلى الآن أية آثار ملموسة لإقامة المصريين القدماء في النصف الغربي من الكرة الأرضية.

وإذ حاول بعض العلماء تحليل آرائهم حول وجود صلات منتظمة قديمة عبر المحيط وحول دورها الكبير في منشأ وتطور حضارات الهنود الأمريكيين، وجهوا انتباههم منذ القرن التاسع عشر إلى التشابه العام الخارجي لبعض ملامح الثقافة في العالمين القديم والجديد قبل اكتشافات كولومبس بوقت طويل. هل يمكن أن تظهر إلى الوجود بدون تأثير متبادل الزراعة على المدرجات، والأهرام الحجرية، وعبادة الشمس، والكتابة الهيروغليفية، وتحنيط الموتى وغيرها؟

"الانتشاريون" - كما صار يسمى أنصار الصلات بلا حدود - ينكرون بحزم إمكانية كهذه. لا يمكن للبشرية في رأيهم أن تقوم بأي اختراع أو اكتشاف معقدين إلا مرة واحدة. وإذا صادفناهما عند شعوب مختلفة، حتى وإن عاشت في عصور متباينة، فإن هذا يشكل على أي حال برهاناً موثوقاً به على صلات ما. ينجم على هذا النحو أن كل المنجزات الثقافية الأساسية القديمة ما كان يمكن لها أن تظهر إلا مرة واحدة، في مكان معين واحد، ومن هناك انتشرت بالتدريج (بفضل انتقال القبائل والتجارة والحروب إلخ) إلى المناطق الأخرى. وسعى الممثلون المتطرفون لهذا الاتجاه العلمي - مثل اليوت سميث ووليم بري اللذين أتينا على ذكرهما - إلى عزو كل الحضارات الرفيعة القديمة إلى مصدر واحد فقط، وهو مصر.

واعترض عليهم بعنف أنصار المنشأ المستقل لكل الثقافات القديمة الأساسية. وهم من يُسمَّون"الانعزاليين" الذين غالباً ما يرفضون في ثورة النقاش الاعتراف عموماً بالدور المهم للاتصالات والتنقلات في تطور الحضارة البشرية. غالباً ما يعزو هيردهل نفسه إلى ذاته، ويعزو إليه أنصاره موقفاً "وسطاً" خاصاً بين هذين المعسكرين من العلماء المتصارعين بعنف من أجل آرائهم، "الانتشاريين" و"الانعزاليين". في المؤلفات المبسطة للباحث النروجي، وفي "المقدمات" و"الخواتم" التي يكتبها لهذه المؤلفات باختا وأنوخين وسنيسارنيكو وغيرهم غالباً ما تلقى تبعات كل المصائب والتشوش، الموجودة حالياً في علم التاريخ، على "هؤلاء العلماء المكتبيين" الذين يكدسون الترهة فوق الأخرى والذين "يقومهم" على نحو لبق ولطيف حفيد الفيكينغ المقدام برحلاته المثيرة في كل المحيطات والبحار.

يكتب الأثنوغرافي أنوخين: "لا ينضم هيردهل إلى "الانتشاريين" ولا إلى "الانعزاليين". ولهذا رفض الحلفاء من هذه المدرسة وتلك، ولعله سيلقى معارضين من كلتا هاتين المدرستين! وهو يعتبر، شأنه دائماً، أنه ينبغي أن تكون في يده وقائع ليقوم بأية استنتاجات كانت. إذا ظهرت للعيان تشابهات في منجزات الثقافة القديمة فينبغي العثور على ما يمكن أن تتحقق به الاتصالات، ومن ثَم تحقيق اتصال كهذا بأقدم الوسائل"[٩].

لا يمكن إلا الترحيب بمثل هذه الطريقة لحل أعقد ألغاز التاريخ، ولكن كان كل شيء في الواقع يبدو على نحو مغاير بالمرة. لم تكن عند هيردهل، قبل أن يبحر عبر الأطلسي في مراكب من البردي أية براهين مباشرة تؤكد إقامة المصريين القدماء في العالم الجديد. وكان مضطراً إلى أن يتجه رغماً عنه إلى الحجج القديمة للعلماء "الانتشاريين".

ورحلة "رع" الدرامية طلت مجدداً، حتى بغض النظر عن رغبات قبطانها، القشرة المهترئة التي فندها المختصون منذ زمن طويل للنظرية "المصرية" لدى "الانتشاريين" حول انتقال "أبناء الشمس" (المصريين) من وادي النيل الأخضر إلى الضفاف الخفية وراء المحيط. وإذا كان تور هيردهل يحاول العثور على منابع الحضارة الأولميكية في مكان ما خارج نطاق العالم الجديد، مستخدماً في غضون ذلك حجج "الانتشاريين"، فمن المستبعد أن يمكن تسمية موقفه في هذه المسألة بغير الموقف "الانتشاري".

أما واقع إبحار المراكب المصنوعة من البردي من شواطئ إفريقيا إلى شواطئ المكسيك فإنه بحد ذاته لا يبرهن على شيء ولا يغير شيئاً. ولا سيما وأن "الانتشاريين" استخلصوا منه فائدة لا شك فيها، ولهذا ينبغي

الرجوع مرة أخرى إلى جوهر حججهم في مسألة الصلات بين المكسيك ما قبل كولومبس ومصر الفرعونية: الأهرام، عبادة الشمس، الكتابة الهيروغليفية، التحنيط.

أولاً: أثبت العلم المعاصر بقوة أن الملامح المتشابهة خارجياً للثقافة، ومن بينها المعقدة، يمكن أن تظهر في شتى مناطق الكرة الأرضية على نحو يكون فيه بعضها مستقلا عن الآخر تماماً. يرى بعض العلماء، مثلاً، أن التطور يؤدي في ظروف طبيعية وتاريخية متشابهة مع تساوي المستويات الاقتصادية والاجتماعية، إلى ظهور مستقل، أو تقاربي، لملامح متشابهة للثقافة. وينبغي تذكر هذا دائماً عند حل مسألة وجود صلات تجارية أو ثقافية بين منطقتين متنائيتين جغرافياً.

ثانياً: القول بأنه كان يمارس في المكسيك ومصر بناء الأهرام، وعبادة الشمس، واستخدام الكتابة الهيروغليفية، كما يفعل المؤلفون المذكورون، يعني عدم قول أي شيء من حيث الجوهر،فقد كانت كل الشعوب القديمة تعبد الشمس بهذه الدرجة أو تلك، وبنيت الأهرام في أوقات مختلفة في ما بين النهرين ومصر وكمبوديا وأوروبا وأمريكا، وكانت الكتابة الهيروغليفية منتشرة قديماً على نطاق واسع من البحر الأبيض المتوسط إلى الصين. من المهم هنا كل مرة التفاصيل الملموسة والخاصة التي تمكن من التمييز بلا خطأ بين كل من مواد الطبيعة وظواهرها. فقد وجدت عبادة الشمس، مثلاً، في كل مكان من كوكبنا تقريباً، ولكن كانت لها أشكالها وملامحها الخاصة في كل منطقة. وإذا كانت هذه التفاصيل الخاصة تتكرر في منطقتين منعزلتين، يمكن عندئذ فقط طرح مسألة إمكان وجود اتصالات ما.

هيروغليفيات المايا، وكتابة المصريين الإسفينية، والرموز الصينية المزوقة غير متشابهة حتى من الناحية الخارجية إلى درجة لا مجال معها لمجرد الحديث عن منشئها المشترك، مع أنها تعكس درجة واحدة تقريباً في تطور الكتابة.

في خصوص الأهرام، لا توجد عموماً في بلاد الأولميكيين عمالقة حجرية تشبه العمالقة المصرية. أما أهرام تيوتيهوا كان (وادي المكسيك) وتشولولا (ولاية بوبيلا المكسيكية)، التي يجب أن يستند إليها أنصار الاتصالات عبر الأطلسي، فقد بنيت في أواخر الألف الأول ق.م ومستهل الألف الأول ب.م، في حين أن تشييد أهرام الفراعنة الشهيرة توقف تماماً مع حلول الألف الثاني ق.م. والهرم المدرج الوحيد في مصر الذي يشبه الأهرام المكسيكية -"هرم سقارة" - شيد عموماً في مستهل الألف الثالث ق.م، وتباينها شديد سواء في أساليب الزخرفة، وتقنية البناء، والمواد والتصميم، أو حتى في الغرض المخصصة له. إذا كانت الأهرام المصرية لا تحفظ في سراديبها سوى ناووس ضخم يحتوي على مومياء الفرعون المؤلَّه، أي كانت مجرد منشآت للدفن، فان التيوكلي المكسيكية كانت تحمل دوماً على هامتها المسطحة هيكلاً أو معبداً، ثم إن دفن الملوك أو الأشخاص الوجهاء الآخرين داخل الأهرام المعبدية (أو "تحتها") لا يشكل هنا ظاهرة متكررة.

ثالثاً: ينطوي عامل الزمن على مغزى مهم جداً عند النظر في قضية الاتصالات. إذا كانت خاصية للثقافة قد زالت، مثلاً، في مصر في الألف الثالث ق.م، ولم نصادفها عند شعوب المكسيك القديمة إلا في الألف الأول ق.م، فلا مجال هنا طبعاً للحديث عن أي تأثير مصري[١٠]. وهذا هو شأن الأهرام بالذات.

ظهرت الحضارة في سومر (ما بين النهرين) ومصر في أواخر الألف الرابع ق.م، في حين لم تظهر في المكسيك وبيرو في أفضل الأحوال إلا في الألف الأول ق.م. وعلى هذا النحو تنفي الهوة الزمنية الشاسعة التي تبلغ ثلاثة آلاف سنة إمكان التأثير المباشر لأقدام دول العالم القديم في عملية تكون وتطور الحضارات الأولى في أمريكا ما قبل كولومبس. والتفسير الصحيح الوحيد لوجود بعض الملامح المتشابهة في فن المنطقتين وثقافتهما ينبغي أن يبحث عنه في التقارب وحده.

يكتب الأثنوغرافي كنوروزوف: "لقد تأكد منذ زمن بعيد جداً أن العناصر المتشابهة للثقافة المادية والروحية، وكذلك للنظام الاجتماعي، تتجلى حتماً في المراحل الواحدة لتطور المجتمع، وتظهر في الظروف المتشابهة للتضاريس والمناخ عناصر للثقافة متشابهة مميزة لها. لا أحد ينكر، طبعاً دور الاقتباسات والتنقلات، وهذه الاقتباسات مغطاة على نطاق واسع في الأدبيات الخاصة، ولكن في كل حالة ملموسة، إذا لم يكن طبعاً هذا التشابه ظاهرياً بحتاً، فلا بد قبل كل شيء من تبين ما إذا كان قد ظهر نتيجةً للتطور المستقل (التقارب) أو الاقتباس"[١١].

وصل سكان المكسيك وبيرو في أواخر الألف الأول قبل الميلاد بفضل التطور الرفيع للزراعة إلى تلك المستويات نفسها في الاقتصاد والسياسة والثقافة التي اجتازتها مصر وسومر منذ الألفين الرابع والثالث ق.م. والتشابه الكبير بين البنى الاقتصادية والاجتماعية- السياسية في الدول الهندية القديمة، ونظيرتها الشرقية القديمة، وكذلك واقع أن الفن في المجتمع الطبقي ينفذ توصية اجتماعية محددة تماماً (تمجيد الملك وسلطته،

وخدمة عبادة شتى الآلهة المرتبطة بالزراعة عادة إلخ) أوجدا في نهاية المطاف جملة من التطابقات والملامح القريبة في الثقافة على جانبي المحيط.

وبالمناسبة فلا بد من قول بضع كلمات هنا عن دور البردي في بناء مراكب مصر القديمة، والمستوى العام للملاحة وبناء السفن في مصر في عصر الفراعنة. يمكن لرحلة "رع" المثيرة، التي غطتها الصحافة العالمية على نطاق واسع، أن تخلق عند القارئ الغِرِّ انطباعاً بأن المصريين القدماء لم يكن لهم عمل إلا التجول في أرجاء البحار والمحيطات بشتى وسائل الملاحة المصنوعة من البردي: السفن والمراكب والعوَّامات. بيد أن هذا التصور بعيد جداً عن الواقع الفعلي. اعتبر أغلب الاختصاصيين، ويعتبرون حتى بعد تجربة هيردهل الجريئة، أن المصريين كانوا قديماً ملاحين رائعين، وكانوا يبنون مراكب واسعة ومتطورة من حيث النوعية، ولكنهم كانوا ينطلقون إلى عرض البحر على سفن من الخشب، لا من البردي.

إلا أنه لا مجال لأي شك في أن "صاحب الجلالة البردي" كان يقف فعلاً عند منابع صناعة السفن المصرية: العوامات والمراكب من هذا القصب الخفيف والواسع الانتشار على ضفاف النيل، ولكن فلنترك الكلمة للاختصاصي، يكتب العالم السويدي بيورن لاندستريوم: "لعل البردي، النبات العشبي الذي يصل طوله إلى أكثر من ٥ أمتار، وسمكه عند القاعدة ١٥ سنتيمتراً، كان أكثر المواد انتشاراً لبناء السفن على النيل قديماً. ومقطع ساقه عبارة عن مثلث زواياه مستديرة، ولا ينبت الآن بردي بري في مصر... ولكن ربما كان البردي في أزمنة المملكتين القديمة والوسطى ينمو بمحاذاة كل الجزء المصري من النيل تقريباً؛ وكان في أزمنة المملكة الحديثة ينمو في الدلتا غالباً، وهو مادة خفيفة ومرنة للقوارب، مع أنه لا يُعمِّرُ

طويلاً. لن أتحدث (خلافاً للمؤلفين الآخرين) عن سفن مصنوعة من البردي. فالمركب المصنوع من البردي عبارة عن قارب. يعوم على الماء لخفته، لا بسبب هيكله المجوَّف شأن السفينة الحقيقية...

يعتبر بيتري بعض نماذج ما قبل السلالات تصويراً لسفن من البردي. وهو، على غرار الباحثين الآخرين يفترض أن المراكب من البردي كانت تطلى بالقار أو بمادة مماثلة... وأنا على ثقة بأن النماذج المذكورة تصور في الواقع مراكب قديمة "تشبه قوارب البردي..."[١٢].

وهكذا، تكمن في أساس صناعة السفن المصرية عوامات من البردي كانت تعوم غالباً على مياه النيل الجبار. وحتى حينما بدأ المصريون فيما بعد ببناء القوارب والسفن من الخشب كانوا يسعون إلى أن يسبغوا عليها مظهراً خارجياً يشبه مظهر السفن المصنوعة من البردي.

ويتابع لاندستريوم قائلاً: "ثمة من يستنتج أحياناً على عجَل أن المصريين لم يكونوا ملاحين بالفطرة، ولكن يمكن قول الشيء نفسه عن كل شعب. الضرورة قبل كل شيء، لا الميل الطبيعي هي ما حفز الإنسان على الإنطلاق إلى عرض البحر، وحتى وإن قنع أغلب سكان البلاد بالسفر على النيل، فقد كان هناك مصريون يذهبون عبر البحر إلى بيبلوس[١] لجلب خشب الأرز. نعرف أن مصر كانت في الألف الثالث ق.م تستورد خشب الأرز من لبنان، ولا توجد مسوغات لاعتبار أن النقل كان يجري على سفن غير مصرية. ربما جرت الرحلات الأولى إلى بيبلوس على اطواف من البردي، مع أنه لا توجد أية معطيات إيجابية عن انطلاق المصريين إلى عرض

---

(١) ساحل لبنان. المؤلف

البحر على البردي. وإذا ضربنا الصفح عن الأخبار القائلة بان ٤٠ سفينة محملة بخشب الارز وصلت زمن حكم سنفرو، فإن المعطيات عن الرحلات البحرية لا تظهر إلا في زمن السلالة الخامسة[١٣]..

ولكن عندنا شهادات أخرى يعول عليها تماماً عن أنه كانت توجد عند المصريين سفن بحرية من الخشب (بما في ذلك الأرز اللبناني). وهي، قبل كل شيء، زورق الفرعون خوفو (أواسط الألف الثالث ق.م) الذي عثر عليه في خندق، عند أساس الهرم الحجري العملاق.

تكتب الباحثة الإنكليزية نانسي: "لم يكن أقدم زورق في العالم فحسب، بل كان أكبر وأفضل من كل المراكب القديمة الباقية المعروفة للآثاريين: سفينة رشيقة، أنيقة يربو طولها على ٤٣ متراً من المقدمة إلى المؤخرة، وقد بنيت من أمتن الأرز المجلوب من جبال لبنان البعيدة..." وتتابع قائلة: كانت ألواح الأرز العتيقة تلمع ألقاً ذهبياً قاتماً، وكان أريجها الدافئ، الراتينجي يفوح في الجو المغبر للمتحف، وكان الشكل الرشيق للزورق يدهش بجماله الخارق، ومن الواضح أن مقدمته المرتفعة إلى الأعلى وخطوطه المتناسقة تعود إلى قوارب البردي القديمة التي لا بد وأن تكون السفن الأولى في مصر"[١٤].

"إذا انطلقنا من المؤشرات التقنية البحتة، فان زورق الفرعون خوفو كان طوله ٤٣,٤ م وعرضه في أعرض جزء من الهيكل ٥,٩م. وكان ارتفاعه من القعر إلى أرضية السطح ١,٧٨ متر. وغاطس السفينة الأقصى ١,٤٨ متر، وحمولتها نحو ٤٥ طناً. في المؤخرة حجرة واسعة، وفي المقدمة ظلة تقي من الشمس محمولة على أعمدة خشبية دقيقة. وكانت للزورق خمسة أزواج

من المجاذيف يبلغ طولها تقريباً ما بين ٦,٥م و٨,٥م ومجذافان للقيادة في المؤخرة يربو طولهما على ٦,٥ متر. "كانت ألواح الهيكل تنتفخ في الماء، وتشد عقد الحبال بقوة، ويتحول الزورق إلى سفينة متينة ومرنة كتيمة. وهذا المركب بهيكله ذي الألواح المتلاصقة يبدو خارقاً للوهلة الأولى بيد أنه في الواقع كان منذ أمد قريب وسيلة نموذجية لبناء السفن البحرية في كل الخليج العربي، وفي كل موانئ المحيط الهندي..."[١٥].

وعرف المصريون القدماء الشراع أيضاً، فقد صور مركب بحري شراعي على نقوش معبد الفرعون ساخور، أحد الحكام الأوائل للسلالة الخامسة[١٦].

ونعلم كذلك من الأسفار والمصادر الأخرى التي وصلت إلينا بالرحلات المنتظمة للسفن المصرية القديمة في البحر الأحمر إلى بلاد بونت الأسطورية وفي شرق البحر الأبيض المتوسط، وأخيراً حول شاطئ إفريقية الغربي.

في القرن الخامس عشر ق.م أرسلت الملكة المصرية حتشبوت إلى بونت بعثة بحرية كاملة لجلب العطور والذهب والعاج. ينوه الجغرافي الألماني المعروف هنيغ بأن "المصريين القدماء كانوا، بما لا شك فيه الآن يقصدون ببونت بالدرجة الأولى الصومال المعاصر والنهاية الشرقية لإفريقية. أي شريط الأرض على الساحل الجنوبي للبحر الأحمر وخليج عدن"[١٧].

عن هذا الحدث المهم في تاريخ الجغرافية العالمية يتحدث بإسهاب ومهابة شديدين نقش هيروغليفي طويل على جدران معبد دير البحري في مصر، أما الصور النافرة المنحوتة في الجوار فهي مراكب المصريين، وثروات بلاد بونت البعيدة، فتكمل هذه اللوحة على نحو جوهري.

وهذا هو النقش: "رحلة في البحر. الإقلاع بنجاح إلى تا- نوتر ("بلاد الإله"، ربما، "الشرق"). وصول محاربي حاكم الأرضين (مصر العليا والسفلى) بنجاح إلى بلاد بونت بناء على أمر سيد الآلهة آمون...، لجلب الأشياء المدهشة... من البلاد الغريبة من أجل حبه العظيم (حب أمون) لابنته ماكارا التي أصبح اسمها بعد ارتقائها العرش حتشبوت، الأشد من حبه للملوك السابقين. لم يجر هذا في عهد الملوك الآخرين الذين كانوا في هذه البلاد (مصر) منذ القدم، ولكن تحقق هذا في عهد جلالتها فقط... منطقة شاسعة لم يعرفها المصريون إلا بالسمع. الوصول إلى مدرجات المر الجبلية. أخذوا من المر قدر ما أرادوا. يحملون المراكب، إلى أن تشبع قلوبهم، بشجيرات المر الحية، وشتى المنتجات الرائعة لهذه البلاد الغريبة. لم يعرف سكان بونت شيئاً عن المصريين..."[١٨].

كانت أهداف الرحلة تجارية تماماً. وكانت حتشبوت تحب المباني الفخمة. وكان معبد الإله أمون أعظم المجموعات المعمارية التي شيدتها. في المعبد تمجد نقوش وكتابات كثيرة، وقيمة أعمال الملكة إلى أعلى درجة من وجهة نظر تاريخ الثقافة[١٩]. وقد رغبت حتشبوت أن تغرس على شرفة هذا المعبد المر، وهو نبات معروف من الكتاب المقدس، ولكنه لا يصادف في مصر. هذا في حين أن المر كان بسبب رائحته الطيبة قد جلب إلى هذه البلاد بكميات كبيرة من بونت قبل ١٥٠٠ سنة من حكم حتشبوت، في عهد الفرعون ساخور. وقد أمر كاهن الإله أمون بتنفيذ إرادة الملكة فوراً، وطلب "استطلاع الطرق إلى بونت"، وجلب المر من هناك، وجهزت للإبحار إلى بونت ٥ مراكب كبيرة كل منها بثلاثين مجذافاً - "أكبر قافلة إلى هذه البلاد عندنا معلومات عنها"[٢٠].

كان الطريق يمر، على ما يبدو، في منطقة رأس غواردافوي. وساهم في الرحلة مبعوث الملكة. وكانت الرحلة ناجحة جداً. وبعد أن قايض المصريون بضائعهم بثروات بلاد بونت، ومن بينها ٣١ شجرة مر مغروسة في براميل خشبية. رجعوا إلى الوطن سالمين.

ينوه هنيغ: "نستطيع أن نفترض أنه استخدمت في هذه البعثة ولو جزئياً التجربة القديمة للرحلات الشراعية الصعبة في البحر الأحمر، الأمر الذي يشهد عليه النجاح التام لهذه الجولة. في هذه الحالة كان يمكن لهذه الرحلة ان تجري في صيف عام ١٤٩٣ ق.م. في يونيو تبدأ بالهبوب في البحر الأحمر أنسب الرياح للمراكب المتجهة إلى الجنوب. وإذا كان الطقس حسناً يمكن الوصول إلى بلاد الصومال في غضون شهرين أو ثلاثة... وتبلغ المسافة ما مجموعة ٢٠٠٠كم... ولكن يستحيل تحديد مكان النزول في بونت والمرسى الذي كانت تنطلق منه المراكب المصرية"[٢١].

وهكذا، لا شك في واقع أن المصريين كانوا يملكون منذ الألف الثالث ق.م سفناً صالحة تماماً للملاحة، وبحارة محنكين قادرين على اجتياز مسافات طويلة بالمجاذيف أو الأشرعة، وكان المصريون يقطعون بثقة، إلى جانب الجزء الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، المياه المتقلبة للبحر الأحمر، وحتى المحيط الهندي بمحاذاة الساحل الإفريقي. لا توجد عندنا أية معلومات عن انطلاق المصريين إلى الأطلسي قبل القرن السادس ق.م (ثم إن أولئك كانوا بحارة فينيقيين قاموا برحلة حول إفريقية بأمر من الفرعون نخاو أعوام ٥٩٦ - ٥٩٤ ق.م).

ومع ذلك، كان يمكن من الناحية النظرية البحتة لسفينة أو عوامة من البردي مصريين تدفعهما رياح وتيارات من البحر الأبيض المتوسط إلى

الغرب أن يصلا، إذا تضافرت ظروف مواتية بشكل خاص، إلى ساحل المكسيك أو أمريكا الوسطى. ولكن هل يعني هذا أن هيردهل وسابقيه "الانتشاريين"، الذين أصروا على الجذور المصرية للحضارة المكسيكية القديمة (الأولميكية). كانوا على صواب؟ كلا أبداً!

السفن التي انطلقت من شواطئ البحر الأبيض المتوسط كانت بالفعل تقطع من حين إلى آخر بمشيئتها أو بمشيئة القدر، مياه الأطلسي وتصل إلى الساحل الشرقي للعالم الجديد (وعلى متنها طاقم يشرف على الموت أو ميت تماماً). وربما كانت في عداد هؤلاء "الهولنديين الطائرين"[١] مراكب مصرية قديمة مصنوعة من أرز لبنان أو قصب النيل. بيد أنه يمكن القول بالتحديد نفسه أنه لم يعثر إلى الآن في القارة الأمريكية على أية آثار لإقامة المصريين أو أية شعوب متحضرة أخرى من البحر الأبيض المتوسط، إذا لم نأخذ في الحسبان اثنتين أو ثلاثاً من اللقيات العرضية للمواد الرومانية في أراضي المكسيك وفنزويلا.

وعلاوة على ذلك، فان "أسس الحضارة" ليست أبداً عصا لسباق البدل يمكن بسهولة نقلها عند توفر الرغبة من إنسان إلى آخر؛ لتقبل ملامح الثقافة الجديدة أو المخترعات التكنيكية من الخارج يجب على الجماعة البشرية المعنية **أولاً** أن "تنمو" إلى مستواها، أي أن تبلغ درجة معينة من التطور.

---

(١) "الهولندي الطائر" أسطورة شعبية عن بحار متجول. على أساسها وضع الكاتب الألماني هانيه إحدى قصصه، كما ألف مواطنه الملحن فاغنر أوبرا تحمل الاسم نفسه. صارت كلمتا "الهولندي الطائر" بمثابة صفة تطلق على كل بحار لأهم له إلا التجول والترحال. المترجم

ثانياً: أن تعاني حاجة ماسة إليها. وفي هذا الصدد تبدو الفرضيات أو النظريات التي تحاول البرهان على انتشار ثقافات وحضارات كاملة عبر المحيطات بواسطة مراكب معدودة قذفت بها الأمواج إلى الساحل الأمريكي غير مقنعة بالمرة.

يمكن للبرهان على هذا إيراد العشرات من الأمثلة المسجلة بدقة بروتوكولية في الوثائق والمدونات القديمة، حينما كان بحارة العالم القديم الذين قذفت بهم مشيئة القدر إلى العالم الجديد يزولون بلا أثر من غير أن يخلِّفوا أية بصمة تقريباً في ثقافة القبائل المحلية للأسكيمو والهنود الحمر: مستوطنات الفيكينغ في أمريكا الشمالية ونيوفوندلاند؛ البحارة الإسبان الذين أصيبوا بكارثة عند شواطئ يوكاتان في عام ١٥١١، ووقعوا في أسر هنود المايا؛ "أوديسة"[١] الإسباني كابيسا دي فاكا ورفقائه من فلوريدا إلى المكسيك في ثلاثينيات القرن السادس عشر وغير ذلك.

في عام ١٨٢٧ أعرب المدعو جون رينكينغ في "بحث تاريخي حول إخضاع بيرو والمكسيك" عن افتراض بأن دولة الإينكي في أمريكا الجنوبية أسستها طواقم عدة مراكب من أسطول قبلاي خان انساقت إلى ساحل بيرو على المحيط الهادئ. وقد قذفت بهذه المراكب إلى العالم الجديد عاصفة هوجاء غرق إبانها الجزء الأكبر من العمارة التي أرسلها الإمبراطور المغولي لإخضاع اليابان.

---

(١) "أوديسة"، في الأصل، عنوان ملحمة الشاعر اليوناني هوميروس التي يصف فيها جولات ومغامرات أوديس، ملك إيتاله، وصارت الكلمة تطلق على كل رحلة حافلة بالأحداث. المترجم

في عام ١٨٨٦ تناول المؤرخ هيوبرت بينكرفت من الولايات المتحدة هذه الرواية بالنقد الشديد. كتب يقول: "ينسى واضع هذه النظرية الفرق بين ادخال عناصر الثقافة الغريبة، والمنشأ الفعلي للشعب. من السخف افتراض أن طواقم عدة سفن، بدون نساء تقريباً أو من غير نساء بالمرة رسَتْ مصادفة عند سواحل بيرو في القرن الثالث عشر قد نمت في القرن الخامس عشر عددياً إلى درجة تشكل معها دولة جبارة. بيد أن حضارتها الرفيعة بعيدة الشبه عن حضارة وطنها السابق إلى درجة أن أية تشبيهات تبدو هنا غير مقنعة ومصطنعة للغاية"[٢٢]. وهذا الاستنتاج، كما يبدو لي، ينطبق تماماً على رحلات المصريين القدماء عبر المحيط التي جرى عنها الحديث في هذا الفصل.

ولكن لم يحن الوقت بعد لوضع نقطة وانهاء الحديث. إذ يهرع من جديد وجديد للصعود كهنة ومتحمسون جدد إلى مسرح التاريخ الأمريكي القديم. وهكذا، أكد مؤخراً المدعو جيرازبهوي من الولايات المتحدة أن ثقافة المكسيك الأولميكية التي منحت، على حد زعمه، كل حضارات العالم الجديد الأخرى الحياة، قد تحدرت من مصر مباشرة. وقد حدث هذا، كما يقول، نحو عام ١٢٠٠ ق.م. جلب رسل فرعون معهم إلى الأدغال المستنقعية للساحل المكسيكي المعارف عن بناء المراكز الطقسية ذات الأهرام، وعن الأنصاب الحجرية العملاقة والزخارف الجدارية، وأعطوا الملوك المحليين العروش والمظلات بمثابة نعوت للسلطة العليا، وكذلك الكتابة الهيروغليفية.

يعثر المؤلف إياه في ملحمة المايا - كيتشي "بوبل فوه" على إشارة إلى أن اسلاف المايا وصلوا، كما يزعم، إلى أمريكا من مكان ما في الشرق، من وراء

البحر. وهذا "الشرق" لا بد وأنه كان يقع في وادي النيل. كانت متشابهة، كما اتضح، الأنظمة الزراعية للأولميكيين والمصريين: كانت الفيضانات المنتظمة للأنهار تستخدم في المنطقتين لنيل محاصيل الحبوب، ولم تكن الطقوس الدينية للشعبَين المذكورين تختلف من حيث الجوهر(٢٣).

يكتب الباحث الأمريكي ووكب: "لقد قدر لنظريات مصر في أمريكا (أو أمريكا في مصر) والأطلنطيد و"أسباط إسرائيل المفقودة" أن تعيش أيضاً حياة طويلة؛ لأسباب يستحيل إدراكها يكنُّ الناس لها وداً رقيقاً، ولا يصدقون أكثر حجج العلماء المضادة إقناعاً، أو بالأصح، لا يريدون أن يصدقوا، وإقناع الإنسان رغم أنفه أمر ميئوس منه"(٢٤).

هوامش الفصل الثاني

1- E.G. Smith. Migrations of Early Centuries Manchester, 1929; The Diffusion of culture. London, Watts, 1933.

2- R.. Dixon. The building of cultures. New York, 1928.

3- E..G. Smith The Diffusion of cultures…

4- C.Gordon. Before Columbus. New York, 1971.

٥- هيردهل. مغامرات إحدى النظريات. لينينغراد، ١٩٦٩.

6- T.Heyedahl. American Indians in the Pacific. Stockholm, 1952; T.Heyerdahl and E.N.Ferdon (eds.). Reports of the Norvegian Archaeological Easter Island and the East Pacific, Experdition

7- Stockholm, vol. 1 – 196, vol. 2 –1965;

٨- هيردهل. من "كون- تيكي" إلى "رع". موسكو، دار "زنانييه"، ١٩٧١.

٩- أعيد طبع هذه المادة في "نيديلا" الأسبوعية بتاريخ ١٥ يونيو عام ١٩٦٩. الاستشهاد من مادة "نيديلا".

١٠- أعيد طبع هذه المادة في "زا روبيجوم" الأسبوعية العدد ٢١،٢٣ ـ ٢٩ مايو عام ١٩٦٩. الاستشهاد نص "زا روبيجوم".

١١- "زا روبيجوم"، العدد ٢١، ٢٣ ـ ٢٩ مايو، عام ١٩٦٩، ص ٣١.

١٢- انوخين. مقدمة كتاب: ياكوبي "سنيور، كون- تيكي". موسكو، دار "التقدم"، عام ١٩٧١.

13- A.Caso. Relations between the Old and New Worlds. – Actas y Memorias del 35 Congreso Internacional de Americanistas, vol. 1, Mexico, 1964, pp. 55-56.

١٤- كنوروزوف. مقدمة كتاب: ووكب. القارات الغرقى وأسرار القبائل المفقودة.

١٥- موسكو دار "مير"، ١٩٦٦، ص ١٠.

١٦- لاند ستريوم. مراكب الفراعنة. ـ الملاحة القديمة. سلسلة "علم الأرض" العدد ١٢، موسكو، دار "زنانييه"، ١٩٧٩، ص ٤ ـ ٥.

١٧- لاندستريوم. مراكب ...، ص ٥ - ٦.

١٨- نانسي. زورق تحت الهرم. موسكو، دار "ناؤوكا"، ١٩٨٦، ص ٤.

١٩- المصدر السابق، ص ٨، ٧٢.

٢٠- المصدر السايق، ص ٨٨.

٢١- هنيغ. أراض مجهولة. المجلد١، موسكو. دار الأدب الأجنبي، ١٩٦١، ص ٢٣.

٢٢- هنيغ. أراض مجهولة. المجلد ١، ص ٢١.

23- Mariette A.E. Deir- el –Bahari. Paris, 1877

٢٤- برستد. تاريخ مصر منذ أقدم الأزمنة وحتى الغزو الفارسي.

٢٥- موسكو، ١٩١٥. المجلد ١، ص ٢٨٦ ـ ٢٩٠.

٢٦- برستد. تاريخ مصر...، ص ٢٨٨.

٢٧- هنيغ. أراض مجهولة، المجلد ١، ص ٢٧ ـ ٢٨.

28- R.Dixon. The Building of cultures…, p. 139

29- R.A.Jairazbhoy. Ancient Egyptians and chinese in America. London, 1974, pp. 7 – 99

30- R.Wauchope. The Lost Tribles. Sunken Continenets. Chicago, 1962, p. 82.

الفصل الثالث

أبناء كنعان يبحرون إلى الغرب
(البحارة الفينيقيون في أمريكا)

«مدينة قديمة سكانها تحدروا من صور،
اسمها قرطاجة – بعيدة عن مصب تيور،
مقابل إيطاليا، كانت غنية وفي المعارك لا تهاب».

فرجيل، القرن الأول ق . م

جاء في إحدى الموسوعات البحرية: "لم يعش أي بحر وأية قارة حياة عظيمة ونبيلة كتلك التي عاشها البحر الأبيض المتوسط. لقد فتن عشرين شعباً عاشت في أراض مقفرة، وحينما أتت إلى شواطئه الساحرة مع محاربيها الشجعان وعرافيها وآلهتها، وضعت عند قدميه سلاحها ودينها، خاضعة لسلطته الغامضة. عشرون حضارة ازدهرت في ألق البحر وبادت، بعد أن وصلت إلى ذروة القوة والعظمة. وضفر البحر أطلالها في التضاريس المتناسقة لخلجانه المشمسة ورؤوسه البرونزية وجزره التي صنعتها الأمواج، ونقشتها نزواتها على شكل أسس لمعابد مقبلة، أُسُسٍ لم يكن من النادر أن تنشق عن مغائرَ تصدح فيها ألحان أرغن البحر. في تاريخ الضفاف المتنوعة

لهذا البحر صفحات تتضمن الإجابة عن أي سؤال يطرحه الإنسان: هناك فكر في مصائر البشرية الفلاسفة والكهان والشعراء والعلماء والغزاة..."[1].

تؤكد الأغلبية الساحقة من العلماء أن البحر الأبيض المتوسط كان منذ أقدم الأزمنة ميدان تجارب لقوارب ومراكب وسفن تزداد تعقداً. يكتب المؤرخ خانكي (ألمانيا): "إن البحر الأبيض المتوسط، بخط شاطئه التي تقطنه الخلجان، وبجزره العديدة والمتخلص إلى درجة كبيرة من لعبة الجزر والمد المتقلبة، كان منذ البداية مدرسة مثالية للملاحة الأوروبية".

والمياه الساحلية للبحر الأبيض المتوسط، الشفافة كالبلور والدافئة، تحتفظ في أعماقها بمقابر كاملة لسفن كل الشعوب والحضارات التي وجدت هناك على امتداد الآلاف الأخيرة من السنين. أين ومتى ولدت لأول مرة فكرة بناء سفينة بأشرعة ومجاذيف؟ ربما في ما بين النهرين، على النهرين الآسيويين العظيمين دجلة والفرات؟ أو ربما في وادي النيل؟ النماذج الفخارية للزوارق، بما في ذلك الزوارق الشراعية، معروفة في الآثار السومرية لما بين النهرين منذ الألف الرابع ق.م. ومن البردي بنى المصريون، معاصرو الأهرام الأولى والفراعنة الأوائل، سفناً وزوارق خفيفة مخصصة للتنقل على النيل.

ولكن أكبر النجاحات في تطوير الملاحة حققها في الألف الثالث ق.م مؤسسو الحضارة المينوية في كريت، وفي الألف الثاني ق.م سكان الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط (سورية ولبنان حالياً). وقد اخترع الأخيرون وبنوا من خشب الأرز اللبناني المتين أول سفينة بحرية بقارينة وأطر. وكانت هذه السفن، المنخفضة والراسخة ذات أشرعة ومجاذيف شأن السفن المصرية.

بدأ غزو البحر بتفقد الخلجان الداخلية الكبيرة. ثم حل الزمن للقيام برحلات أبعد. وتشكل أسطورة المركب العجيب "أرغو"، الذي تغنت به عبقرية هوميروس، تذكاراً جليلاً لكل ملاحي الطرق البحرية المجهولين.

في تلك العصور تعلم الناس أن يضعوا الخرائط، ويقيسوا الأعماق، ويعينوا إحداثيات المدن والمستوطنات الساحلية، ويحسبوا بدقة وَفْقَ النجوم المسافات التي قطعوها، ويستخدموا لأغراضهم قوة الرياح والمد والتيارات البحرية، ولكن الأمر الرئيس هو أن الإنسان تعلم بناء مراكب بحرية متينة للرحلات البعيدة. جاء في موسوعة بحرية: "دخل المركب تاريخ الفن كفلك محمل بآمال المستقبل وأحلامه".[٢].

نتيجة للصراع الضاري والاصطفاء الطبيعي ظهرت قبائل جديدة، قاهرة للبحار، ويطلق عليها في الأسفار القديمة اسم "الشعوب البحرية"."كل الانفعالات البشرية تساعد على هذا الاصطفاء الذي يحتمه القدر: الطموح والكراهية والتطلع إلى الحرية والنفعية والحب، وتتحول المحطات المؤقتة على شواطئ الخلجان إلى مرافئ، أي إلى مدن بحرية يغذيها البحر بثماره"[٣].

كان بين هؤلاء، الذين "اختارهم القدر"، الفينيقيون، الشعب السامي اللغة الذي استقر منذ أقدم الأزمنة على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، في أراضي سورية ولبنان حالياً. هناك، عند مياه البحر اللازوردية، تحت ظلال جبال لبنان المغطاة بغابات الأرز، ظهرت وازدهرت المدن الفينيقية الشهيرة بيبلوس وصور وصيدون التي تحدث مؤلفو الكتاب المقدس عنها بحماسة. هذه البلاد كان الإغريق القدماء يسمونها بفينيقيا، أما السكان المحليون فكانوا يسمونها بكنعان. لم تشتهر

يوماً بوفرة مكنوناتها الطبيعية، ولكن أراضيها كانت خصبة وأنهارها الجبلية الصغيرة وينابيعها الطبيعية وآبارها كانت مصدراً سخياً لتزويد الناس بالمياه، وكان البحر غنياً بالأسماك.

لا أحد يعرف بدقة متى ظهرت المدن الفينيقية على وجه التحديد. كانت صيدون تدعى المدينة الأقدم، ولم يكن عبثاً، على ما يبدو، أن تسمى في الكتاب المقدس "الابن البكر" لكنعان، ولكنها ترجع بأصلها إلى قرية متواضعة لصيد السمك، الأمر الذي انعكس في تسميتها: "صيدون" تعني "سمكة".

يرجع تاريخ صور إلى الألف الثالث ق.م، أما بيبلوس (جوبل بالفينيقية، وجبيل في الكتاب المقدس)، فيعود تاريخها إلى الألف الخامس ق.م. وعلى أي حال، فقد تحولت بيبلوس في تخوم الالفين الرابع والثالث ق.م إلى مركز كبير محاط بسور حجري قوي.

بقيت معلوماتنا عن الفينيقيين، إلى أن هب الآثاريون للمساعدة في أواسط القرن التاسع عشر، تتوقف كلية على الشهادات الكتابية للشعوب الأخرى، مثل العبريين (اليهود) والإغريق والرومان. وكانت هذه الشعوب تعقد شتى الصلات بالفينيقيين، مع العلم أن هذه الصلات لم تكن ودية على الدوام.

أما المخطوطات الفينيقية بالذات ففنيت كلها تقريباً، ولهذا نشأ وضع يستحيل فيه اعتبار اللوحة التي ترسمها المصادر الكتابية موضوعية وكاملة دائماً.

وهكذا، فإن بلوتارك، المؤلف اليوناني، الذي كتب في القرن الأول ق.م، بعد سنوات كثيرة من سقوط قرطاجة، أعلن ما يلي عن الفينيقيين:

"إنهم أناس طافحون بالمرارة والتجهم، خانعون للحكام، وطغاة على من يحكمونهم، حقراء (أذلاء) في الخوف، مسعورون حينما يمسهم أحد،

راسخون (أصلاب) في القرارات، ومحدودون إلى درجة أنهم ينظرون بنفور إلى كل فكاهة وطيبة"[٤].

وثمة ملاحظات انتقادية مماثلة عند أبيانوس، اليوناني من الاسكندرية، الذي عاش في القرن الثاني ق.م: "إنهم في عهد ازدهار قرطاجة غلاظ ومتغطرسون إزاء كل الناس، ولكنهم أذلاء (خانعون) في المصيبة (في الخطر)"[٥].

ولكن من الخطأ إسباغ أهمية كبيرة على هذه المحاكمات، فثمة آراء أخرى أكثر وداً إزاء الفينيقيين أعرب عنها المؤلفون القدماء مثل بومبونيوس ميلا، الإسباني الذي كتب باللاتينية في القرن الأول ب.م: "كان الفينيقيون شعباً حكيماً ازدهر في الحرب وفي السلام، امتازوا (برزوا) في الكتابة والأدب، وفي الفنون الأخرى، وفي الملاحة، وفي الفن العسكري والبحري، وفي إدارة الامبراطورية"[٦].

ساعدت الأبحاث الآثارية كثيراً على تكوين نظرة إلى الفينيقيين أكثر اتزاناً.

كان الفينيقيون كباحثين ومؤسسين للمستوطنات في الأزمنة القديمة يأتون في الدرجة الثانية بعد الإغريق، وكانوا بصفتهم تجاراً وباعة يوصلون وينقلون الخامات والبضائع المنتجة في مدنهم إلى كل أرجاء العالم المعروف حينذاك. وهم لم يظهروا جرأتهم كمحاربين شجعان في الصراع الطويل بين قرطاجة وروما فحسب، بل كذلك في المقاومة التي أبدتها صور وصيدون لسكان ما بين النهرين وللغزاة الآخرين، وفي عملهم في الأسطول البحري لمصلحة فارس، ولكن كل هذا يبهت أمام إنجازهم الأعلى والخالد، أمام الأثر الذي خلفوه لكل الأزمنة، ألا وهو الأبجدية.

هذا الشعب، الذي تحدثنا عنه بكل هذا الكلام، شغل منذ القدم شريطاً ضيقاً من ساحل الشام يمتد من طرطوس في الشمال إلى جبل الكرمل في الجنوب. يسمي الكتاب المقدس سكان العصر البرونزي لهذا الشريط الساحلي ومنطقته الخلفية بالكنعانيين. وكانوا ساميين ويتكلمون بلغة سامية، فمن أين أتى اسمهم الآخر(الفينيقيون) الذي عرفوا به في التاريخ؟ إنهم لم يخترعوه بأنفسهم. ويبدو أن الإغريق أطلقوه عليهم، ويفترض أنهم الميقينيون الذين عقدوا صلات تجارية بالفينيقيين في أواخر القرن الثاني ق.م، ويصادف هذا المصطلح لأول مرة في قصائد هوميروس (المفرد -"فينيقس"، الجمع - "فيونيقس") وكان يعني أول الأمر اللون الأحمر الغامق أو الأرجواني أو البني، ثم صار يطلق فيما بعد على النخلة، وعلى الكنعانيين السمر.

عاشت فينيقيا على البحر، وكانت حياتها متوقفة على البحر في كل شيء. كان البحر يوفر للفينيقيين الغذاء والخامات لمختلف الحرف (مثل محار الرخويات "موركس" لإنتاج "الأرجوان" الشهير، الصباغ الأحمر الثابت) ويشكل طريقاً مريحاً واسعاً للاتصال بالجيران القريبين والبعدين، فهل ثمة ما يبعث على الدهشة في كون سكان فينيقيا أصبحوا منذ أبكر الأزمنة مشهورين في كل البحر الأبيض المتوسط كصانعي سفن وملاحين مهرة.

يقدر العلم المعاصر عالياً دور "أبناء كنعان" في تطوير الملاحة القديمة. يكتب المؤرخ شيفمان: "اضطلع الملاحون الفينيقيون الشجعان بدور لا يستهان به في إنشاء الطرق البحرية في منطقة البحر الأبيض المتوسط. لم تبق بقعة في حوض البحر الأبيض المتوسط لم يبحروا إليها، وكانت البلقان وكريت وصقلية وبيرينه، والمناطق المتاخمة للبحر الأسود

ترى المراكب الفينيقية "ذات الجوانب السوداء" المثقلة بالحمولة، وتسمع الكلام الفينيقي الحلقي، وتنتظر بفارغ الصبر أحياناً، وبرعب أحياناً أخرى ظهور الأشرعة الموشاة المعروفة جيداً في الأفق. بيد أن الفينيقيين لم "يقتصروا على البحر الأبيض المتوسط وحده. إنهم، وقد تغلبوا على الخوف الطبيعي بالنسبة إلى زمنهم، خرجوا من مضيق جبل طارق، وتابعوا طريقهم البحري إلى الشمال، إلى الجزر البريطانية، وانطلقوا إلى الجنوب، بمحاذاة ساحل إفريقيا على الأطلسي، وكان الفينيقيون أول من قام في تاريخ البشرية برحلة حول إفريقيا، من البحر الأحمر إلى جبل طارق، وحتى إنهم تجرؤوا على الإبحار إلى رحاب المحيط الأطلسي، بعيداً عن الشواطئ.

لم يبحث الفينيقيون أبداً عن مجد المكتشفين الأوائل للطرق البحرية، ثم إنهم في الواقع لم يكونوا على ما يبدو المكتشفين الأوائل. وثمة مسوغات للتفكير في أنهم، إذ أبحروا إلى بريطانيا، مثلاً، استخدموا المعطيات التي تلقوها من البحارة المحليين والبريطانيين في جنوب إسبانيا، وعلاوة على ذلك لم يضع الفينيقيون أمامهم عموماً مهمات للبحث. فما كانوا يعرفونه أو يسعون إلى معرفته عن المناطق النائية للعالم المعروف قديماً لم يتجاوز نطاق ما هو ضروري على نحو مُلحٍّ للقيام بالتجارة البحرية.

بحث الفينيقيون عن أماكن يستخرجون فيها المعادن النادرة و الثمينة في ذلك الزمن، ويمكن فيها الحصول على العبيد، وبيع البضائع دون التعرض للخطر. كانوا يتطلعون إلى الربح، ولذا سعَوا بكل السبل إلى أن يُخْفوا عن منافسيهم الطرق البحرية التي يعرفونها، وكانوا إذا لم يتسنَ ذلك، يتحدثون بمعلومات غير صحيحة، محاولين إخافة كل من يستطيع أن يقتفي أثرهم بالأحاديث عن الظواهر الطبيعية الغامضة والحيوانات الخيالية...

وربما لهذا السبب بالذات لا نعرف إلا القليل عن البحارة الفينيقيين، ولم تصل إلينا أسماؤهم إلا في حالات استثنائية نادرة. ومن يدري؟ فلربما قام الفينيقيون برحلات أبعد لم يبق لها أي ذكر في أعمال المؤلفين القدماء؟"[٧].

أصبح الآن معروفاً على وجه الدقة أن "أبناء كنعان" وصلوا في المحيط الأطلسي إلى جزر أسور (دفينة من العملة القرطاجية تعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد في جزيرة كورفو).

ولكن هذا كان على ما يبدو الحد الجغرافي الأقصى الذي استطاعوا أن يصلوا إليه في الغرب. ومع ذلك يوجد أناس كثيرون سواء في الماضي أو الآن يعلنون بدون أية براهين أن المراكب الفينيقية زارت مراراً الساحل الأطلسي لكل أمريكا (الشمالية والوسطى والجنوبية)، وحتى إن طواقمها أسست مستوطنات في عدة أماكن، وتقوم هذه التأكيدات عادة على مسلمتين رئيستين: أولاً على المستوى الرفيع للملاحة، وبناء السفن الفينيقيين (اللذين أشير إليهما بالإجماع في الكثير من الوثائق التاريخية القديمة) في أواخر الألف الثاني ومستهلِّ الألف الأول ق.م ثانياً على بعض الشهادات الضبابية والغامضة للمؤلفين الإغريق والرومان حول رحلات "أبناء كنعان" إلى الغرب، وراء "أعمدة هرقل" (مضيق جبل طارق)، إلى أرجاء الأطلسي الزرقاء، وحول اكتشاف جزر وأراض جديدة هناك.

فلننظر إلى كل من هذه المسلمات بمزيد من الإمعان.

إن مقتضيات التجارة البحرية (الناشطة مع مصر بشكل خاص) قد حولت بالفعل في وقت مبكر جداً مدن صور وبيبلوس وصيدون الفينيقية إلى مراكز كبرى لبناء السفن.

"يبدو أن المراكب المخصصة لنقل الحمولات إلى مسافات قصيرة نسبياً، في نطاق الجزء الشرقي لحوض البحر الأبيض المتوسط، كانت تبنى على نمط قوارب الصيد. وقد عثر على أقدم صور لهذه السفن في مدفن مصري يعود إلى أواسط الألف الثاني ق.م. كانت سفناً بصارٍ واحد، وغاطس صغير، ومقدمة ومؤخرة مرتفعتين إلى الأعلى، وشراع رباعي ضخم. كان أساس السفينة يتكون من عصا معترضة، قارينة، ترتكز عليها أطر مغطاة بالألواح. وتجنباً للرشح كانت كل الشقوق تسدُّ جوانبها بعناية، ولم تكن الأكناف العلوية متواصلة، ولم تكن هناك بعد أية وصلات طولانية أو عرضانية: كانت الجوانب عملياً متصلة بواسطة ألواح السطح. وكانت المقدمة والمؤخرة تتكونان من عصوين خاصتين مثبتتين عمودياً على القارنية، وهاتان العصوان (الكنف العلوي والقائم الخلفي) ترتفعان إلى أعلى من الجوانب والسطح بكثير. والشراع يثبت على عارضتين؛ والعارضة السفلى معلقة على حبال كثيرة. وكانت ترتفع إلى الأعلى حينما ينطوي الشراع. كان يمكن إعطاء هذا الشراع أي وضع بالنسبة إلى هيكل السفينة، مما يمكن الملاحين من المناورة عند الضرورة، ويقع في المؤخرة مجذاف القيادة، وكان يمكن باستخدام التيارات المؤاتية اجتياز طريق على هذه السفينة من مصب النيل إلى رأس الكرمل[1] في غضون يوم واحد، أما طريق العودة فكان يتطلب فترة تتراوح بين ثمانية وعشرة أيام.

كان التجار يضعون على السطح حمولتهم المكونة من الصوف والخشب وزيت الزيتون المحفوظ في جرار فخارية كبيرة، وثمة بضائع أخرى كان الفينيقيون ينقلونها إلى مصر... (الثيران، الذهب، العبيد السود والبيض).

(١) في فينيقيا. المؤلف

يبدو أن الفينيقيين صنعوا في الألف الثاني ق.م مراكب مخصصة للرحلات البعيدة، وهي ما يسمى "السفن الترشيشية"، وقد ظهرت هذه التسمية؛ لأن بلاد ترشيش (ترتس في جنوب إسبانيا) كانت تعتبر في الشرق الأوسط "نهاية الدنيا". بيد أننا لا نعرف كيف كانت المراكب "الترشيشية" في تلك الفترة؟ وكيف كان تركيبها"؟[٨].

تغير الوضع مع الزمن بشكل ملحوظ، وصار البحارة الفينيقيون يقطعون البحر الأبيض المتوسط من طرف إلى طرف بثقة متزايدة، واكتسبت الرحلات إلى ترتس، إلى ضفاف المحيط الشاسع والفاتن طابعاً دائماً إلى هذه الدرجة أو تلك. وكانت الفوائد من هذه الرحلات تنمو مع كل سنة.

ولكن كان الطريق من الحافة الشرقية للبحر الأبيض المتوسط إلى حده الغربي صعباً وخطراً، ناهيكم عن بعد المسافة التي تفصل بين ترتس وفينيقيا. وحتى الآن، بعد أن تحول البحر الأبيض المتوسط إلى مصح عملاق لاستجمام ملايين السياح من كل أرجاء الدنيا، تحدث هناك من حين إلى آخر جوائح طبيعية مروعة، وتهب العواصف، ويهلك الناس والسفن، فماذا يمكن القول عن الأزمنة القديمة، حينما اصطدم الإنسان وجهاً لوجه في خطواته الأولى على الطريق إلى الحضارة مع الضراوة الجامحة للطبيعة العذراء؟

لم يتَّسم البحر الأبيض المتوسط "اللازوردي" بوداعة خاصة في يوم من الأيام. "العواصف فيه سريعة الهبوب، وقاتلة وغادرة كالنساء. ما إن يبدأ تهديد الرياح المتكونة على خط الاستواء بإقلاقه حتى يشرع في اضطراب متمرد، ولكن قبل أن يتمرد، تتخذ مياهه لوناً غريباً وكأن قوتها المتوعدة تطلق شراراً دامياً ذهبياً... الأبراج القوية في إسبانيا والمغرب

تصون البحر الأبيض المتوسط من أنواء المحيط، ولكن أرجاء اليابسة التي تضغط البحر تنهال عليه بعواصفها التي تنطلق عبر الأودية الكثيرة من كاتالونيا إلى قرمان[1]، متنفسة برد الجبال وحرارة الحجارة المتوهجة..."[9].

كانت الجولات البحرية، حتى القصيرة نسبياً، تعتبر في الأزمنة القديمة أمراً خطراً جداً. غالباً ما كان المؤلفون الإغريق والرومان يتحدثون عن عواصف وأنواء تقذف السفن السهلة الانقلاب بعيداً عن هدف الرحلة. وإذا كان الملاحون يفقدون السيطرة على السفينة والاتجاه، لم يكن من النادر ان يصلوا إلى بلدان وأصقاع لم يشاهدوها من قبل. وهذا ما حدث على سبيل المثال لليوناني كوليوس من جزيرة ساموس، الذي توجه إلى مصر نحو عام ٦٠٠ ق.م، ففي الطريق قذفت ريح قوية مركبه إلى جزيرة بامبا عند شواطئ إفريقيا الشمالية. وبعد أن انتظر كوليوس هناك بعض الوقت، توجه مجدداً إلى شواطئ مصر، ولكن الريح قذفت بلا رحمة سفينته إلى الغرب، وعوضاً عن وادي النيل وجد الملاح اليوناني نفسه فجأة في جنوب شبه جزيرة بيرنيه، في دولة ترتس (ترشيش).

كان الناس القدماء العاجزون في صراعهم مع الطبيعة لا يعولون إلا على رحمة الآلهة الذين يثيرون العواصف في رأيهم. وليس عجباً أن البحارة، الذين يحسنون الاسترشاد بالنجوم، كانوا يحاولون عدم ترك الساحل يغيب عن انظارهم. حتى كتب الإرشاد البحري فيما بعد، المسمَّى "بيريبلات"، التي كانت شائعة عند اليونانيين، لم تكن تتضمن سوى قائمة بالنقاط الآهلة التي يجب أن تمر المراكب قربها، مع الإشارة إلى المسافات بينها"[10].

---

(١) تركيا. المؤلف

بيد أن فوائد الرحلات البعيدة للتجارة البحرية كانت تفوق كل الأخطار المرتبطة بها، ولم يعد الفينيقيون يقتصرون على البحث عن أراض غنية جديدة، وعن الشركاء التجاريين الممكنين فيها، بل سعوا أيضاً إلى تعزيز مواقعهم في أكثر النقاط الساحلية فائدة. وهكذا، ظهرت المستوطنات الفينيقية الواحدةُ إثر الأخرى: ليكس (لكوس) في إفريقيا، خلف جبل طارق؛ قادش (قاديكس) في جنوب غرب إسبانيا، وفي جزيرتي صقلية وسردينيا، وفي أوتيكا (إفريقيا الشمالية) إلخ. وأخيراً أسس في عام ٨٢٥ق.م، على ساحل خليج تونس، أهم ميناء فينيقي، وهو قرطاجة، وكلمة "قرطاجة" تعني "المدينة الجديدة". اتسعت المدينة بسرعة لا نظير لها. "وموقعها المناسب جذب إليها حشداً من المستوطنين، مع العلم أنهم لم يكونوا من الفينيقيين فحسب، بل وكانوا من الإغريق والإيطاليين والأتروسكيين، وكان أهم معالمها العديد من الترسانات وورش تصليح السفن، حيث كان يعمل عبيد تابعون للدولة وللأفراد.

بقي الفينيقيون أمداً طويلاً يبنون الميناء الاصطناعي، "الكوتون". كان يمكن للمراكب أن تحتمي هناك من الطقس الرديء بشكل يعول عليه أكثر مما في المرسى الطبيعي. وكان الميناء يتكون من قسمين يصل بينهما مجرى ضيق صغير: ميناء بحري له شكل دائرة منتظمة تقريباً، وميناء مدني مستطيل"[١١].

بدا أن هذا السيل الاستيطاني العارم لا ينضب. "كانت المدن الفينيقية ترسل إلى كل الجهات فاتحي الأراضي الجديدة الذين كانوا يعودون بأنباء مثيرة. كانوا يجدون مصادفة، بسبب هبوط اضطراري أو طوعي إلى الشاطئ، أراضي يمكن إخضاعها. فتنطلق قوافل السفن في رحلة بمحاذاة شواطئ إفريقيا الشمالية أو ساحل أوروبا الجنوبي. وكانوا يتزاحمون على

شكل مستعمرات عديدة، حيث يقيم الطريدون والمغامرون الموانئ، ويستقبلون البضائع من المدن- المتروبولات، ويرسلون بالمقابل الثروات المستخرجة من الأراضي الجديدة..."[١٢].

جابت البحار على مدى سنتين عمارة مراكب أرسلها في القرن السابع ق.م الفرعون المصري نخاو حول إفريقيا. وفي القرن الخامس ق.م اجتاز القرطاجي غنون على عدة سفن "أعمدة هرقل"، وإذ أبحر بدقة إلى الجنوب، وصل إلى ساحل إفريقيا الجنوبية، جنوب جزر الرأس الأخضر.

لم يعد البحر يثير في أفئدة الناس الذعر الذي كان يستولي عليهم حينما تبتعد عن أنظارهم الأرض التي يعتبرونها بيتهم الوحيد. ومع ذلك كانت الرحلات البحرية تقترن بمخاطرة كبيرة في ذلك الحين.

"كانت قد طرأت في ذلك الزمن عدة تغيرات على تصميم المراكب الفينيقية. اكتسبت شكلاً أكثر استدارة، وصار هيكلها أعلى مما جعل غاطسها أكبر. ولهذا زادت حمولة السفينة، وتحسنت خصائصها الملاحية، ولا سيما استقرارها. ولعله اخترع أيضاً تثبيت الهيكل بوصلات معترضة، إما بِعصا معترضة وإما بحبل... ثمة إمكانية عندنا للاطلاع أيضاً على المراكب "الترشيشية" من النصف الأول للألف الأول ق.م. على مقدمة هذا المركب، المصممة على نحو شاقولي بصرامة، كان يوضع تحت خط الماء كبش يحطم به في المعركة جانب السفينة المعادية. كانت المؤخرة ملتوية، وكانت ترتفع عالياً فوق السطح وتغطيه جزئياً، ولذا كانت تحميه بشكل يعول عليه من الهجمات الآتية من الخلف. ولحماية الكوى من العدو كان الفينيقيون يثبتون على امتداد الكنف العلوي

دروعاً وقائية. وكان للسفينة صاريان، أحدهما عمودي في منتصف السطح (الصاري الرئيس)، ويحمل شراعاً رباعياً كبيراً، وهو المحرك الرئيس، والآخر شراع المقدمة الذي يتخذ وضعاً مائلاً على المقدمة ويحمل كذلك شراعاً رباعياً يستخدم للمناورة... وثمة صور آشورية تعود إلى القرن السابع لسفن "ترشيشية" بصار واحد وأشرعة مطوية، ويتكون جهاز الدفة من مجذافين طويلين في المؤخرة.

طبيعي أنه لا يمكن دوماً، عند الإبحار، الاتكال على الطقس المناسب والريح المؤاتية، ولذا كانت كل السفن - "الترشيشية" منها والمخصصة للجولات إلى مسافة قريبة مزودة بالمجاذيف، بمحاذاة كل جانب كانت توجد على صفين، كما يظهر من الصور، تسعة أو عشرة مجاذيف يجلس خلف كل منها عدة مجذفين من العاملين المأجورين والعبيد. كانت دقات الطبل الرتيبة تحدد وتيرة العمل، أما سوط المراقب فكان يحث من يعوزه النشاط.

كان غياب منشآت السطح العلوية خاصية مميزة للمراكب الفينيقية في ذلك الزمن. وكانت كل أماكن الطاقم والركاب، وكذلك مستودعات الحمولة والمعدات تقع تحت السطح داخل المراكب. وكانت السفن الفاخرة للتجار الفينيقيين تُحدِث انطباعاً كبيراً في معاصريهم. ونجد وصفاً كهذا لسفنهم في سفر نبي الكتاب المقدس حزقيال: "بسرو من سنير بنوا لك (لصور) طباقك؛ وأخذوا أرز لبنان ليصنعوا سواري عليك. صنعوا مقاذيفك من بلوط باشان، ومقاعدك من عاج مرصَّع في الشربين من جزائر كتيم. البز الموشى من مصر كان ما نشرته شراعا لك، والسمنجوني والأرجوان من جزائر اليشة كانا غطاءك..."(١٣).

وبالتالي، كان يوجد في البحر الأبيض المتوسط منذ الألف الأول ق.م أناس وسفن قادرون على القيام برحلات بحرية بعيدة، أيَّاً كانت هناك ولو إمكانية نظرية بحتة للوصول إلى سواحل العالم الجديد. وكانت العوامل الطبيعية تساعد على هذا. يفصل بين إفريقيا وأمريكا في أوسع جزء ٣٥٠٠ ميل من أرجاء المحيط (من رأس سان روكي في أمريكا إلى الساحل الإفريقي). بيد أن المسافة بين مدينة ناتال في البرازيل وفريتاون في سيراليون (إفريقيا) لا تتجاوز ١٦٠٠ ميل. وفي المنطقة نفسها، أي في الجزء الأوسط من الأطلسي، تهب من الشرق إلى الغرب في أغلب أوقات السنة رياح دائمة (شمالية شرقية)، وفي الاتجاه نفسه تقريباً يندفع تياران محيطيان قويان، وهما تيار كناريا والتيار الثابت الشمالي. ويتراوح متوسط سرعتهما بين ١٥ و٣٠ ميلاً في اليوم. وتساعد على الانتقال من إفريقيا الاستوائية إلى سواحل العالم الجديد ريح جنوبية شرقية مواتية وتيار ثابت جنوبي.

يقول الجغرافي فويتوف: " وهكذا، توجد في المحيط الأطلسي عدة خطوط كان يستطيع أن يتبعها الملاحون القدماء سواء من أوروبا إلى أمريكا، أو من إفريقيا".

هنا تأتي أعقد نقطة، كانت الإمكانية النظرية للرحلات عبر الأطلسي موجودة، ولا شك، ولكن هل نفذت في الممارسة؟ وما الذي كان يعرفه القدماء عن العالم الشاسع والغامض المحيط بهم؟ كانت حدود الرحلات البحرية لأي شعب تعينها، كما جاء في الموسوعة البحرية، معارف زمنه وأساطيره. هذه الحدود كانت تشكلها في العصر اليوناني- الروماني "أعمدة هرقل"، المخرج إلى "بحر الظلمات[1]؛ وفي القرون الوسطى "المرجل

(١) المحيط الأطلسي. المؤلف

الأسود" الذي يستحيل اجتيازه (على خط الاستواء)؛ وفي مستهل عصر النهضة رأس العواصف وخليج مأجلان".

في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ونتيجة لنجاحات علم الآثار الكلاسيكي (الإغريقي - الروماني)، أخذ بعض العلماء يبحثون بإصرار عن منابع الحضارات الأمريكية في ثقافات أوروبا والشرق القديم والبحر الأبيض المتوسط. هكذا ظهرت فرضية تغلغل البحارة المصريين والفينيقيين (القرطاجيين)، ومن ثم الإغريق والرومان في نصف الكرة الغربي القائمة على شهادات معاصريهم حول فن الملاحة عند هذه الشعوب، وكذلك الأخبار الضبابية للمؤلفين القدماء عن الرحلات البحرية البعيدة إلى الغرب، خارج نطاق "أعمدة هرقل".

كان الفينيقيون بحارة مهرة وشجعاناً حقاً، وتشهد على ذلك رحلاتهم حول إفريقيا، وربما إلى الهند (بلاد أوفير) المثبتة في الوثائق التاريخية على نحو يعول عليه. ومما يبعث على دهشة أشد نجاحاتهم في القبض على ناصية مياه الأطلسي الساحلية. في عام ١٧٤٩ عثر في جزيرة كورفو (جزر أسور) على جرة فيها عملة قرطاجية من أعوام ٣٣٠ - ٣٢٠ ق.م، وهي برهان واضح على إقامة البحارة القرطاجيين هناك.

جرى الحديث لأول مرة عن هذا الاكتشاف الفائق الأهمية في عام ١٧٦١ في رسالة للعالم السويدي يوهان يودولين:

"في نوفمبر عام ١٧٤٩، بعد عاصفة استمرت عدة أيام، جرف البحر جزءاً من أساس أحد المباني الحجرية الخربة على ساحل جزيرة كورفو، واكتشف في غضون ذلك وعاء فخاري فيه العديد من العملات. وقد نقلت

مع الوعاء إلى دير، حيث وزعت العملات على سكان الجزيرة الفضوليين المجتمعيين. وأرسل عدد من هذه العملات إلى لشبونة، ثم أرسلت من هناك إلى الأب فلورس في مدريد.

لا نعرف عدد العملات التي اكتشفت في الوعاء وكم أرسل منها إلى لشبونة. وقد أرسل منها إلى مدريد ٩ قطع، وهي:

عملتان ذهبيتان قرطاجيتان رقم ١ و ٢؛

٥ عملات نحاسية قرطاجية رقم ٣ - ٧؛

عملتان قيروانيتان من المعدن نفسه رقم ٨ و ٩.

وقد أهداني الأب فلورس هذه العملات إبَّان زيارتي لمدريد عام ١٧٦١ وقال إن كل اللقية كانت تتكون من عملات لها النوع نفسه الذي للعملات التسع هذه، وإن هذه العملات اختيرت؛ لأنها احتفظت بشكلها على أفضل نحو. وكون هذه العملات من أصل قرطاجي جزئياً، ومن القيروان جزئياً أمر لا شك فيه. وهي ليست نادرة على نحو خاص، باستثناء العملتين الذهبيتين. بيد أن ما يدهش هو المكان الذي عثرت عليه فيه.

من المعروف أن البرتغاليين اكتشفوا جزر أسور لأول مرة زمن ألفونس الخامس، ولا توجد أية مسوغات لافتراض أن احداً دفن هذه العملات في زمن أحدث وبالتالي، لا بد وأن تكون قد وصلت إلى هناك مع مراكب برتغالية إلا أنني لا أستطيع أن أؤكد أن هذه المراكب قدمت إلى هناك عمداً. إذ يمكن أن تقذف بها عاصفة إلى هناك. وكانت قرطاجة وبعض المدن الموريتانية ترسل مراكبها عبر مضيق جبل طارق"[١٤].

ولكن ماذا يمكن القول عن الاكتشاف نفسه؟

لم يبق سوى تقرير أصلي واحد: تحدث العالم السويدي بودولين أنه تسنى له أن يعلم بلقية جزيرة كورفو عندما كان في مدريد عام ١٧٦١ من الأب فلورس، الاختصاصي المعروف في المسكوكات. حتى إنه توجد في رسالة بودولين رسوم للعملات التي تلقاها هدية من فلورس.

يكتب المؤرخ الألماني المعروف ريخارد هنيغ: "لا توجد أية مسوغات للشك في حقيقة لقية العملات في جزيرة كورفو. يعتبر أنريكي فلورس (١٧٠١ - ١٧٧٣) عالماً إسبانيا بارزاً تقدر مؤلفاته عالياً في الموسوعات المعاصرة... بالإضافة إلى أنه لا توجد أي شكوك في صحة العملات نفسها"(١٥).

ومع ذلك، وجد على أي حال مشكّكون ينفون صحة اللقية في جزيرة كورفو. بيد أن هذه الشكوك تبددت بعد التقرير المؤهل للبروفسور بيرنخاردت، الاختصاصي المعروف في المسكوكات من ميونخ.

وهو يعتبر أن "الشك الذي أعرب عنه البعض والذي يوحي بأن الأب فلورس قد خدع في حينه، وبالتالي لم تجلب العملات من جزر أسور، لا أساس له بالمرة؛ إذ إن هذه اللقية صحيحة ولا شك، أي إن العملات جلبها قرطاجيون، ويمكن البرهان على ذلك بأنه في ذلك الزمن (نحو عام ١٧٦٠) لم يكن في وسع حتى محتال أن ينتقي بشكل صحيح سلسلة رائعة على هذا النحو من العملات العائدة إلى فترة محدودة كهذه (أعوام ٣٣٠ - ٣٢٠ ق.م). لم يكن الاختصاصيون في تلك الفترة قد درسوا العملات القرطاجية والقيروانية إلا على نحو ضعيف للغاية، ولم يكن علم

المسكوكات قد وصل بعد إلى درجة من التطور تمكنه من وضع سلسلة من العملات التي تعود إلى فترة محدودة كهذه والتي عثر عليها في إفريقيا الشمالية أو إسبانيا. ولو أراد أحد أن يمارس الاحتيال في ذلك الحين لجمع في أفضل الأحوال كل ما يمكن من العملات من مختلف العصور؛ لأن أحداً لم يكن ليلاحظ الخداع حينذاك"(١٦).

وهكذا، برهن على صحة اللقية في جزيرة كورفو، وبالتالي يمكن استنتاج أن القرطاجيين وصلوا إلى جزر أسور في أواخر القرن الرابع ق.م.

وتستثنى كذلك الفرضية القائلة بأن وعاء العملات وصل إلى جزيرة مورفو مع حطام سفينة مدمرة غادرها طاقمها. ينطلق التيار البحري من جزر أسور مباشرة إلى المياه قرب مضيق جبل طارق الذي كان يبحر عبره القرطاجيون بانتظام. وبالتالي، فإن انسياق حطام السفينة الغريقة ضد التيار أمر غير وارد. ولا يبقى إلا افتراض أن السفينة وصلت إلى الجزيرة مع طاقمها.

يمكن للسفينة القرطاجية أن تبحر من الشاطئ الإسباني إلى المحيط. وثمة حالات مماثلة كثيرة معروفة جيداً، فقد لوحظ، مثلاً، في منطقة الرياح الثابتة والتيارات الاستوائية انسياق السفن إلى مسافات بعيدة جداً. ففي عام ١٧٣١، على سبيل المثال، انجرت إلى سواحل جزيرة ترينيداد سفينة صغيرة بطاقم من ٦ أشخاص تنقل حمولة نبيذ من جزيرة تنريف إلى جزيرة هوميروس المجاورة. في نحو عام ١٧٦٠ قذفت عاصفة إلى عرض المحيط بصندل يحمل الحبوب متوجه من جزيرة لانساروتا في كناريا إلى تنريف، ولم تنقذها سفينة إنكليزية إلا على بعد مسيرة يومين من سواحل فنزويلا. ولذا

يمكن اعتبار أن من المحتمل تماماً الافتراض القائل بأن عاصفة قذفت القرطاجيين إلى جزيرة كورفو[١٧].

ولكن يبدو أن هذا كان الحد الأقصى الذي استطاعوا أن يصلوا إليه في الغرب. يكتب ريخارد هنيغ: "وإذا كان مع ذلك يعرب غالباً عن رأي مفاده بأن الفينيقيين أو القرطاجيين أو غيرهم من الشعوب التي كانت تمارس الملاحة قد وصلوا إلى أمريكا، فينبغي اعتبار هذا ثمرة لخيال صرف، بيد أنه لا يجوز أن ننفي من حيث المبدأ إمكانية أن يستطيع قديماً بعض سكان البحر الأبيض المتوسط الوصول مصادفة، بغير إرادتهم، إلى أمريكا وممارسة تأثير ثقافي في العالم الجديد. ولكن يمكن التأكيد بالتحديد نفسه أنه لا توجد إلى الوقت الحاضر أية مصادر أدبية أو معطيات آثارية تدعم هذا الافتراض الجريء"[١٨].

ومع ذلك بذلت مراراً محاولات لتقديم "براهين مادية" على الصلات المبكرة بين العالمين القديم والجديد. وأعني اللقيات العديدة من الأشياء "الفينيقية" في القارة الأمريكية. ينوه هنيغ، قائلاً: " إلا أنه بعد الفحص الدقيق تبين أن كل هذه الأقوال متهافتة تماماً. والتزويرات الناجحة إلى هذه الدرجة أو تلك لمثل هذه "البراهين" حظيت، للأسف، برواج كبير في الولايات المتحدة، البلد الكلاسيكي للخداع والإثارة"[١٩].

وهكذا، مثلاً، اكتشف في عام ١٨٦٩ على ضفة نهر أونونداغي (ولاية نيويورك) في الأرض تمثال حجري ضخم عليه نقوش فينيقية بحالة رديئة. وأثار ضجة حقيقية أيضاً العثور على لوح برموز كتابية فينيقية في ولاية بارايبا (البرازيل) عام ١٨٧٤. وقد فضح الاختصاصيون تماماً حينذاك حقيقة اللقيتين كلتيهما.

ولكن بعد سنة ظهر خبر باكتشاف نقش جديد في منطقة بارايبا تعهد بصحته الدكتور فلاديسلاف نتو، مدير المتحف الوطني في ريودي جانيرو. وقال نتو: إن نص النقش يتحدث عن أن عدة أشخاص نجوا زمن هلاك قرطاجة في عام ١٤٦ ق.م اجتازوا المحيط، وبعد ٩ - ١٠ سنوات، عقب موت رفاقهم وقائدهم، أصبحوا في وضع لا مخرج منه؛ بسبب "الحر الذي لا يطاق".

وبعد عدة سنوات وقعت صورة لهذا النقش في يد أحد أفضل عارفي الكتابة الفينيقية، وهو البروفسور لتمان (تيوبينغن، ألمانيا). وكم كانت دهشته كبيرة حينما حدد بسهولة أن أمامه شكلاً جديداً، معدلاً على نحو طفيف، للقية الأولى من بارايبا التي فضح زيفها منذ زمن بعيد. فهل ثمة من مبرر للحديث عن أن الأمثلة التي أوردناها من شأنها فقط أن تزيد الشك المشروع في مثل هذه "الاكتشافات" و "اللقيات". استمرت قصة "حجر بارايبا" الطويلة بإفراط إلى أيامنا. في ٢٩ ديسمبر عام ١٩٦٨ أطْلَعت جريدة "كومسومولسكايا برافدا" قراءها في مقالة بعنوان "لا كولومبس، ولا أريك الأحمر"، على شكل جديد لنقش بارايبا الذي اكتشفت نسخة له في أوراق قديمة للصحافي الأمريكي الراحل أولبيرفورم ايمس. ومن عجيب القدر تلقى هذا الخبر المثير المنسيّ تماماً حياة جديدة في الولايات المتحدة بالذات. وقد بعثه من العدم المدعو سايروس غوردن، البروفسور الفيلولوجي من جامعة برانديس. إنه وقد قرأ الكتابة الفينيقية في مفكرة ايمس، أكد صحتها، وأعطى الترجمة التالية للنص: "نحن أبناء كنعان من صيدون، مدينة الملك. أودَت بنا الأمور التجارية إلى هذا الشاطئ البعيد، إلى حافة الجبال. في السنة التاسعة عشرة من (حكم) حيرام، ملكنا الجبار، قدمنا

شاباً قرباناً للآلهة والآلهات. أقلعنا من إيزيون غيبر إلى البحر الأحمر وتوجهنا برحلة على ١٠ سفن. تنقلنا سوية في البحر حول أرض حام (إفريقيا)، ولكن فرقتنا يد العاصفة، ولم يعد رفاقنا معنا. وهكذا وصلنا إلى هنا، ١٢ رجلاً وثلاث نساء، إلى ... الشاطئ الذي خضع لي، أنا الأميرال. فلتباركنا الآلهة والآلهات العظام!" ولكن تاريخ النقش كان مغايراً هنا. ويعزوه غوردن إلى القرن السادس ق.م[٢٠].

بيد أن أغلب الاختصاصيين الفيلولوجيين لم يوافقوا على حجج غوردن؛ فقد بين البروفسور فرنك كرس من جامعة هارفارد بشكل مقنع على أسس لغوية بحتة الطابع المزيف لهذا الشكل الجديد من نقش بارايبا. فهذا، حسب قوله، "خليط" من الأحرف التي وجدت في فترات شتى من تاريخ فينيقيا. ولهذا لا مجال أبداً لأن تجتمع في إطار نص واحد.

ولكي تبدو موضوعة المستوطنات الفينيقية في أمريكا أكثر اقناعاً، يستشهد غوردن بنقاط التشابه الجلية بين ثقافتي الشرق الأوسط والعالم الجديد في عصر ما قبل كولومبس: "كان الأتستيكيون يعرفون الرياضيات، ويحسنون حساب حركة الشمس والأرض والزهرة. وكان عندهم كذلك تقويم من ٣٦٠ يوماً، وخمسة أيام إضافية، كما عند المصريين... ويصعب تفسير منشأ هذه العمارة (الأهرام على مقربة من مكسيكو ومن القاهرة) والعلم. إذ لا توجد أية سمات لارتقاء طبيعي من الدرجة الثقافية السابقة"[٢١].

وهبت لمساعدته الملاحظات و"الوقائع" التي جمعها قبل ذلك الأنصار الآخرون لرحلات الفينيقيين المنتظمة إلى أمريكا. فقد اكتشف تشارلز بولاند في مستوطنة مهجورة في نيوهيمبشير (الولايات المتحدة)

مباني حجرية، وحجارة للقرابين، وآثارا لمعالجة الحديد تعود، على حد زعمه، إلى المستوطنين القرطاجيين في الفترة من القرن الخامس إلى القرن الثاني ق.م. ثمة، كما يقول، آثار كهذه للاستيطان الفينيقي في ولاية بنسلفانيا (وادي نهر سوسكيهن، تشيسابيك).

ما الذي حمل "قاهري البحر" الشجعان هؤلاء على ترك وطنهم الحبيب إلى قلوبهم، والهرب عبر المحيط إلى السواحل المتجهمة لأمريكا الشمالية؟ في رأي بولاند تفسير واحد، وهو السعي إلى ممارسة دينهم المتعصب والوحشي بحرية. بعد جملة من الهزائم التي ألحقتها الجيوش اليونانية والرومانية بقرطاجة، بدأ في المدينة التضييق على أنصار هذا الدين الكالح الذي يتطلب قرابين بشرية دائمة. وقرر أكثر ممثلي الدين القديم غيرةً الهرب إلى العالم الجديد؛ لكي يتمكنوا من أداء طقوس الأسلاف الدامية.

وفي عام ١٤٦ ق.م، حينما حطمت الفيالق الرومانية المظفرة قرطاجة نهائياً، فر بقية سكانها في المراكب التي بقيت سالمة إلى الغرب عبر الأطلسي، بحثاً عن "أرض الميعاد". وطبيعي أن يعثر على آثارهم في الولايات المتحدة، لا غيرها: بضع مئات من الحجارة ذات النقوش "البونيكية" التي اتضح من النظرة الأولى أنها مزورة، وقطع حديد لا شكل لها مجهولة العمر والمنشأ إلخ، وهذا كل ما يشكل إلى الآن ذخيرة براهين أكثر أنصار "الفرضية الفينيقية" غيرة[٢٢].

حسب أقوال الصحف المحلية، عثر في وادي نهر ساكسويهانا (الولايات المتحدة) في عام ١٩٤٠ على جملة من النقوش الفينيقية التي تشهد على نشاط مكثف للمعدنين الفينيقيين في منطقة مدينة بلتيمور

المعاصرة، وقد عثر المدعو وولتر سترنغ هناك على ٤٠٠ حجر لا أكثر ولا أقل عليها رموز كتابية كنعانية، وتوصل على هذا الأساس إلى استنتاج يزعم أن الفينيقيين صاروا يبحرون إلى أمريكا الشمالية ابتداء من عام ٣٧١ ق.م[٢٣]. ومع أنه لم يجر بعد تحليل علمي مفصل لأحجار بلتيمور، يمكن القول بكل تحديد أن هذا الخبر لا يبعث إلا على القليل من الثقة شأنَ الكثير من الأخبار السابقة.

ومهما كان الأمر، فإن أياً من الحقائق لم يزعزع إلى الآن صحة استنتاج المؤرخ الألماني المعروف كروناو الذي أسمى كل اللقيات الفينيفية-القرطاجية في العالم الجديد "تزويراً وقحاً"[٢٤].

يكتب العالم شيفمان: "تظهر من حين إلى آخر في الصحف والمطبوعات العلمية المبسطة أخبار تقول بأنه عثر في أمريكا على نقوش فينيقية، ويهرع الصحافيون سريعو التصديق إلى إدهاش العالم بالأخبار المثيرة: اتضح أن الفينيقيين، والقرطاجيين منهم على الأرجح، كانوا أول من زار أمريكا. نحن مضطرون إلى إثارة خيبة أمل القراء: عند النظر إلى هذه النقوش عن كثب يتضح أنها تزوير ساذج جداً. لا يجوز أن يعزى إلى الفينيقيين شيء لم يفعلوه. لقد أدوا قسطاً كبيراً في القبض على ناصية الطرق البحرية في العالم القديم. وهذا يكفي تماماً"[٢٥].

يستحق الأمر أن نستمع أيضاً إلى تقديرات اختصاصي- مؤرخ كبير آخر، وهو العالم الألماني ريخارد هنيغ. يكتب في مؤلفه الضخم عن تاريخ الجغرافية العالمية: "يمكن القول بثقة أن الفينيقيين كانوا بعيدين عن اجتراح كل تلك المآثر الملاحية المهمة التي كنا نعزوها إليهم سابقاً، وغالباً ما تعزى

إليهم الآن أيضاً. وكان هذا لتفسير بعض الحقائق البارزة من تاريخ التجارة، ولا سيما ظهور الكهرمان في البحر الأبيض المتوسط قبل هوميروس بوقت طويل. ونحن نعرف الآن أن رحلات الفينيقيين التجارية البحرية المنتظمة، التي كانت تفترض سابقاً، إلى بحري الشمال والبلطيق، أي إلى بلدان القصدير والكهرمان، وإلى النروج والهند إلخ، يجب أن ينظر إليها كخيال محض. يبدو أن الفينيقيين لم يقوموا غالباً بالرحلات البحرية والتجارة إلا في المياه التي درسها قبلهم الكريتيون والمصريون، وربما الكاريون...

يمكن في الوقت الحاضر التأكيد بكل ثقة أن الفينيقيين لم يوغلوا في المحيط الأطلسي بعيداً عن جبل طارق... ويبدو أن زيارة جزر كناريا الشرقية والوسطى، ومجموعة جزر ماديرا هي الاكتشاف الجغرافي الوحيد الذي يمكن أن نعزوه إلى الفينيقيين بثقة..."[٢٦].

هوامش الفصل الثالث

١- رومانوفسكي، فرنسيس- بيوسر، بركار وآخرون. البحر. موسكو. دار الأدب الأجنبي، ١٩٦٠، ص ١٢- ١٤.
٢- المصدر السابق، ص ٤٠.
٣- المصدر السابق، ص ٢٤.
4- D.Harden. The Phoenicians. New York, Praeger, 1962, p. 19.
5- D. Harden. The Phoenicians…, p. 19.
6- D.Harden. The Phoenicians…., p. 19
٧- شيفمان. الملاحون الفينيقيون. موسكو. دار "ناؤوكا"، ١٩٦٥، ص ٣ - ٤.
٨- المصدر السابق، ص ١٨ - ١٩.
٩- رومانوفسكي. فرنسيس- بيوسر، بركار وآخرون. البحر...، ص ١٢ .
١٠- شيفمان. الملاحون ...، ص ١٧.
١١- المصدر السابق، ص ٣٤.
١٢- رومانوفسكي ... وآخرون. البحر، ص ٢٤.
١٣- شيفمان. الملاحون ...، ص ٤٣ ـ ٤٤.
١٤- هنيغ. أراض مجهولة. موسكو، دار الأدب الأجنبي، المجلد ١، ١٩٦١، ص ١٥٩- ١٦٠.
١٥- المصدر السابق، ص ١٦٤.
١٦- المصدر السابق، ص ١٦٥.
١٧- المصدر السابق، ص ١٦٦.
١٨- المصدر السابق، ص ١٧٣.
١٩- المصدر السابق
٢٠- كومسومولسكايا برافدا، ٢٩ كانون الأول عام ١٩٦٨، ص ٤؛ C.H.Gordon. Before Columbus. New York, 1971, p. 122 – 124.

٢١- كومسومولسكايا برافدا، ٢٩ كانون الأول عام ١٩٦٨، ص ٤.

22- Ch. Boland. Tey All Discovered America. New York, 1961.

٢٣- هنيغ. أراض مجهولة...، المجلد ١، ص ٤٦٤.

24- R.Cronau. America. Leipzig, 1892, Bd. 1, s . 102.

٢٥- شيفمان. الملاحون...، ص ٦٧ ـ ٦٨.

٢٦- هنيغ. أراض مجهولة ...، المجلد ١، ص ٦٤ ـ ٦٦.

الفصل الرابع

الإغريق والرومان خارج نطاق (أعمدة هرقل)

«... والعاصفة المزمجرة كزوبعة
تمزق الأشرعة بضراوة وترتفع الأمواج
إلى النجوم
تحطمت المجاذيف، انقلب المركب،
معرضاً جنبه
للأمواج ؛ ويندفع على الأثر جبل مائي
شديد الانحدار».

فرجيل، القرن الأول ق . م

طالع الهلينيين

كانت الدولة البحرية الفينيقية لا تزال في أوج مجدها، حينما ظهرت على السواحل الصخرية لشبه جزيرة البلقان نجمة صاعدة جديدة، وهي المدن-البولسات[1] اليونانية. يكتب المؤرخ الألماني هيلموت خانكي: "حددت خصائص موقع اليونان الجغرافي حاجتها الاجتماعية إلى السفن البحرية.

(١) جمع بولس (POLIS)، وهي كلمة يونانية معناها المدينة - الدولة. المترجم

لا تبعد أية مدينة في اليونان أكثر من ٩٠ كم عن البحر. وغالبية المستوطنات على مسافة أقرب إلى الشاطئ، وينبغي أن يضاف إلى هذا العديد من الجزر الصغيرة والجزيرات التي لو لم تكن عندها وسائل اتصال عبر البحر لما كان يمكن استيطانها أو تزويدها بالمؤونة... وعلاوة على ذلك كان التزود المنتظم بالبضائع يتطلب العديد من المستوطنات والمستعمرات الواقعة بعيداً عن المتروبول".

وكان لا بد للإغريق من أسطول كبير وقوي ليجمعوا في كل واحد ممتلكاتهم العديدة في البر والبحر. وقد أنشؤوا هذا الأسطول. وإن "التريريمات" اليونانية (سفن شراعية- تجذيفية بثلاثة صفوف من المجاذيف) حطمت تماماً في معركة سلامينا (عام ٤٨٠ ق.م) عمارة كبرى للملك الفارسي كسيركس مكونة إلى درجة كبيرة من مراكب فينيقية.

ينوه خانكي: "لم يتفوق الإغريق على الفينيقيين في ميدان بناء السفن فحسب، بل ونافسوهم في استيطان البحر الأبيض المتوسط، ومنطقة البحر الأسود. وأسسوا مدناً- مستوطنات مثل تارنتو وسرقوسة ومرسيليا وطرابزون وخيرسونيزية التوريكية والكثير غيرها"(١).

وأدَّى المفكرون والعلماء والبحارة الإغريق قسطاً في تطوير علم العالم المحيط، أي الجغرافية. واتسعت كثيراً وعلى الفور حدود العالم المأهول. وعقل الحكماء الإغريق المحب للاستطلاع، الذي وزن بدقة كل النتف المتوفرة من المعلومات الصحيحة عن الأراضي البعيدة والمبهمة، أوغل في الغرب إلى ما وراء "أعمدة هرقل"، وفي الشمال حتى المناطق المتاخمة للقطب في النروج المعاصرة، وفي الشرق حتى أكثر المناطق الغامضة في آسيا (الهند، التاي إلخ.)، وفي الجنوب حتى مصب نهر السنغال في إفريقيا الغربية.

وحينذاك ظهرت في الأدب الإغريقي أولى الأقوال عن الجزر الأسطورية الضائعة في مياه المحيط الزرقاء.

كان هسيودس، الذي عاش في القرن الثامن ق.م، أول من أطلق على هذه الجزر اسم "جزر الصالحين". وإذ يتحدث عن "العرق الإلهي من الناس الأبطال"، الذين عاشوا قبلنا في الأرض، يقول: إن عدداً منهم قتل في خلال المعارك، مثل حصار طروادة، ولكن الآخرين "منحهم زفس على حافة الأرض مكانا للحياة، بعيداً عن الناس والآلهة الخالدين. في "جزر الصالحين" هذه، المحاطة بدوامات ماء المحيط الجياشة، يعيشون بلا هم أو حزن. وتمنحهم الأرض الخصبة ثلاث مرات في السنة محصولاً من الثمار الحلوة كالعسل"[٢].

هذه الجزر، التي تسمى أيضاً "جزر السعداء" و"هيسبيريرات و"حقول أليزه"، تذكر في العصر الإغريقي - الروماني والقرون الوسطى في كل المؤلفات الجغرافية تقريباً.

نهل الإغريق من البحارة الفينيقيين الكثير من المعلومات عن الأراضي الواقعة غربي جبل طارق. في القرن الرابع ق.م كتب مؤلف يوناني مجهول، كان يعرف باسم أرسطو المزيف، في مؤلفه "الشائعات العجيبة" ما يلي: "زعموا أن القرطاجيين اكتشفوا في المحيط على الجانب الآخر من أعمدة هرقل جزيرة غير مأهولة، غنية بالغابات والأنهار الصالحة للملاحة، وتكثر فيها الثمار. وهي تبعد **مسيرة عدة أيام عن اليابسة**[١]. ولكن عندما أخذ القرطاجيون يزورونها كثيراً، وسكنها بعضهم نظراً لخصوبة التربة، منع

---

(١) إشارة التشديد من المؤلف.

حكام قرطاجة الذهاب إلى هناك تحت طائلة الموت". وقد فعلوا هذا لمنع تسرب السكان من قرطاجة ولإبقاء اكتشاف الأراضي الجديدة طي الكتمان.

ما هي هذه القطعة من اليابسة؟ لعلها أمريكا؟ في هذا الخصوص يقول ديودورس الصقلي - المؤرخ الذي عاش في القرن الأول ق.م - عن هذا بكل تحديد: "في وسط المحيط تقع جزيرة تتسم باتساعها. **وهي لا تبعد عن إفريقيا سوى مسيرة عدة أيام**[1] ... والفينيقيون، الذين كانوا للأسباب التي ذكرناها يتفقدون الساحل على ذلك الجانب من الأعمدة، ويتنقلون على مراكبهم الشراعية بمحاذاة ساحل إفريقيا، قذفت بهم رياح قوية بعيداً في المحيط. بعد أيام كثيرة من التجوال وصلوا، أخيراً، إلى الجزيرة المذكورة"[2].

وهكذا، يجري الحديث في الحالتين عن أراض تقع على مقربة مباشرة من الشواطئ الإفريقية. أية أراض هذه؟ ماديرا؟ مجموعة جزر كناريا؟ أسور؟ في هذه الحالة ليس هذا بالأمر الرئيس بالنسبة إلينا. يهمنا أمر آخر، وهو أن هذه الجزر، التي لا تبعد سوى "مسيرة عدة أيام" عن إفريقيا، لا يجوز بحال من الأحوال ربطها بأية أراض على ذلك الجانب من الأطلسي سواء أكانت أرخبيلات أنتيل بهاما أم برمودا.

ولكن بعض الباحثين المعاصرين، إذ يستندون إلى أن جزر المحيط، التي عثر عليها الفينيقيون، وكان الإغريق على علم بها، كانت فيها "جبال" و"أنهار صالحة للملاحة"، يحاولون أن يبرهنوا على أن الحديث يجري على الأقل عن جزر كبرى في وست انديا، مثل كوبا وهايتي وجامايكا وغيرها.

---

(١) إشارة التشديد من المؤلف.

ولكن ثمة كل المسوغات لكي نعتبر أن الحديث لا يجري في هذه الحالة إلا عن ماديرا. ينوه هنيغ: "الغابات والخصب والأنهار، هذا الوصف كله ينطبق الآن تماماً، كما كان ينطبق قديماً، على جزيرة ماديرا التي اكتشفها الإيطاليون في القرن الرابع عشر، ومن ثم البرتغاليون في عام ١٤١٩، وعليها وحدها"(٤).

ونحن نعرف كذلك أن الإغريق أنفسهم كانوا يقومون أحياناً برحلات بعيدة في المحيط. في القرن السابع ق.م اجتاز كوليوس الساموسي مضيق جبل طارق، ووصل إلى مدينة تارتس الغنية على ساحل إسبانيا الغربي. وتفقد إيفتيمن المسيلي الساحل الأطلسي لشمال إفريقيا.

ووصل اليوناني بيثياس في القرن الرابع ق.م إلى سواحل سكاندينافيا في بحر الشمال، وسمع أقاصيص عن "أولتميا ثولي" (ULTIMA THULE) الغامضة، الأرض البعيدة، الخفية الواقعة في مكان ما من المحيط.

كانت الحضارة الهلينية طبعاً، حضارة للبحر الأبيض المتوسط بالدرجة الأولى. ومع ذلك فقد توغل الإغريق في المحيط الأطلسي في وقت مبكر. وأول من قام برحلة من هذا النوع، إذا انطلقنا من قول هيرودوت، هو الساموسي (نحو عام ٦٤٠ ق.م)، حينما قذفت عاصفة بمركبه إلى المحيط، فوصل على نحو مفاجئ له إلى مدينة تارتس الواقعة على الساحل الأطلسي لإسبانيا عند مصب نهر غواد الكفيفر (بيتسي قديماً).

"بيد أن الإغريق لم يقتصروا على التجوال في عتبة المحيط، بل تغلغلوا بجرأة في أرجائه، وقاموا برحلات سواء إلى الشمال، بمحاذاة الساحل الأطلسي لأوروبا، أو إلى الجنوب، بمحاذاة شواطئ إفريقيا"(٥).

في القرن الرابع ق.م اجتاز الخط الأول، أي إلى الشمال أبعد من الجميع بيثياس من مسيليا (مرسيليا) الذي زار "بلاد القصدير والكهرمان"، ووصل إلى "الحدود المرئية للأرض" قرب جزيرة ثولي. وعن هذا يقول المؤرخ القديم ديودورس الصقلي: "سكان بريطانيا، الذين يعيشون قرب رأس بيليريون (لندس أند حالياً - المؤلف) مضيافون جداً، وجعلتهم ممارسة التجارة مع التجار الأجانب أكثر حضارة. وهم يستخرجون القصدير من الفلز بمهارة، ويصنعون من القصدير سبائك على شكل مكعبات يرسلونها إلى جزيرة أيكتيس المجاورة (سان مايكلس مأونت، كورنويل)... وهناك يشتري التجار القصدير من السكان ويرسلونه إلى غاليا..."[٦].

بيد أن بيثياس لم يقنع بما تحقق. بعد أن دار حول إنكلترا، توجه إلى شواطئ اسكاندينافيا. "ثولي هي أبعد أرض من بين كل الأراضي المعروفة، وهناك زمن انقلاب الشمس، حيث تجتاز الشمس برج السرطان... لا يوجد ليل، ولكن ضوء النهار قليل جداً زمن الشتاء. يعتقد البعض أن هذا يستمر بلا توقف ٦ اشهر على التوالي... ويذكر البعض (شمالي بريطانيا-، المؤلف) جزراً أخرى: سكانديا ودومنا وبيرغي وأكبر الجزر بريكي التي ينطلقون منها إلى ثولي عادة. وعلى بعد يوم واحد من السفر بحراً عن ثولي يقع كما يزعمون بحر متجمد يسميه البعض كرونس"[٧].

يعتبر ريخارد هنيغ أن ضياع النص الأصلي للخبر الذي أورده بيثياس المسيلي عن رحلته إلى بلاد القصدير، بريطانيا، وإلى بلاد الكهرمان على سواحل خليج هيلغولاند وإلى جزيرة ثولي الشهيرة يمكن أن يعتبر أفدح خسارة مُنِيَت بها المراجع الجغرافية القديمة[٨].

وبالفعل، كانت رحلة بيثياس ظاهرة استثنائية إلى درجة أن المؤلفين الإغريق الأحدث عهداً امتنعوا عن تصديقها، وبقوا على امتداد قرون عديدة يتهمون بلا أساس العالم القديم العظيم بالكذب.

في الوقت الحاضر يمكن القول إنه رد اعتبار بيثياس تماماً. فقد كان، ولا شك، عالماً بأسمى ما في الكلمة من معنى، ولا يسعنا إلا أن نأسف لأن معلوماتنا عن حياة وأبحاث هذا الإنسان العظيم زهيدة إلى هذا الحد. كان بيثياس على امتداد الحقبة القديمة بأسرها الساكن الوحيد في البحر الأبيض المتوسط الذي تغلغل بعيداً وراء خط العرض ٦٠ شمالاً[٩].

ونستطيع أن نخمن فقط أنه قام برحلة العصر هذه بأموال تجار مدينته الأغنياء وبتكليف منهم، فقد كانوا متعطشين إلى تلقي معلومات موثوق بها عن الأراضي الشمالية البعيدة الغنية بالقصدير والكهرمان. وكان بيثياس أول من حدد أن بريطانيا جزيرة يمكن الالتفاف حولها في غضون ٤٠ يوماً. وجال اليوناني المقدام قرابة أسبوع في عرض بحر الشمال؛ بحثاً عن أرض ثولي الغامضة. وقد برهن نانسن على نحو مقنع أن ثولي هي النروج في منطقة تروندهيم - فيورد، إذ كانت اسكاندنافيا تعتبر جزيرة حتى القرن الحادي عشر، وحتى بعد ذلك. بيد أنه لا توجد في النصوص الاغريقية أية كلمة عن أية رحلات إلى سواحل العالم الجديد. ومن المناسب في هذا الصدد إيراد كلمات أكبر اختصاصي في ميدان الاتصالات البحرية بين أمريكا والعالم القديم، وهو صموئيل أليوت موريسن (الولايات المتحدة): "لا تؤكد أية أنباء الادعاءات القائلة بأن القدماء كانوا على اتصال بأمريكا".

وبالفعل فإن المخطوطات الإغريقية الباقية إلى أيامنا لا تعطي أية مسوغات لاعتبار أن الفينيقيين والإغريق استطاعوا ولو مرة واحدة الوصول إلى سواحل العالم الجديد والرجوع بسلام.

ولكن معارفنا عن الثقافة الإغريقية مجرد جزء زهيد مما كان يوجد في حينه، والكثير من المنجزات البارزة للفلاسفة والرحالة والعلماء القدماء فُقِد نهائياً على امتداد القرون اللاحقة، والمخطوطات التي لا تقدر بثمن، جعبة المعارف، حرقها المتعصبون الدينيون بلا رحمة ومرغتها في الوحل حوافر جياد الخيالة البرابرة، وأَفْنَتْها الفيضانات والحرائق، وأَبْلَتْها الشيخوخة. من يعرف، ربما وجدت كذلك معلومات عن رحلات بحرية بعيدة إلى الجزء الغربي من الأطلسي؟

يبرز أمام العلماء الكثير من الألغاز والمعضلات المعقدة والمتشابكة، حينما يتوجهون بأنظارهم إلى الماضي، ومع ذلك لا يستطيع العلم أن يبني آراءه على تخمينات لا أساس لها. لا بد لبناء أية فرضية علمية من وقائع راسخة، مقنعة، ولكن هل نملك وقائع كهذه حينما يجري الحديث عن رحلات البحارة القدماء إلى أمريكا؟ يجيب المؤلفون السطحيون المعاصرون بلا أي تردد: "نعم، ثمة شهادات كهذه، وهي كثيرة جداً، ولكنها لأمر ما تغيب عن أنظار العلماء المحترفين؟" وفي غضون ذلك يكفي أن ننظر بمزيد من الإمعان إلى كل هذه "الوقائع" لكي... يبرز أمامنا ماضي العالمين القديم والجديد في ضوء جديد! لن نتصرف على غرار الحفظة المتحجرين للمسلَّمات الأكاديمية، وسنوافق على النظر في حجج السطحيين.

وهكذا، فإن المدعوة هنرييتا مرتس قدمت إلى المؤتمر الدولي السادس والثلاثين للاختصاصيين في الشؤون الأمريكية الذي عقد عام ١٩٦٦ في

مدينة إشبيلية (إسبانيا) تقريرها تحت هذا العنوان المثير للفضول "أوديس في أمريكا". وهي إذ تستشهد بما ورد في قصيدة هوميروس الخالدة حول "النهر الذي يدور في المحيط" خلف "أعمدة هرقل"، تؤكد أن الحديث يجري عن تيار غولف ستريم، وعن أن أوديس، بطل حرب طروادة الشهير، وصل عبر شمال الأطلسي إلى العالم الجديد[10]. هل ثمة من مبرر للحديث عن أنه لا يمكن لأي عالم جدي أن يتقبل هذه الرواية؛ بسبب الانعدام الكامل لأية براهين.

ويبدي كاتب سطحي آخر، وهو غوردن من الولايات المتحدة، ميلاً كبيراً إلى الاعتماد على الحكايات القديمة في استنتاجاته التاريخية، ومنطقه بسيط- يقول: إن عند الأتستيكيين أسطورة مفادها أن كل خبرات نمط الحياة المتحضر قد جلبها إلى العالم الجديد شخص ملتحٍ وأبيض اسمه كيتسالكواتل - أي "الثعبان ذو الريش". قدم إلى الأتستيكيين من الشرق عن طريق البحر على قارب، ثم عاد أدراجه، واعداً بأن يرجع في وقت ما، وثمة حكاية كهذه عند المايا، هناك يسمى الإنسان الملتحي، والحق يقال، كوكولكان، ولكن هذا يعني عند المايا أيضاً "الثعبان ذا الريش".

ويؤكد غوردن: "كل روايات هذه الأسطورة تتحدث عن أناس ملتحين بيض اجتازوا الأطلسي وأدوا قسطاً أساسياً في نقل الثقافة الرفيعة من البحر الأبيض المتوسط وأوروبا إلى ميزوأمريكا..."[11].

ويعقب هذا انعطاف خيالي عموماً. يتضح أن في أكروبول أثينا الشهير مجموعة منحوتات على شكل أفاعٍ ذات ريش لها رؤوس أناس ملتحين. وهذا، حسب فكرة غوردن، برهان قاطع في مصلحة سفر الإغريق إلى ما

وراء المحيط، إلى أمريكا، مما وجد انعكاسه سواء في ظهور أسطورة كيتسالكواتل، "الثعبان ذي الريش"، أو في ظهور الحضارات الهندية الرفيعة، ولكن هذا لم يجر في الأزمنة القديمة إبان ازدهار أثينا، بل بعد ذلك بوقت طويل، على تخوم القرن الأول بعد الميلاد تقريباً. وبالنسبة إلى الإله الأبيض كيتسالكواتل، كما أشير سابقاً، ليس كل شيء واضحاً ومفهوماً.

ثمة محاولات أكثر جدية للبرهان على رحلات السفن اليونانية من البحر الأبيض المتوسط إلى أمريكا عبر المحيط الأطلسي. وبعضها يرتبط بما يسمى "معضلة بحر السرجس"(١). وفحوى الأمر أنه غالباً ما كانت تستلخص على أساس بعض شهادات المؤلفين الإغريق حول الكميات الكبيرة للأعشاب المائية على الجانب الآخر من "أعمدة هرقل" (أرسطو المزيف وغيره) استنتاجات مفادها أن الإغريق والفينيقيين كان يعلمون بوجود بحر السرجس، ولكن يمكن الآن التأكيد بكل ثقة أن هذا الاستنتاج خاطئ ومغلوط. إذ تصادف كميات كبيرة من الأعشاب المائية كذلك في المياه الأوروبية، الأمر الذي اقتنع به غاملكون، مثلاً، إبان رحلته إلى "بلاد القصدير" أي إنكلترا.

يذكر أرسطو وتيمايوس بحراً كهذا فيه أعشاب مائية يبعد عن قادش (إسبانيا) مسافة لا تتجاوز مسيرة ٤ أيام. ومن المستبعد تماماً أنه يقصد في هذه الحالة بحر السرجس. ومن الواضح أن التجمعات الكبيرة

---

(١) بحر السرجس (Sargasso Sea) جزء من المحيط الأطلسي يقع على خطوط العرض شبه الاستوائية بين تيارات كناكريا وبسات الشمالي وغولف ستريم. وقد أطلق عليه هذا الاسم؛ بسبب طحالب السرجس (Sargasso) الضخمة العائمة على سطحه. المترجم

للأعشاب المائية قرب شواطئ أوروبا وإفريقيا كانت منذ ٢٠٠٠ سنة تصادف أكثر من الآن.

كانت هذه التجمعات، حسب قول سكيلاك المزيف، تصادف خلف كيرنا، أي عند سواحل المغرب. وكان القرطاجيون وسكان قادش يزورون برغبة مناطق تجمع النباتات المائية، حيث كان يكثر سمك التن الذي كان يحظى بتقدير رفيع. ويعتبر هنيغ أنه "إذ أخذت كل هذه الوقائع في الاعتبار، فلا مجال حتى لمجرد الحديث عن أن بحر السرجس كان معروفاً في الأزمنة القديمة. ولا توجد أيضاً أية معطيات موثوق بها عن رحلات الشعوب القديمة غربي جزر أسور. وإذا كان مع ذلك يعرب غالباً عن رأي مفاده أن الفينيقيين أو القرطاجيين أو الإغريق أو غيرهم من الشعوب التي كانت تمارس الملاحة قد وصلوا إلى أمريكا، فإنه ينبغي اعتبار هذا ثمرة لخيال صرف. صحيح أن العواصف كانت في الأزمنة القديمة، شأنها الآن، تقذف بعيداً إلى الغرب بسفن السواحل والمحيطات، ولكن ضحايا السفن الغرقى لم يكونوا يستطيعون بحال من الأحوال أن يعثروا بأنفسهم على طريق العودة أو ينقلوا إلى الوطن خبراً عن مصيرهم"(١٢).

كانت كل محاكماتنا عن رحلات الإغريق في البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي تحمل طابعاً عاماً، إذ تناقش الآراء المؤيدة والمعارضة لفكرة رحلاتهم إلى العالم الجديد على أساس المصادر الكتابية بصورة رئيسة. هذا في حين أنه كان من المناسب في النقاش الجاري إيراد الشهادات عن المراكب الهلينية والبحارة الهلينيين.

يبدو أن أول وصف وصل إلينا لسفينة يونانية نموذجية يعود إلى هوميروس الخالد، حينما يتحدث عن مغامرات أوديس.

"اقتربوا إلى البحر، إلى السفينة التي تنتظرهم، وهناك عند الشاطئ الرملي وجدوا الرفقاء ذوي الشعر الأجعد الكثيف. اخذوا المؤونة ووضعوها في السفينة الراسية بثبات، كما أمرهم ابن أوديس المحبوب.

وما لبث هو نفسه أن وطئ السفينة على أثر الإلهة أثينا؛ فأخذت مكانها عند مؤخرة السفينة؛ وإلى جانبها جلس تليماخ، وحل الجذافون الحبال على عجل، وصعِدوا كذلك إلى المراكب، وجلسوا على دكك عند المجاذيف. وهنا أهدتهم ابنة زفس المتألقة العينين ريحاً مؤاتية. هب نسيم منعش يضج في البحر المظلم. حث تليماخ الجذافين النشيطين يأمرهم بأن يسرعوا في نصب حبل الشراع، فأطاعوه ورفعوا دفعة واحدة الصاري المصنوع من خشب الصنوبر، وأدخلوه بعمق في الوقب، وثبتوه فيه، وشدوا الحبال من الجانبين، ثم ربطوا شراعاً أبيض بسيور مجدولة، فارتفع ممتلئاً بالريح، والأمواج الأرجوانية ضجت بصخب تحت قارينة المركب المنساب عليها؛ سار على الأمواج، شاقاً طريقه فيها..."[١٣].

تشير كل الدلائل إلى أن "أرغو" الشهير والمراكب المغمورة لأبطال هوميروس كانت مجرد بوادر أولى لسيطرة الهلينيين على البحر الأبيض المتوسط. في منتصف القرن الثامن ق.م أصبح الإغريق يملكون، على ما يبدو، أسطولاً تجارياً وحربياً كبيراً كانت تستحيل بدونه كل سياستهم الاستيطانية الواسعة التي شملت أرجاء من مرسيليا إلى الساحل الشمالي للبحر الأسود. وقد وجدت منذ ذلك الحين عدة أصناف أساسية من

المراكب: أصغر ما ذكر في المراجع سفينة بعشرين مجذافاً تستخدم سواء للبعثات الاستطلاعية، أو بمثابة وسيلة للنقل، وكانت تستخدم للأغراض الحربية مراكب أكبر ذات ٥٠ زوجاً من المجاذيف، وحتى ١٠٠ زوج[١٤]. وكانت جميعاً، بغض النظر عن مقاييسها، طويلة، وضيقة بجوانب منخفضة جداً، ولم يكن وزنها كبيراً جداً؛ لأن طاقمها، كما ورد في "الأوديسة"، كان يستطيع أن يحمل السفينة على الأيدي من مكان إلى آخر. وكان لهياكلها لون أسود إما نتيجة لاستخدام دهان أسود وإما نتيجة لطلاء سطحها الخارجي بالقار؛ لكي لا ينفذ فيها الماء. وكانت المقدمة والمؤخرة بمقطعهما الجانبي أفقيتين (مستقيمتين) إلى هذه الدرجة أو تلك. وكانت للسفينة قارينة وعوارض سقفية. وكان غشاء بدن السفينة وعناصر هيكلها الأساسية تصنع من البلوط والصنوبر والشوح. وأما الصواري والمجاذيف فكانت تصنع من التنوب عادة. وكانت المجاذيف تثبت في اناشيط جلدية خاصة معلقة بمسمار أو برغي[١٥]. وكان للسفينة شراع واحد مربع الشكل من قماش كتاني يثبت إلى صار قابل للفك. وكانت المرساة تصنع من حجارة ثقيلة. كان الماء والزيت والنبيذ، وكذلك بعض الأصناف الأخرى من الأطعمة تحفظ في أمفورات[١] فخارية، وفي أكياس من الجلد ("زقاق").

في القرنين الثامن والتاسع ق.م ظهر الكبش على مقدمة السفينة، وهو جذع شجرة ثقيل نهايته معدنية مصنوعة على شكل رأس خروف، مما أحدث ثورة حقيقية في خوض الحروب في البحر[١٦].

---

(١) جمع امفورة (Amphora)، وهي قارورة ضيقة العنق ذات عروتين كان الاغريق والرومان يضعون فيها الخمر والزيت وغيرهما. المترجم

لم تكن المراكب التجارية تختلف عن المراكب الحربية إلا بأنها أثقل وأوسع - كانت في البداية تسير على المجاذيف فقط، ولكن فيما بعد، مع ازدياد مقاييس وحمولة هذه السفن، ظهر الشراع أيضاً.

وحتى أنه كانت في الأسطول اليوناني سفن نقل كبيرة خاصة، وهي "التريريمات" (أي ذات الصفوف الثلاثة من المجاذيف) لنقل الأحصنة المسماة "هباغوغوسات" و"هبيغوسات" (hippagogos , hippegos). تذكر وثائق القرن الرابع ق.م سفنا من هذا النمط ذات ٦٠ مجذافاً تحمل حتى ٣٠ حصاناً[١٧].

الرومان والبحر

في عام ١٤٦ ق.م انهارت أسوار قرطاجة المنيعة، وأصبحت روما المسيطر الوحيد والمطلق على البحر الأبيض المتوسط الذي تحول على امتداد قرون كاملة إلى "بحر الروم"، إلى بحيرة داخلية عملاقة للإمبراطورية الرومانية. وكان البحر يطعم روما بالمعنى الحرفي للكلمة. وصارت الحمولات تتدفق سيولاً عارمة إلى شبه جزيرة الأبنين من إفريقيا الشمالية وآسيا الغربية ومنطقة البحر الأسود، واستولت فيالق قيصر بواسطة الأسطول على غاليا، ونزلت في بريطانيا. وكانت السفن الرومانية تمخر عباب الأطلسي سواءً في منطقة ساحل إفريقيا الغربي أو إلى الشمال من جبل طارق.

عند تخوم القرن الأول ب.م حقق الرومان نجاحات مدهشة في فن بناء السفن، وارثين في هذا العمل إنجازات الإغريق والقرطاجيين. وكان عند روما أسطول تجاري عملاق. وكانت السفينة التجارية تتسع وسطياً لحمولة يصل وزنها إلى ٣٤٠ طناً.، وكان "أسطول الحبوب" (المخصص لنقل القمح والشعير) يضم مراكب تصل حمولتها إلى ١٢٠٠ طن. وفي عام ٤٠ ب.م، حينما قرر كاليغولا أن ينقل من مصر المسلة التي تنتصب الآن في حلبة نيرون في روما، بنى لهذا الغرض سفينة حمولتها ١٣٠٠ طن يكفي طولها لنقل نصب طوله ٣٩ متراً. وفي عام ٦٤ ب.م سافر المؤرخ العبري فلافيوس يوسف من الإسكندرية إلى روما على سفينة تقل ٦٠٠

راكب. يصف المؤلف اليوناني لوقيانوس سفينة رومانية لنقل الحبوب قذفتها عاصفة إلى الشاطئ قرب أثينا. هذه السفينة طولها ٥٤ متراً وارتفاع جوانبها ١٣ متراً[١٨].

كان الرومان يبنون سفنهم من الصنوبر والشوح والأرز، ويصنعون الأشرعة من الكتان والقصب وحتى من الجلد. وكان القائم الأمامي المرتفع عالياً يزين عند الحافة العليا بنقش يمثل رأس وزة أو تمة، أما السطح السفلي فيغطَّى بصفيحة نحاسية لحماية الخشب من التآكل وإعطائه متانة خاصة.

كان في وسع الشراع "الفينيقي" المربع أن يجعل السفينة عند هبوب ريح مواتية تسير بسرعة ٥ - ٦ عقد. وإنها لطريفة جداً المعطيات التي انعكست في وثائق ذلك الزمن عن طول الطريق وسرعة السفن التي كانت تقوم برحلات منتظمة على أهم الخطوط البحرية (مأخوذة عن ليوبل كسن): الطريق من أوستيا (روما) إلى إفريقيا ٢٧٠ ميلاً بحرياً، مسيرة يومين (٦ عقد)؛ مسينا - الإسكندرية ٨٣٠ ميلاً، مسيرة ٦ أيام (٥,٨ عقدة)؛ أوستيا - جبل طارق ٩٣٥ ميلاً، مسيرة ٧ أيام (٥,٦ عقدة)، ولكن كان لكل مركب تقريباً عدة مجاذيف من أجل المناورة والطقس الخالي من الريح، ولم يكن البحارة يعرفون البوصلة، ولكنهم كانوا يهتدون بالخصائص المميزة لتضاريس الساحل نهاراً، وبالنجوم ليلاً.

شاعت على نطاق واسع في الأوساط العلمية حتى أمد قريب فكرة مفادها أن الرومان لم يكونوا بحارة جيدين، وكانت كل اهتماماتهم تقتصر على البحر الأبيض المتوسط الذي تكتنفه الممتلكات الرومانية، وكانوا يخافون الخروج إلى المحيط إذا لم تدفعهم الحاجة إلى ذلك. وبعد انتصار روما

البرية على قرطاجة في القرن الثاني ق.م حلت فترة ركود في دراسة المحيط، كما يزعمون. "خمد الاندفاع إلى الأبحاث. ومر ١٥ قرناً قبل أن يستأنف إخضاع الأطلسي ..."[١٩].

حتى ريخارد هنيغ، الاختصاصي النافذ البصيرة في تاريخ الجغرافية، لم يقدر مواهب الرومان الملاحية كما ينبغي. وقد كتب أن "استيلاء الرومان النهائي على إسبانيا في عام ٢٠٦ ق.م أنهى الحصار القرطاجي لمضيق جبل طارق الذي استمر ٣٠٠ سنة، ولكن على امتداد السنوات الستين اللاحقة لم يخطر على بال الفاتحين أن يستلخصوا من هذا فائدة للملاحة والتجارة... كان اهتمام الرومان بالجغرافية في غاية الاعتدال دائماً إذا لم يكن في الوسع استخدامها لأغراض سياسية. أما المحيط المضطرب، بمده وجزره المزعجين، فكان يبعث دائماً على خوف معين لدى الرومان الذين تعودوا ألا يقوموا برحلات بحرية إلا لتأكيد سيطرتهم السياسية..."[٢٠].

كل هذه الاستنتاجات تتسم، في رأيي، بنظرة وحيدة الجانب بعض الشيء؛ إذ إن الأثر الذي خلفه الرومان في الجغرافية والملاحة يستحيل اعتباره ضعيفاً أو زهيداً. ويكفي لتأكيد هذا إيراد سرد موجز لأهم رحلات الأساطيل وبعثات الأبحاث الرومانية إلى المحيط الأطلسي. تعود أولى هذه الحالات إلى عام ١٤٥ ق.م. يكتب المؤرخ الروماني بلينوس: "حينما وقف سقيبيون إيميليان على رأس قواته في إفريقيا تلقى منه مؤلف المدونات التاريخية بوليبيوس أسطولاً ليتنقل في الجوار، ويدرس هذا الجزء من المعمورة..."[٢١].

لا شك في أن الرومان كانوا في أواسط القرن الثاني ق.م يعرفون ساحل إفريقيا على الأطلسي أقل بكثير مما كان يعرفه الفينيقيون والإغريق

والقرطاجيون قبلهم بعدة قرون، ولكن حينما وجه سقيبيون ضربة مميتة إلى منافس روما الرئيس، قرطاجة، اهتم الرومان بالبلدان التي كان يتاجر عدوهم معها، وساعد سقيبيون على تنظيم بعثة أبحاث بمحاذاة ساحل إفريقيا الشمالي الغربي، مقدماً إليها المراكب، ولا نعرف ما إذا كانت الاعتبارات العسكرية السياسية قد اضطلعت بدورها هنا، أو أن المغزى الحاسم كان لاهتمام المؤرخ اليوناني بوليبيوس، الذي كان صديقاً للقائد الروماني، بالجغرافية.

وللأسف، فان الخبر الوحيد عن هذه الرحلة الخارقة، الذي سجله بلينوس، ضبابي وفي غاية الإيجاز، ترد فيه اسماء الكثير من الأماكن والقبائل في إفريقيا، ولكن لا توجد فيه أية تفاصيل عن خط الرحلة ونتائجها، ونحن لا نعرف إلى أي مدى انطلقت مراكب بوليبيوس إلى الجنوب. ربما كانت نقطتها النهائية تقع قرب مصب السنغال أو حتى عند الرأس الأخضر. يذكر هنيغ بأن "البعثة كانت، ولاشك، حدثاً بارزاً...

حتى عام ١٤٤٣ ب.م تقريباً لم تنطلق أية سفينة للشعوب المتحضرة إلى مثل هذه المسافة البعيدة نحو الجنوب!(٢٢).

يعرف من مصادر رومانية أخرى أن الحاكم الروماني في إسبانيا ليسينيوس كراس قام في عام ٩٥ ق.م برحلة بحرية قصيرة إلى الأطلسي لزيارة "جزر القصدير" الواقعة، كما يشير الوصف، على مقربة كبيرة من ساحل شبه جزيرة إيباريا.

وكان إنزال قوات يوليوس قيصر في بريطانيا عامي ٥٥ - ٥٤ ق.م إجراء أضخم، فقد تطلب تعبئة قصوى لكل قوى الأسطول الروماني. ولكن معرفة الرومان الرديئة للظروف المحلية جعل حتى عبور مضيق المانش الضيق،

الذي يفصل غاليا المقهورة عن بلاد البرطيين التي لم تقهر بعد، إجراء خطيراً، مع العلم أن هذا الإجراء لم يتم بدون خسائر جدية. يقول قيصر: "في تلك الليلة كان البدر مكتملاً، وهذا اليوم يثير عادة أشد مدٍّ، الأمر الذي لم يكن يعرفه رجالنا. وعلى هذا النحو غطت الأمواج المراكب الحربية التي نظمت عليها نقل الجند وأمرت الآن بجرها إلى الساحل، وفي الوقت نفسه قذفت العاصفة بمراكب الشحن الراسية إلى مختلف الاتجاهات، فلم تعد عندنا الإمكانية سواء لقيادتها أو لتقديم المساعدة إلى من يحتاجها. وتحطم عدد كبير من المراكب..."[٢٣]. قذفت الريح بعدد من السفن إلى عرض البحر، ولم يستطع جميعها العودة إلى الشواطئ الأوروبية المنقذة.

بعد ستة عقود خاطر الرومان، وقد استوعبوا على نحو راسخ ملاحة السواحل في المحيط على امتداد ممتلكاتهم من جبل طارق إلى بريطانيا، بالتغلغل عمقاً في الشمال، إلى ساحل سكاندينافيا.

يكتب بلينوس: "تجري الملاحة في الغرب بأسره من قادش وأعمدة هرقل على امتداد سواحل إسبانيا وغاليا. وفي زمن حكم أغسطس الإلهي تم اجتياز جزء كبير من المحيط الشمالي. حينذاك دار الأسطول حول ألمانيا، ووصل إلى رأس كيمفر (سكاغن)، ومن هناك رأوا أو سمعوا ببلاد الأسقوثيين والأرجاء الرطبة والمتجمدة بإفراط، ولكن من المستبعد تصديق أن تتجمد البحار حيث توجد الرطوبة بوفرة... في خليج كوران البحري العديد من الجزر أشهرها سكاتينافيا التي لم يعهد لمقاييسها مثيل بعد..."[٢٤].

يجري الحديث عن رحلة الأسطول الروماني من مصب الرين وجهة الشمال إلى رأس سكاغن وأبعد، إلى نقطة على ساحل سكاندينافيا الجنوبي في

مضيق سكاغراك. وليس ثمة ما يشير إلى الأسباب التي دفعت الرومان إلى هذه الرحلة البعيدة والحافلة بالإخطار عند ساحل يوتلانديا الغربي الخطر. ويبدو أنهم بقوا إلى القرن الحادي عشر، بل إلى القرن الثالث عشر ب.م لا يعرفون أن سكانديناڤيا ليست جزيرة[٢٥].

وأخيراً، ينبغي التنويه هنا برحلة العمارة الرومانية إلى شمال الأطلسي، إلى ما وراء جزر أوركناي في عام ٨٤ ب.م. وفي هذا الصدد يكتب المؤرخ الروماني كورنيليوس تاقيطس أن "الأسطول الروماني الذي جاب حينذاك هذا الشاطئ الواقع على أبعد بحر أكد أن بريطانيا جزيرة، وبالإضافة إلى ذلك اكتشف وأخضع جزراً لم تكن معروفة حتى ذلك الحين، وهي المسماة بجزر أوركاد. وشوهدت من بعيد ثولي أيضاً، ولكن الأمر كان ينص على الذهاب إلى هذه الأماكن فقط، ثم إن الشتاء كان يقترب. يقال: إن البحر هناك قليل الحركة، وشاق على المجذفين، وحتى الرياح لا ترفعه كثيراً..."[٢٦].

هذه الحملة إلى شمال بريطانيا، التي كانت تنطوي على بعض الأهداف الاستقصائية، قام بها الحاكم الروماني يوليوس أغريكولا. لم ير الرومان "أولتيما ثولي"، طبعاً. وما أسموه "ثولي" كان، على ما يبدو، جزيرة غاير الصغيرة الواقعة على منتصف الطريق بين جزر أوركناي وجزر شيتلاند.

من المناسب التذكير بأن رحلة الأسطول الروماني حول بريطانيا في عام ٨٤ ب.م وكل منجزات اغريكولا البحرية لم تكن من حيث الجوهر إلا تكراراً جزئياً لمأثرة اليوناني بيثياس في القرن الرابع ق.م. لقد أعد لهذه الحملة بمقاييس أوسع بكثير، ولكنها أجريت في أطر أضيق بكثير، لو لم يجابه بيثياس بالشك المهين أمداً طويلاً، لما اقتضى الأمر بعثة خاصة للأسطول الروماني حول طرف بريطانيا الشمالي. فقد اقتصرت على تأكيد

المعطيات التي تحدث عنها بسعة أكثر ودقة أكبر اليوناني المسيلي المقدام قبل ذلك بأربعمئة سنة. ولكن ثمة أمر مهم آخر، وهو أن واقع كون بريطانيا جزيرة لم يعد منذ عام ٨٤ ب.م مادة للنقاش[٢٧].

وهكذا لا مجال للشك في أن المراكب الرومانية كانت منذ القرن الأول ق.م تمخر مياه الأطلسي الساحلية من جبل طارق إلى طرف إنكلترا الشمالي في أحيان ليست بالنادرة. وهذا يفترض بدوره، أن الرومان كانوا يعرفون المحيط أكثر بكثير مما كان يعتقد حتى أمد قريب بعض الاختصاصيين في تاريخ الجغرافية، وعلاوة على ذلك كان لا بد وفق أبسط الحسابات أن تقذف العواصف والتيارات البحرية من زمن لآخر، عند تضافر الظروف غير المؤاتية، بالمراكب الحربية أو التجارية، بعيداً إلى الغرب، إلى أرجاء المحيط، بل وربما إلى جزر أرخبيلي الأنتيل وبهاما أو الساحل الشرقي للقارة الأمريكية. وهذا، بالمناسبة، ما أعرب عنه مراراً في الصحافة حتى الكثير من العلماء الجديين.

يكتب كنوروزوف: "... في الزمن القديم مخرت المحيط الأطلسي المراكب التارتسية والفينيقية والأتروسكية واليونانية والرومانية. ولا شك في أن العواصف الهوجاء غالباً ما كانت تقذف بها إلى عرض المحيط، ولعل سكان ميزوأمريكا توفرت لهم مراراً فرصة رؤية حطام هذه المراكب وبعض الأشياء والغرقى، وربما البحارة الأحياء أحياناً"[٢٨].

وتشهد أيضاً على ان هذه "الرحلات" الاضطرارية عبر الأطلسي كانت ممكنة جداً وقائع من نوع آخر، وهي الحالات المثبتة وثائقياً لقيام سكان العالم الجديد بقطع الأطلسي في عهد ما قبل كولومبس. وتعرف الآن ثلاث حالات كهذه على الأقل. "من المعروف أن كل القبائل الساحلية في

أمريكا تقريباً كانت تمارس صيد السمك، وتتنقل في البحر على قوارب أو طوافات. وكانت تجري في مناطق الحضارات القديمة تجارة منتظمة: على القوارب في ميزوأمريكا، وعلى الطوافات في بيرو، و القوارب التي تقذف بها العاصفة إلى عرض المحيط (من شواطئ خليج المكسيك، مثلاً) كان يمكن لغولف ستريم أن يسحبها إلى سواحل أوروبا.

في عام ٦٢ ق.م رسا عند ساحل ألمانيا قارب يُقِل شخصين من عرق مجهول. وقد أسرا، وأرسلهما زعيم السويف (حسب قول بلينوس) أو البوي (حسب قول غومبونيوس) هدية إلى ميتل كيلر نائب قنصل غاليا، واعتبر المؤلفون القدماء أنهما من سكان الهند، وقد قدما من الشرق إلى الغرب عبر المحيط الذي يكتنف الارض. ويبدو أن الأسيرين كانا صيادي سمك، وقد اقتاتا في الطريق بالسمك، مستعيضين عن الماء بعصارة السمك... وفي عهد الإمبراطور فريدريك بربروس وصل إلى ساحل ألمانيا في عام ١١٦٢ زورق يقل اناساً مجهولين اعتبر مدون الأخبار غالفانو أنهم من سكان جزيرة بكالاوس الأسطورية... وفي عام ١٥٠٨ صادف مركب فرنسي على مقربة من إنكلترا قارباً يقل أسرة لأناس قِصار القامة، ذوي بشرة برونزية اللون. مات ستة منهم وبقي على قيد الحياة شاب يتكلم بلغة غير مفهومة. وقد أرسل إلى الملك لويس الثاني عشر الذي كان في مين حينذاك...[٢٩].

وفي غضون ذلك ظهرت في ستينيات القرن الحالي براهين فعلية تماماً على أن الرومان لم يزوروا الجزر الضائعة في أرجاء الأطلسي فحسب، بل ووصلوا (على ما يبدو بصورة عرضية واضطرارية) إلى شواطئ المكسيك، في منطقة فيراكروس، على ساحل خليج المكسيك.

فكيف حدث ذلك؟ وفي أية ظروف؟

في القرن الثاني ق.م، بعد هلاك قرطاجة، أصبحت روما، كما أشرنا أعلاه، السيد الوحيد والمطلق للبحر الأبيض المتوسط كله.

في ذلك الزمن بالذات أخذت تظهر في مؤلفات المؤرخين الرومان أخبار ضبابية عن جزر ضائعة في المحيط، غربي "أعمدة هرقل". وكان يمكن للرومان، والحق يقال، أن يعرفوها من مصادر يونانية أو فينيقية. ولذا من المهم بالنسبة إلينا أن نعرف هل كانت المراكب الرومانية تذهب إلى أقرب الجزر من إفريقيا كماديرا وكناريا وغيرها.

وكما بينا في الفصل السابق، فإن زيارة البحارة الفينيقيين لجزر كناريا الشرقية والوسطى ومجموعة جزر ماديران، وربما جزر أسور (جزيرة كورفو) هي أمر مؤكد تماماً. ومن المميز أيضاً أنه لم يكشف إلى الآن عن أسرار تحضير الصباغ الفينيقي الأرجواني الشهير الذي كان الاتجار به يجلب لهم أرباحاً طائلة. هذا في حين توجد في جزر كناريا بالذات أشنة تحتوي على صباغ عالي الجودة، ويبدو أن شعوب البحر الأبيض المتوسط القديمة كانت تعلم جيداً بثروات الجزر الضائعة في المحيط، وتجهز من حين إلى آخر بعثات إلى هناك مقترنة بمخاطرة كبيرة.

قبل الميلاد بأمد قصير زار الملك الموريتاني يوبا الثاني، الذي كان في حالة تبعية لروما، جزر كناريا، وبنى له هناك مصبغة أرجوان. لم يجد هناك أي سكان، ولكنه رأى أنقاض مبان حجرية قديمة، فينيقية (قرطاجية) على الأرجح[٣٠].

في عام ١٩٦٤ عثر في مضحل ساحلي قرب جزيرة غراسيوسا (مجموعة جزر كناريا) على أمفورة رومانية في حالة جيدة مما يسمى بالنمط "الفينيقي" الذي لم يكن يستخدم إلا في السفن الرومانية في القرنين الثاني والثالث ب.م.

ومن المعروف كذلك أن هذه الأمفورات لم تكن تستخدم في المراكب التجارية، وهذا ما يشير على الأرجح إلى زيارة مركب حربي لغراسيوسا[31].

يمكن، بعد مقارنة الوقائع المعروضة أعلاه، افتراض أن جزر كناريا كانت، على الأرجح، معروفة جيداً للرحالة الرومان، وكانوا يزرونها أحياناً، وكان هذا يجري غالباً في حالة ظروف عرضية أو اضطرارية. وكون سفينة حربية، لا تجارية مكيفة على نحو أردأ بكثير للرحلات البحرية البعيدة، قد زارت جزيرة غراسيوسا يشير إلى إمكانية من هذا النوع بالذات.

ومهما كان الأمر، فاننا نعرف الآن جيداً أن بعض السفن في العصر الروماني التي قذفتها الأنواء والعواصف قد وصلت (بطاقم حي أو ميت على متنها) إلى الشواطئ الشرقية لأمريكا. وهذا ما تتحدث عنه ببلاغة اللقيات الآثارية القريبة العهد في المكسيك.

في أواخر عام ١٩٣٣ قام الآثاري المكسيكي خوسيه غارسيا بايون بحفريات في مستوطنة كاليشتلاخواكا الهندية القديمة في وادي تولوكا (المكسيك). وهناك، تحت ثلاث أرضيات لم تمس لأحد المباني التي يجري البحث فيها تسنى العثور على عدة مدافن من الزمن الأتستيكي (الفترة بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر ب.م) فيها لقايا غنية: أباريق وكؤوس مزخرفة فخارية، وحلي من الصدف والبلور الصخري وألواح ذهبية وتمثال صغير لأسلوت[1] إلخ. وبين كل هذه التحف لفتت انتباه الآثاري مادة غير عادية: نظرت إليه من زاوية المدفن عينان محملقتان لكائن ملتحٍ بقبعة مهرج مخروطية. إنه رأس تمثال فخاري صغير قطره ٢,٥ سم، وهو بكل مظهره

---

(١) الاسلوت (Ocelot) حيوان أمريكي يشبه النمر. المترجم

يختلف اختلافاً شديداً عن منحوتات الهنود الحمر القديمة. وقد بقي الرأس زمناً طويلاً عند الآثاري، وكان يريه أحياناً لمعارفه بمثابة شيء طريف. في عام ١٩٥٩ فقط علم العلماء الأوروبيون مصادفة باللقية. وساعدوا على معرفة أن التمثال الصغير الذي عثر عليه في كاليشتلاخواكا يعود إلى نمط معروف جيداً للتماثيل الرومانية في القرن الثاني ب.م.[٣٢]، ولكن كيف أمكن لهذا الشيء القديم ان يوجد في مدفن حديث نسبياً؟ يبدو أن الهنود الحمر انتبهوا منذ القدم إلى هذه المادة الخارقة، ولا يستبعد أن أصحابها الأوائل كانوا يعرفون شيئاً عن ظروف ظهور هذا التمثال الصغير على شواطئ المكسيك. من الواضح على أي حال أن الأجيال كانت تتناقل بحرص هذا الرأس الروماني كتحفة مبجَّلة على نحو خاص إلى أن وصل في نهاية المطاف إلى مدفن زعيم هندي أحمر.

أهمية ما اكتشف في كاليشتلاخواك تكمن في أنه أول شيء مجلوب حتماً في عهد ما قبل كولومبس عثر عليه في أمريكا الوسطى إبان الحفريات العلمية مما ينفي أية إمكانية للتزوير. وهو يسبغ المزيد من الصدق على الأخبار الأخرى حول اللقيات العرضية للأشياء الإغريقية- الرومانية في شتى مناطق المكسيك: رأس المنحوتة الهلينية من كاريتارو، والتمثال الفخاري الروماني المتأخر (صورة فينوس) من منطقة خواستيكا، والمنحوتة الرومانية من شمال المكسيك (المحفوظة حالياً في متحف شيكاغو، الولايات المتحدة)[٣٣].

وهكذا، فثمة وقائع شحيحة، ولكنها صحيحة تماماً، تؤكد أن مادة من الإنتاج الروماني في القرن الثاني ب.م قطعت مرة واحدة على الأقل (وذلك، طبعاً، مع الإنسان أو على الأقل في سفينة تُقِل طاقماً حياً أو ميتاً) أرجاء الأطلسي، ووصلت إلى شواطئ العالم الجديد، إلى المكسيك.

منذ عدة سنوات عثر مصادفة في ساحل فنزويلا الشرقي (الأطلسي) على دفينة لعملة رومانية من القرن الرابع ب.م. كانت قطع نقود ذهبية وفضية ونحاسية، بينها الكثير من النسخ المتكررة، في جرة فخارية مطمورة بعمق على الشاطئ الرملي للمحيط، على مقربة من حافة المياه.[٣٤] وهذا يبرهن مرة أخرى على ان الدفينة خبأها إنسان يعرف قيمة النقود جيداً، وكانت على الأرجح ملكاً لأحد ركاب سفينة تجارية رومانية تحطمت عند الساحل الفنزويلي المقفر. وقد أزال الزمن الذي لا يرحم كل آثار المأساة، التي وقعت هناك منذ أكثر من ١٥ قرناً، ولم يتبقَ من ذكرى الملاحين القدماء المجهولين سوى هذه الجرة الفخارية المتواضعة المحشوة بالنقود.

ينطلق من ساحل إفريقيا الغربي إلى شواطئ خليج المكسيك تيار كناريا والتيار الشمالي، وتهب رياح مواتية (الرياح الشمالية الشرقية). وإذا كان الرومان قد انطلقوا إلى المحيط خلف "أعمدة هرقل" وزاروا جزر كناريا، فليس ثمة ما يدعو إلى العجب في أن تنساق مراكبهم وقت العواصف، أو بفعل الرياح، والتيارات القوية إلى الغرب بعيداً حتى الساحل الأمريكي، ولكننا نستطيع أن نؤكد بالتحديد نفسه أنه لا يوجد عندنا إلى الآن أقل تلميح إلى أن هؤلاء "الرحالة رغم أنوفهم" قفلوا عائدين في يوم من الأيام.

ومع ذلك فثمة تلميح صغير واحد ففي عام ١٩٦٨ نشرت في دار "ناؤوكا" دراسة بعنوان "أمريكا والعالم القديم في عصر ما قبل كولومبس" حدثت فيها القارئ لأول مرة بلقية تتمثل في رأس تمثال روماني صغير من القرن الثاني ب.م في المكسيك، وكم كانت دهشتي

بالغة حينما تلقيت رسالة رد على ما نشرته من عالم النبات الفائق الشهرة، زميل نيقولاي فافيلوف، البروفسور جوكوفسكي. ونظراً لأهمية هذه الرسالة أورد نصها كاملاً: **"حضرة فاليري إيفانوفيتش المحترم! قرأت كتابكم الممتع والعملي "أمريكا والعالم القديم في عصر ما قبل كولومبس". هذه القضية تشغلني منذ ٤٠ سنة، منذ أن عملت مع الأكاديمي فافيلوف. تتحدثون في كتابكم عن لقية لمواد الثقافة الرومانية في العالم الجديد. في عام ١٩٦٠ كنت في إيطاليا، حيث قابلت في نابولي البروفسور كاسلا. لقد درس على امتداد جملة من السنين فريسكات بومبيي وهركولانوم، واكتشف فيها نباتات زراعية أمريكية المنشأ: أنونا، أناناس وغيرهما، فمن أين عرف الرومان هذه النباتات في القرن الأول ب.م؟ عندي صور وشرائح عرض للكثير من الفريسكات. الأنونا لا تثير أية شكوك (لمدى دقة تصويرها)؛ أما الأناناس فغير واضح تماماً، ولكنه هو على أي حال. كان ثوران فيزوف في عام ٦٣ (لا أتذكر تماماً) ب.م. وهناك فريسك ممتاز يصور ليمونا، ولم يكن الرومان يستطيعون معرفته إلا من الهند... ونشر البروفسور كاسلا جملة من المؤلفات عن لقياته باللغة الإيطالية. وقد كتبت عن هذا في دراستي "النباتات الزراعية وأقرباؤها"، الطبعة الثانية، عام ١٩٦٤. كتبته بشك.**

مع التحية

جوكوفسكي،
بروفسور، دكتور في العلوم البيولوجية،
دكتور في العلوم الزراعية،
١٩٦٨/١١/١٥
مدينة لينينغراد

هذه هي الرسالة الممتعة التي بعث بها إلي من لينينغراد البروفسور جوكوفسكي، وكان فيها ما يستحق إجهاد الفكر! كنت أعلم بمؤلفات كاسلا في السابق أيضاً،[٣٥]، ولكنني لم أسبغ عليها مغزى كبيراً، مقدراً بغطرسة أنها "إثارة رخيصة" جديدة من تلك التي يحرص عليها، بناء على قوالب تفكيرنا، الكثير من العلماء الغربيين. وعلاوة على ذلك، لما كنت آثاريا، فإنني، بصراحة، لم أتعمق كثيراً في جوهر البراهين النباتية للإيطالي الذي لم أكن أعرفه من قبل، وفجأة حدث ما يشبه الرعد في سماء صافية! عالم ثقة عمل جنباً إلى جنب مع فافيلوف العظيم يؤكد بلا تردد أن البروفسور كاسلا مصيب، فقد رسم على الفريسكات الرومانية في مدينتي هركولانوم وبومبيي، اللتين دمرهما انفجار قوي لبركان فيزوف في القرن الأول بعد الميلاد، صنفا النبات الأمريكيان الصرف، الانونا والاناناس!

ومن هنا ينبع حتماً استنتاج آخر: الرومان في تخوم الميلاد، أو قبل ذلك لم يقيموا في مكان ما من أمريكا الوسطى أو الجنوبية، ويروا هناك النباتات المثمرة المحلية فحسب، بل ورجعوا أدراجهم بسلام إلى إيطاليا؛ لأن الصناع الرومان استطاعوا انطلاقاً من رسومهم ووصفهم أن يصوروا في زخارف فيلات الأرستقراطيين الرومان نباتات ما وراء المحيط الغريبة.

بعد عدة سنوات توصلت إلى هذه النتيجة بالذات مجموعة كبيرة من الخبراء من مؤرخين وآثاريين وأثنوغرافيين، وعلماء في النبات وجغرافيين اجتمعوا في ندوة خاصة لمناقشة قضايا الصلات بين العالَمين القديم والجديد عبر المحيط في عصر ما قبل كولومبس[٣٦].

على هذا النحو يبدو كل شيء بوضوح وتحديد من الناحية النباتية الصرف: في القرن الأول ب.م عرف الرومان النباتات الأمريكية، وصوروها على جدران مساكنهم، ولا يبقى غامضاً إلا السبب الذي منع هذا الحدث الخارق من أن ينعكس في مؤلفات جيش كامل من مؤرخي وجغرافيي ذلك الزمن. بيد أن الاعتراف بامكانية رحلات الرومان الفعلية عبر المحيط إلى أمريكا في الفترة بين سقوط قرطاجة (عام ١٤٦ ق.م) والقرن الرابع بعد الميلاد لا يزيل أبداً ضرورة الصد الحاسم لكل أنواع مضاربات السطحيين بهذا الموضوع.

يتسم بشطحات خيال خاصة كتاب المؤلف الأمريكي تشارلز بولاند، حيث كرس فصلاً خاصاً لرحلات الرومان إلى العالم الجديد، وإقامة مستوطنات رومانية دائمة هناك. اتضح أن الأمر كلَّه يتلخص في أنه بدأ في القرن الأول اضطهاد المسيحيين في المدينة "السرمدية". اشتعلت في روما حرائق شديدة على امتداد ستة أيام بلياليها. احترقت أحياء كاملة عن بكرة أبيها، وقتل العديد من الناس وزالت بلا عودة قيم مادية ضخمة، وأخذ يتكون عند المتضررين الحاقدين للغاية، الذين فقدوا مساكنهم وكل ما يملكون، ولاشك في أنهم لم يكونوا ضحية جائحة طبيعية، بل حريق متعمد، وترددت في المدينة شائعات تقول بأن الإمبراطور نيرون لا غيره، كان المذنب الرئيس في المصائب التي حلت على الرومان.

وإذ حاول الإمبراطور المذعور أن يصرف عنه الجمهور، اتهم بالحرائق طائفة المسيحيين، ذلك الحشد غير المتجانس من الأشخاص الذين اجتمعوا في روما من كل حوض البحر الأبيض المتوسط وصاروا يؤدون بالسر طقوساً دينية غامضة. بدأت اعتقالات ومذابح جماعية

للمسيحيين، فكانوا يعذبون ويُعدَمون بالمئات، وتطلق عليهم الحيوانات المفترسة في حلبات الميادين، ويزج بهم في السجون. في هذه المجزرة قُتل زعيما الطائفة المسيحية، الرسول بطرس، والرسول بولس، وعندئذ خشي المسيحيون الناجون الهلاك المحقق، وسعَوا إلى اعتناق دينهم بحرية، فأمنوا عدة مراكب بشتى السبل وتوجهوا عبر المحيط إلى الغرب؛ بحثاً عن وطن جديد[٣٧]. ويبدو أن الرعاية الإلهية أنقذتهم من كل المصائب والبلايا، فقطعوا أرجاء البحر بسلام، ووصلوا إلى الساحل الشرقي لولاية فرجينيا (الولايات المتحدة).

أتشكون في الأمر؟ عبثاً تفعلون: في جعبة تشارلز بولاند حجج لا تدحض في مصلحة قصته الخارقة والحافلة بالدرامية. وهذه هي بكل بساطتها البهية. في عام ١٩٤٣ اشترى مهندس يدعى جيمس حاوي مزرعة مساحتها نحو ٩٠ هكتاراً على ضفة نهر روانك الجميل قرب مدينة جفرس في ولاية فرجينيا. عند تفقد ممتلكاته اكتشف على الفور حطام حديد "قديم المظهر" بل ومصنوعات كاملة من هذا المعدن.،وهذا غيض من فيض.؛إذ لم تعد اللقيات على سطح الأرض ترضي "المزارع" الغر، وسرعان ما تحول المهندس إلى آثاري. لم يقتصر حاوي على حفر أرضه طولاً وعرضاً، بل وحفر الأراضي المجاورة. وبالنتيجة عثر على كأس برونزية سليمة تقريباً، ومغزل برونزي، وعدة سكاكين وخناجر حديدية. أما المسامير والأزاميل الحديدية فلا تدخل في الحساب[٣٨]. كان واضحاً أن العالم، الذي لا يخامره شك في شيء، يقف على عتبة خبر آثاري مثير جديد. ينجم وفق تقديرات المهندس- "الآثاري" (وبولاند الذي يقف وراءه على نحو خفي) أنه ظهرت وازدهرت على الضفاف الجميلة لنهر روانك في القرنين الأول

والثاني ب.م مستوطنة كاملة للمسيحيين الرومان، وبالتالي فقد اكتشف الأوروبيون أمريكا قبل كولومبس بأمد طويل[٣٩].

للأسف، لم يبلغه العلماء الذين توجه إليهم، سواء منهم الاختصاصيون في العلوم الطبيعية أو الإنسانية، بأي شيء يبعث على العزاء. كان المعدن من منشأ متأخر نسبياً. أما حفريات الآثاريين المحترفيين في وادي نهر روانك فلم تكشف عن أية آثار لمستوطنات رومانية.

وفضح الاختصاصيون كذلك المحاولات العديدة التي بذلها شتى المزورين للبرهان على إقامة الرومان في مختلف مناطق الولايات المتحدة على أساس العملة الرومانية التي عثر عليها هناك[٤٠].

وأخيراً، يمكن التحدث في الختام عن خبر مثير آخر أحدث في حينه ضجة كبيرة جداً، ولكنه انفقأ كفقاعة الصابون.

يجري الحديث عن اكتشاف أشياء رومانية (مراس وأمفورات وصحون سيراميكية) في قاع خليج غوانابارا في البرازيل عام ١٩٨٣[٤١]. في البداية كانت الأمفورات الرومانية قليلة، ثم وصل عددها إلى العشرة، وتابع الغواصون عملهم الذي لا يكل في مياه الخليج العكرة. ولم يكن ثمة مجال لأن ينتاب الشك أحداً، فهذه الآنية السيراميكية المخصصة للزيت أو النبيذ كانت، كما حدد الخبراء، رومانية قديمة بالفعل. وهذا معناه أن مراكب رومانية ظهرت في يوم ما عند شواطئ البرازيل.

للأسف، كانت خيبة الأمل عميقة تتناسب طرداً ومدى الجرأة في تقبل شتى الافتراضات قبل ذلك؛ إذ ما لبث الآثاريون العاملون تحت الماء أن عثروا على هيكل سفينة. كانت الأمفورات قديمة بالفعل، ولكن كانت

السفينة التي حملتها عبارة عن فرقاطة برتغالية من القرن الثامن عشر ب.م. وحينما رفع العلماء الوثائق في الأرشيف اتضحت قصة مدهشة. كانت أوروبا في القرن الثامن عشر تعيش فترة انجذاب إلى الكلاسيكية والثقافة الإغريقية- الرومانية. وكان الوجهاء والقادة العسكريون والأساقفة والرهبان يتسابقون في محاولة العثور على مجموعات مواد الثقافة الإغريقية- الرومانية واقتنائها من أجل متاحفهم الشخصية، ولم يتخلف عن هذه الموضة كبار وجهاء مستعمرات الدول الأوروبية في العالم الجديد. كان المركب ينقل من البرتغال مجموعة من العاديات الرومانية لنائب الملك في البرازيل. اجتازت السفينة كل موانئ المحيط بسلام، وحينما بدا أنها خلفت وراءها كل الأخطار هبت فجأة عاصفة استوائية وأغرقت الفرقاطة في المرسى في خليج غوانابارا.

قصة طريفة حقاً: أمفورات رومانية قديمة في مركب من القرن الثامن عشر! ولولا بقايا هيكل المركب البرتغالي لبقيت هذه الآنية الرومانية الرشيقة المنفوخة الفوهة ذات المسكتين على الجانبين أمداً طويلاً تثير مخيلة أشد المتحمسين لفكرة الرحلات المنتظمة من البحر الأبيض المتوسط إلى أمريكا عبر المحيط.

هوامش الفصل الرابع

١- خانكي. المراكب والبحر. موسكو، ١٩٧٦

٢- هنيغ. أراض مجهولة. موسكو، المجلد ١، ص ٦٧.

٣- المصدر السابق، ص ٦٢.

٤- المصدر السابق، ص ٦٥.

٥- تسيركين. الرحلات اليونانية الأولى في المحيط الأطلسي. - "أخبار التاريخ القديم"، العدد ٤، ١٩٦٦، ص ١١٩.

٦- هنيغ. أراض مجهولة...، المجلد ١، ص ١١٩.

٧- الاستشهاد من هنيغ. أراض مجهولة...، المجلد ١، ص ١٧٥ - ١٧٦.

٨- هنيغ. أراض مجهولة...، المجلد ١، ص ١٧٨.

٩- هنيغ. أراض مجهولة...، المجلد ١، ص ١٧٩.

10- M.Mertz. Odysseus in America. Summary.- Actas y Memorias del 36, CIA T.I. sevilla, 1966, p.111.

11- G.H.Gordon. Before Colombus. New York, 1971, p. 51-53.

١٢- هنيغ. أراض مجهولة، المجلد ١، ص ١٧٢ - ١٧٣.

١٣- هوميروس. الأوديسه (ترجمة جوكوفسكس). موسكو. دار سوفيتسكايا روسيا، ١٩٨٣، ص ٣٣ - ٣٤.

14- L.Casson. Ships and Seamanship in the Ancient World. Princeton, N.J. 1971, p. 44.

15- L.Casson. Ships and Seamanship..., p.44.

16- L.Casson. Ships and Seamanship..., p. 93.

17- Ch.M.Boland.They all discovered America. New York, 1961, p.55.

١٨- رومانوفسكي... وآخرون. البحر. موسكو، دار الأدب الأجنبي، ١٩٦٠، ص ٢٦ - ٢٨.
١٩- هنيغ. أراض مجهولة، المجلد ١، ص ٢٦١.
٢٠- المصدر السابق، ص ٢٦٢.
٢١- المصدر السابق، ٢٩٠ - ٢٩٢.
٢٢- المصدر السابق، ص ٣٠٢.
٢٣- غايوس يوليوس قيصر: ملاحظات عن الحرب مع الغال. موسكو، ١٩٤٦، الرابع، ٢٠- ٣٦، الخامس، ٢- ٢٣.
٢٤- بودنارسكي. الجغرافية الإغريقية- الرومانية. موسكو ١٩٥٣، ص ٢٤١.
٢٥- هنيغ. أراض مجهولة، المجلد ١، ص ٣٣٦ - ٣٣٧.
٢٦- كورنيليوس تاقيطس. حياة وأخلاق يوليوس أغريكولا. الفصل ١٠. المؤلفات، المجلد ١، سان بطرسبورغ، ١٨٨٦، ص ١١.
٢٧- هنيغ. أراض مجهولة ...، المجلد ١، ص ٣٨٢ - ٣٨٣.
٢٨- كنوروزوف. حول مسائل صلات أمريكا قبل كولومبس بالعالم القديم. - "أمريكا اللاتينية"، العدد ١، ١٩٨٦، ص ٩٢.
٢٩- المصدر السابق، ص ٩٥ - ٩٦.
٣٠- هنيغ. أراض مجهولة، المجلد ١، ص ٥٣ - ٦٧.
31- J.Alcina Franch. Origen frasatlantico de la cultura Indigena de America. – Revista Espanola de Antropologia Americana, Separata del vol. 4, Madrid, 1969, p.17.
32- Garcia Payon. Una cabecita de barro, de extrana fisionomia. – Boletin del Instituto Nacional de Antropologia e Historia, No 6, Mexico, 1961, pp. 1 – 2.
33- Romans in the Americas. – “Katunob”, vol. 2, No 2, carbondale, Illinois, 1961, p. 12; V.H.Gaddis. American Indian myths and Mysteries. Radnor, Pennsylvania, 1977, p. 102.

34- Romans in the Americas..., p. 12.

35- D.Casella. La frutta nelle pinture Pompeiane. – “Pompeiane: racolta di scavid di pompei”, Naples, 1950, pp. 355 –386.

36- C.L.Riley واخرون .(eds). Man Across the Sea. Austin.and London, 1971, p. 26.

37- Ch.M.Boland. They all discovered..., pp. 49 – 54.

٣٨- المصدر السابق، ص ٥٦ - ٥٨.

٣٩- المصدر السابق، ص ٥٩ - ٦١.

40- J.F.Epstein. Pre –Columbian Coins in America: an examination of the evidence. – Current Anthropology, vol 21,Chicago,1980, pp. 3-52.

٤١- هل سيقتضي الأمر إعادة كتابة تاريخ البرازيل؟ - زا روبيجوم، العدد ٧ (١١٨٠)، ١٩٨٣، ص ٢٣.

الفصل الخامس

إفريقيا والعالم الجديد قبل كولومبس

«تدفع قاربي رعشة البحر الصماء
على طريق رسمه الثأر والإقدام،
ومصابيح الثريا تضيء في السماء»

(فولوشين، ١٩٠٨)

"يمنحنا التاريخ، إذ يكمل الطبيعة، ثلاث حواس أخرى: حاسة النسبية، وحاسة الارتقاء، وحاسة الانتقاد. تلكم هي الهبات الثلاث المهمة التي قدمتها، إلى جانب المفاتن، إلهة التاريخ كليو. ولعل تاريخ إفريقيا هو الأكثر عطاء من هذه الناحية. إنه يكشف لنا شعوباً مجهولة، ونمط تفكير غير مألوف، ويعرض علينا لوحة لا نظير لها للروابط والحضارات والهزات والاتصالات البشرية؛ ويتطلب الجهد (في ظل انعدام ترتيب زمني محدد) لاستخلاص الحقيقة من فوضى الأساطير والأوهام العجيبة. وهذا العمل لا يزال في مرحلته الأولى..."[١] من الصعب عدم الموافقة على هذا الاستنتاج الذي توصل إليه باحثون فرنسيون مشهورون في الشؤون الإفريقية. الدراسة الحقيقية لماضي "القارة السوداء" بدأت لتوها.

حتى أمد قريب كانت معلوماتنا عن تاريخ إفريقيا القديم تقتصر على جزئها الشمالي الواقع على امتداد ساحل البحر الأبيض المتوسط، ولا سيما مصر، ولكن كان يوجد جنوب غربي النيل وجنوبه عالم مدهش وخفي، وقبائل وشعوب مجهولة، وممالك جبارة وحضارات منسية. لم يتلق الأوربيون إلا في أواخر القرن التاسع عشر تصوراً كاملاً إلى هذه الدرجة أو تلك لمناطق إفريقيا النائية إلى الجنوب من الصحراء. فهل ثمة والحالة هذه ما يدعو إلى الدهشة لكون معلوماتنا عن أصل الثقافات الإفريقية القديمة، وتعاقبها الزمني وصلاتها الخارجية لا تزال محدودة، ولكون المؤلفات في هذه القضايا لم تظهر عموماً إلا منذ أمد قريب نسبياً. ومع ذلك، فإن المادة الآثارية والأثنوغرافية الفائقة الغنى التي تقدمها "القارة السوداء" فتحت منذ البداية إمكانيات واسعة لوضع شتى الفرضيات والمحاكمات النظرية.

توجه العلماء بحثاً عن الملامح المماثلة لثقافة القبائل المحلية ومؤسساتها الاجتماعية في عصر ما قبل كولومبس إلى معطيات القارات الأخرى. وبالتدريج، في عشرينيات وثلاثينيات القرن الحالي، أخذت تتكون وسط بعض الباحثين في الشؤون الإفريقية قناعة بأن سكان "القارة السوداء" زاروا العالم الجديد قبل كولومبس بقرون كثيرة.

(إفريقيا السوداء) تلتقي المكسيك القديمة

غالباً ما يستخدم أنصار فكرة الاتصالات القديمة ما قبل كولومبس بين سكان القارة الإفريقية السود وأمريكا أراضي المكسيك في محاكماتهم الفرضية، ولكن عدد العلماء الذين يذودون عن فكرة الاتصالات القديمة عبر الأطلسي بين سكان إفريقيا الاستوائية، والعالم الجديد لا يزال زهيداً حتى اليوم. وهذا مرتبط بجملة من الأسباب الموضوعية. **أولاً:** لم يبدأ، كما نبَّهنا، البحثُ بالشكل اللازم في الماضي ما قبل الاستعماري للشعوب الإفريقية إلا لتوه، ولا يزال الكثير من القضايا، حتى ذات الأهمية الحاسمة منها، بعيداً عن الحل النهائي. **ثانياً:** تنتشر على نطاق واسع في الأوساط العلمية قناعة بأن سكان "القارة السوداء"، الذين سكنوا إلى الجنوب من الصحراء، كانوا أناساً بريين بشكل صرف غير قادرين على القيام برحلات بعيدة في المحيط. **ثالثاً وأخيراً:** لا يجوز أن نسقط من الحساب أيضاً آراء التفوق الأوروبي التي لا يزال لها نفوذ إلى الآن في العلم التاريخي لبلدان الغرب، والتي تقول بأن القبائل والشعوب الزنجية لم يقدر لها "بالفطرة" أن تنجب بحارة مهرة وبناة لدول دينامية ومزدهرة.

تبذل الآن محاولات للبرهان على الصلات القديمة عبر الأطلسي بين القارتين بواسطة عدة حجج. وهي قبل كل شيء معطيات ذات طابع نباتي (نباتات مميزة لمنطقة عثر عليها في منطقة أخرى: القطن، التبغ، القرع

القاروري، المائيس- الذرة وغيرها). ثم تأتي مواد الأنتروبولوجيا الفيزيائية التي تصادف بناء عليها سمات زنجية وسط الهياكل العظمية للهنود الأمريكيين في عصر ما قبل كولومبس. وآخر ما يبرر ظهور فرضية تغلغل الأفارقة في العالم الجديد في أزمنة ما قبل كولومبس هو شهادات المصادر الكتابية "القاطعة"، كما يعتبر المتحمسون لهذه النظرية، على الرحلات البعيدة للأساطيل الإفريقية إلى أرجاء الأطلسي الزرقاء.

هذا مع العلم أن فترة هذه الاتصالات المكسيكية الإفريقية المكثفة تمتد زمنياً أمداً طويلاً: من عصر الثقافة الأولميكية في المكسيك (أعوام ١٥٠٠ - ١٠٠٠ ق.م) وحتى القرن الرابع عشر بعد الميلاد. ولما كان من المتعذر البحث بالتفصيل في كل النظريات من هذا النوع الموجودة في العلم، فإنني لن أتوقف إلا عند بعضها، الأكثر أهمية وأصالة، وللمزيد من المعلومات عن هذه القضية أحيل القراء إلى المؤلف المفيد للعالم الأمريكي فينغيرهات "من هو أول من اكتشف أمريكا؟"[٢].

كان ليو وينر، البروفسور الفيلولوجي من جامعة هارفارد (الولايات المتحدة) أول من فتح الموضوع الإفريقي بكل أبعاده عند النظر في قضايا الصلات بين العالمين القديم والجديد قبل كولومبس. فقد أصدر في أعوام ١٩٢٠- ١٩٢٣ كتاباً ضخماً من ثلاثة مجلدات بهذا العنوان الرنان "إفريقيا واكتشاف أمريكا"، حيث حاول أن يعلل على أساس التشابهات اللغوية، وشهادات المصادر الكتابية القديمة واقع تأثير "القارة السوداء" المتواصل والطويل في نشوء وتطور ثقافات الهنود الأمريكيين قبل كولومبس[٣]. ومن بين الحجج الأخرى، يسبغ ليو وينر مغزى خاصاً على ظهور تدخين التبغ في إفريقيا قبل كولومبس بزمن طويل، والتبغ، كما هو معروف، نبات أمريكي بحت.

في عام ١٩٣٠ أكد الفرنسي كوفيه، وذلك مثلاً، في كتابه "البربر في أمريكا" أن سكان هذه المنطقة الإفريقية الشمالية قد قطعوا الأطلسي مراراً، ممارسين تأثيراً ملحوظاً في سكان العالم الجديد الأصليين. والبرهان على ذلك مجرد تطابقات خارجية في تسميات الشعوب والأماكن: مثلاً، قبائل ليبي في بوليفيا تعادل الليبيين القدماء، وموزغو من الصحراء الكبرى تحولوا على التربة الأمريكية إلى موسكوك وموك وموسكيتو وموخو وموشكا إلى آخره وهلم جراً.

أما الأمريكي هريس (عام ١٩٣٦) فحاول، من جانبه، أن يبرهن على أن الطوبونيميكا[1] في منطقة ساحل خليج المكسيك، وفي جزر انتيل مماثلة للطوبونيميكا الإفريقية الشمالية. بيد أن هذه "الحيل" اللغوية مجردة حتى من أقل ظل للتناول العلمي؛ إذ إن لغات الهنود الحمر القدماء لا تشبه سواء من حيث بناء قواعدها أو من حيث مفرداتها اللغات الهندية- الأوروبية ولا اللغات الإفريقية. إنها مجموعات لغوية مختلفة تماماً، وإذ "يتلقف" المنظرون المزيفون التطابقات اللفظية العرضية، يرتكبون أفدح خطأ منهجي، مما يجر وراءه، طبعاً، استنتاجات زائفة.

في الوقت الحاضر يبرز المدعو ليغراند كليغ بمثابة أكثر الأنصار تحمساً لآراء وينر المعدلة بعض الشيء، فهو إذ يعتمد على وقائع "لا غبار عليها"، حسب قوله، من الأنتروبولوجيا الفيزيائية وعلم الآثار والفولكلور والتاريخ والفن، يؤكد أن مجموعات المهاجرين الزنجية أتت إلى العالم الجديد منذ أزمنة سحيقة في القدم، لم تأت قبل الأوروبيين فحسب، بل

(١) علم يدرس التسميات الجغرافية ومعناها وتركيبها واصلها ومنطقة انتشارها. المترجم

وقبل المغول بأمد طويل، المغول الذين يعتبرون "أسلاف" سكان أمريكا الهنود. بالنسبة إلى كليغ حتى الأستراليون، القبائل السوداء ذات الشعر الكثيف، - مجرد شكل للزنوج الأفارقة، ولا يتورع أيضاً عن أن يعلن أمام كل العالم المشدوه أن حضارة الأولميكيين، أول ثقافة رائعة، ورفيعة التطور في المكسيك قبل كولومبس، قد أقامها قادمون من "القارة السوداء" على وجه الحصر[٤].

وللبرهان على الاتصالات بين أمريكا وإفريقيا يستخدم في أحيان كثيرة بعض المنحوتات المكسيكية القديمة التي تنطوي، كما يزعم، على شبه خارجي أكيد بصورة الأفارقة ("الرؤوس" الحجرية العملاقة لثقافة الأولميكيين على ساحل خليج المكسيك، التماثيل الفخارية والأنصاب الحجرية لهنود الناوا والسابوتيكيين والتوتوناكيين والمايا وغيرهم في وسط وجنوب المكسيك).

في عام ١٨٦٩ ظهرت في "نشرة الجمعية المكسيكية للجغرافية والإحصاء" ملاحظة صغيرة بتوقيع ملغار، وقد أكد مؤلفها، وهو مهندس من حيث المهنة أنه وفق في عام ١٨٦٢ في العثور قرب قرية تريس سابوتس (ولاية فيراكروس، المكسيك) في مزرعة لقصب السكر على منحوتة عجيبة لا تشبه كل المنحوتات المعروفة حتى ذلك الحين، وهي عبارة عن رأس "إفريقي" منحوت من الحجر. وكانت الملاحظة مرفقة برسم دقيق للمنحوتة نفسها، فكان كل قارئ يستطع أن يحكم على مزاياها، ولكن ملغار لم يستخدم أبداً لقيته غير العادية على أفضل نحو، فقد أعلن فجأة في عام ١٨٧١، مستنداً إلى المظهر "الأثيوبي الواضح" للمنحوتة التي اكتشفها:

"أنا على قناعة مطلقة بأن الزنوج زاروا هذه الأصقاع مراراً، وقد حدث هذا منذ العصر الأول لخلق العالم". ينبغي القول أن هذا الرأي لا يقوم على أي أساس، ولكنه كان يتجاوب تماماً مع روح النظريات التي كانت سائدة في العلم حينذاك، والتي تفسر كل إنجاز للهنود الأمريكيين بتأثير ثقافي من العالم القديم.

بعد هذا عثر مراراً على رؤوس حجرية عملاقة بخوذ منحوتة من كتل البازلت في شتى مناطق ولايتي فيراكوس وتاباسكو المكسيكيتين (ساحل خليج المكسيك)، واتضح أنها جميعاً (يعرف منها الآن ١١ منحوتة) تعود إلى حضارة الأولميكيين القديمة التي ازدهرت حسب رأي بعض المؤلفين في الألف الأول ق. م (أعوام ٨٠٠ - ٤٠٠ ق.م)، وحسب رأي غيرهم، في الفترة من القرن الثالث عشر إلى القرن العاشر ق.م. والاطلاع المباشر على هذه المنحوتات يدفع إلى الإنكار الحاسم لتشابهها الظاهري مع النمط العرقي الزنجي. وفي الواقع، فإن الأفارقة، كقاعدة عامة، أناس لهم رؤوس مستطيلة مع بروز شديد للجزء الأسفل من الوجه، في حين أن المنحوتات الأولميكية تصور، على العكس، نمط إنسان مغولي، مستدير الرأس[٥]. ويمكن العثور إلى الآن في الأدغال المستنقعية لجنوب المكسيك على هنود حمر أصلاء يشبهون تماماً تماثيل الأولميكيين القديمة.

والحجة الأخرى التي تتردد غالباً في مصلحة رحلات الأفارقة إلى أمريكا الوسطى قبل كولومبس هي تصوير أناس سود على الآنية الفخارية المزخرفة وعلى فريسكات المايا القدماء، ولكن تفسير هذه الظاهرة الغريبة بسيط جداً، إذ يبدو جيداً في كل الرسوم أن أناساً يساهمون في طقوس دينية قد طلوا وجوههم وأجسامهم باللون الأسود، ولكن جزئياً لا كلياً.

كان اللون الأسود يعتبر عند المايا لوناً مقدساً ومشؤوماً. وغالباً ما كانوا يستخدمونه لطلاء الكهنة الذين كان عليهم أن يساهموا مباشرة في الطقوس الدامية لتقديم القرابين البشرية، وكان لآلهة الصاعقة والحرب والموت هذا اللون كذلك.

في عام ١٩٦١ عثر سبيليولوجيان[١] من الولايات المتحدة مصادفة على منحوتة حجرية قديمة غريبة لإنسان ذي مظهر "زنجي" في كهف لولتون في شبه جزيرة يوكاتان (المكسيك). وهذا ما أعلنته بعض الرؤوس الفارغة على الفور برهاناً "متيناً" على إقامة الزنوج في بلاد المايا القدماء. وبعثت إلى الحياة الأسطر المنسية منذ زمن بعيد من مخطوطات المايا القديمة حول قدوم أناس سود مفترسين يلتهمون لحم البشر من الشرق، من جهة البحر. بيد أن الاختصاصيين دحضوا على الفور هذه الاختلاقات السخيفة، مبينين بما لا يقبل الشك أن الحديث في أسفار المايا يجري عن إحدى غارات أكلة لحوم البشر الكاريبيين، السكان المحاربين لجزر انتيل[٦].

أحياناً يقوم المؤلفون المعاصرون بمبالغة ومغالاة واضحتين، مسترشدين بأفضل البواعث للبرهان على القدرة الكبيرة للانجازات الثقافية لسكان إفريقيا الاستوائية القدماء، وهكذا يؤكد هارولد لورنس في مقالة "الفاتحون الأفارقة الأوائل للعالم الجديد" إن القبائل الزنجية اكتشفت واستوطنت أمريكا قبل رحلات كولومبس وفسبوشي بأمد طويل، ويستند دعماً لآرائه إلى "الملامح الزنجية الواضحة" في الصور البشرية للفن

---

(١) السبيليولوجي أي المختص في السبيليولوجيا (Speleology)، وهي دراسة المغاور والكهوف أواكتشافها. المترجم

المكسيكي القديم، وعلاوة على ذلك، كما يقول لورنس، ألم يعثر في العالم الجديد على مدافن لأناس ذوي مظهر زنجي واضح (في وادي نهر بيكس وفي تكساس وجزر فرجينيا)؟

بيد أن الأبحاث الاخيرة في هذا الميدان دحضت تماماً البنى النظرية المتزعزعة للمدافع عن العبقرية الإفريقية المتغلغلة في كل شيء. إذ إن الأنتروبولوجي إيلبين ماتسن (الولايات المتحدة) وزملاءه درسوا مؤخراً فئات دم الهنود الأمريكيين، وبرهنوا بما لا يقبل الجدل أن السكان الأصليين للعالم الجديد ليسوا أعقاباً لأفارقة أتوا قديماً إلى النصف الغربي من الكرة الأرضية؛ لأنه لا توجد في دمهم أية عناصر مميزة لفئات الدم الزنجية[٧].

وأدى بعض المؤلفين الروس أيضاً قسطهم في هذا الصخب "الإفريقي العام". وهكذا، فإن المرشحة في العلوم التاريخية لفوفا، المعروفة بمؤلفاتها في تاريخ وأثنوغرافيا إفريقيا، شرعت أيضاً بصورة مفاجئة في البحث بإصرار عن الجذور "الزنجية" للحضارات الأمريكية القديمة، واستخدمت في غضون ذلك حجج المؤلفين الذين أتينا على ذكرهم بمن في ذلك لورنس. تؤكد لفوفا أن "الإسبان قابلوا في أمريكا حيوانات لا يعرفونها، وهي الكلاب التي لا تنبح. وبناء على آخر المعلومات، لم يقابل الأوروبيون حيوانات كهذه إلا في مكان واحد من العالم، وهو إفريقيا الغربية... ولا يسعنا أيضاً إلا أن نشير إلى المواضيع "الإفريقية" المصورة في فن أمريكا التشكيلي. إنها المنحوتات في تشيتشن- إيتسا التي تصور أشخاصاً طوالاً ذوي رؤوس ضيقة، وشفاه غليظة، وشعور قصيرة جعداء تشبه الصوف..."[٨]

البراهين الواردة هنا في مصلحة الصلات الأفرو- أمريكية عبر الأطلسي لا تصمد، للأسف، في وجه أي انتقاد.

أبدأ بالبرهان القائم على "الكلاب الأمريكية التي لا تنبح". كانت الحيوانات من هذا النوع منتشرة على نطاق واسع للغاية في كل العالم، بما في ذلك أمريكا (وهي موجودة سواء في شمال القارة أو في جنوبها)، ومن المستبعد أنها نشأت من مصدر واحد. والأرجح أنها نشأت بصورة مستقلة تماماً في شتى مناطق كوكبنا.

والتماثيل ذات الملامح "الزنجية" التي ذكرتها الباحثة (تشيتشن- إيتسا، شبه جزيرة يوكاتان، المكسيك، ثقافة المايا في الفترة من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر) ينبغي على الأرجح النظر إليها كشيء طريف، لا كبرهان جدي في نقاش علمي، وفحوى الأمر أن الناس ذوي "الشعر القصير الأجعد الذي يشبه الصوف" المصورين في الرسوم النافرة والأقراص النحاسية- الذهبية في تشيتشن- إيتسا ليست لهم شعور وتسريحات "إفريقية" ولا ملامح وجه "زنجية". وقد رسمت على رؤوسهم قبعات أو خوذ مستديرة موبرة (لعلها من الفرو)، وهي جزء نموذجي لعدة وملابس المحارب التولتيكي، وكانت فيالق الغزاة التولتيكيين قد انطلقت في القرن العاشر من أواسط المكسيك، واقتحمت أراضي المايا، واستقرت هناك في شبه جزيرة يوكاتان، محولة مدينتهم تشيتشن- إيتسا إلى عاصمة لها[٩].

والآلية الطريفة لظهور بعض "الحجج" من هذا النوع تبينها جيداً "لقية لمادة إفريقية قديمة" في السلفادور "على عمق أكثر من مترين تحت سطح الأرض"[١٠].

قرر الآثاري المحترف المحلي ستينلي بوغس التأكد من صحة اللقية وتوجه إلى بلدة كولن (السلفادور). اتضح أن "المادة ذات المنشأ الإفريقي" موجودة فعلاً وقد عثر عليها، حسب قول صاحبها، في "طبقة لم تمس من الأرض" على عمق أكثر من مترين، مما يشير بوضوح إلى قدمها الشديد. وقد صنعت المادة من ناب برنيق معقوف طوله نحو ١٩ سم ويصور حيواناً محوراً (تمساحاً أو أفعى؟) يلتهم امرأة عارية. هذا الشيء، بناء على استنتاج خبراء ثقة، ذوي أصل إفريقي فعلاً، وصنع على الأرجح في الكونغو الشرقي، ولكن... ليس قبل أواخر القرن الرابع عشر ب.م)!

بين تفقد مكان اللقية أنه عثر على هذه المادة قرب طريق، في طبقة غبار بركاني أهيل من خندق مجاور عند القيام بأعمال ترابية، مما سبب هذا العمق البالغ مترين. وكان يقع على مقربة من الخندق في القرن التاسع عشر بيت عقيد يهوى جمع الأسلحة القديمة والأشياء النادرة الأخرى، وليس ثمة أي شك في أن هذا الشيء من مقتنياته[11]. تلكم هي النهاية المحزنة لهذا "الاكتشاف". ولكن سبق السيف العذل. انتشرت الشائعات عن اللقية على نطاق واسع وتغلغلت في الجرائد المحلية، وأصبحت "التحفة السلفادورية" لدى أكثر أنصار النظرية الانتشارية حماسة "حجة" أخرى في مصلحة التأثيرات الإفريقية في أمريكا قبل كولومبس.

إلى جانب المواد الأنتروبولوجية الخارقة التي أشرنا إليها ("الهياكل العظمية الزنجية" في بيكس، الولايات المتحدة، وجزر فرجينيا ووادي مكسيكو)، تستخدم في حالات كثيرة جداً في النقاش حول صلات إفريقيا بأمريكا قبل كولومبس حجة أخرى، وهي "وجود" ملامح عرقية زنجية أكيدة" في الصور البشرية في المكسيك القديمة، ولا سيما التماثيل التراكواتية

السيراميكية في قبور الأولميكيين والناوا والتوتوناكيين والسابوتيكيين والميشيتكيين والمايا الهنود.

جمع المختص في الفنون والدبلوماسي الألماني الكسندر فون فوتينا في سنوات حياته العاصفة مجموعة ضخمة من مثل هذه التحف، وصاغ آراءه حول موضوعنا هذا في كتابين بإخراج بهي: "فن التراكواتا في أمريكا الوسطى والجنوبية قبل كولومبس[١٢] و"وجوه مفاجئة في أمريكا القديمة، عام ١٥٠٠ ق.م - عام ١٥٠٠ ب.م"[١٣]. المسلمة الرئيسة للدبلوماسي-الآثاري بسيطة ودامغة: كيف استطاع الصناع الهنود الحمر تصوير الوجوه وتفاصيل الحلي والملابس "الإفريقية النموذجية" من غير أن يروا "نموذجها الحي"، أي الأفارقة أنفسهم؟ [١٤]

ولكن من حدد وأين ومتى بمعايير دقيقة "النمط العرقي" للآسيوي والإفريقي والأوروبي إلخ؟ إلا يعرض السكان الأصليون للعالم الجديد تنوعاً كبيراً للنمط الجسدي والشعر، ولون البشرة والطول، والسمات الأخرى على امتداد كل أراضي هذه القارة من آلاسكا إلى أرض النار؟ ثم إن الأنتروبولوجيين أنفسهم قرروا بالإجماع، بعد مناقشات طويلة ودراسة دقيقة للوقائع، أن الكثير من الملامح الوراثية للسكان الأصليين الأمريكيين أتت إلى أمريكا عبر مضيق بهرنغ وآلاسكا مع الموجات الأولى للمهاجرين من شمال شرقي آسيا. وكانت بين هؤلاء الصيادين وجامعي النباتات البدائيين عناصر مغولية وزنجية وأوروبية. وسيل الهجرة الجبار من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي جر وراءه علاوة على الحشد الغفير من المغول، بعض المجموعات الزنجية التي كانت تعيش على شكل جيوب منعزلة في الأصقاع الآسيوية. ولهذا فإن الهياكل العظيمة (وكذلك الصور- المؤلف)

الزنجية ليست برهاناً على أن أساطيل أو سفناً على حدة قطعت جنوب الأطلسي في الأزمنة السابقة لكولومبس"[١٥].

ومع ذلك فان أكثر الحجج جدية في مصلحة الصلات الأفرو- أمريكية هي المعطيات البيولوجية أو بالأحرى النباتية: لقيات النباتات المميزة للمنطقة والمكتشفة في زمن ما قبل كولومبس في أراضي منطقة أخرى. ولا شك في أن الدور الرئيس بينها يعود إلى المائيس (الذرة)، النبات الأمريكي البحت، كما هو معروف، الذي يزرعه هنود المكسيك وبيرو منذ الألف الخامس ق.م تقريباً. وطلع المائيس البري، الذي تم الحصول عليه من بئر عميق الغور في أراضي مدينة مكسيكو، يبلغ من العمر حسب تقدير الاختصاصيين، نحو ٨٠ ألف سنة، أي قبل ظهور الإنسان في العالم الجديد بأمد طويل![١٦]

كان يعتبر إلى الآن أن البرتغاليين جلبوا المائيس إلى إفريقيا بعد فتوحاتهم في أمريكا الجنوبية (البرازيل) في القرن السادس عشر أو بعده.

ولكن الآثاري غورفين اكتشف فجأة إبان حفرياته في مدينة إيفي (نيجيريا)- عاصمة دولة اليوروبيين القديمة - عدة كسر لآنية من السيراميك مزخرفة ببصمات أكواز الذرة. ويبدو أن كوز الذرة وضع على الطين الطري قبل شيّه. وهرع آثاري متحمس آخر، وهو جفريس، ليحدد بدقة عمر هذه الكسارات، قائلاً إنها تعود إلى أعوام ١٠٠٠ - ١١٠٠ ب.م، وينجم عن هذا أن قبائل اليوروبيين في إفريقيا الغربية عرفت النبات الأمريكي الصرف الذرة، قبل ٤٠٠- ٥٠٠ سنة من رحلة كولومبس[١٧]. فكيف وصلت إلى "القارة السوداء"؟ من نقلها ونشرها؟ وأخيراً، هل حدد بدقة عمر هذه اللقية المهمة؟

لم يطرح السؤال الأخير أبداً بدافع الموضة الأرخيولوجية المعاصرة في تأريخ كل ما يقع تحت اليد. عمرها على أساس الوسائل التقنية المتقنة بدقة يصل إلى قرن أو نصف قرن أو حتى ربع قرن، إذ يتوقف على هذا السؤال الجواب النهائي: هل أقام سكان "القارة السوداء" اتصالات بالهنود الحمر عبر المحيط أو لا؟، ولا سيما أننا نعرف أن قضايا الترتيب الزمني والتقسيم إلى مراحل في تاريخ إفريقيا قبل كولومبس لا تزال بعيدة عن حلها النهائي، ولا تشذ عن هذا اللقيات في مدينة إيفي.

كانت الكسر التي عليها بصمات المائيس، تشكل مع الألوف من كسر السيراميك الأخرى، بلاطاً في أحد أحياء المدينة، وكان الترتيب الزمني والتقسيم إلى مراحل عند اليوروبيين يقوم قبل كل شيء على تعاقب عهود شتى سلالات الملوك. ففي عهد أي ملك ظهر البلاط السيراميكي؟ لا يزال من المستحيل، للأسف، الإجابة عن هذا السؤال. فمن أين ظهر إذاً تاريخ أعوام ١٠٠٠ - ١١٠٠ ب.م؟ استنتجه جفريس على نحو افتراضي بحت على أساس المحاكمات التالية: تقول بعض روايات اليوروبيين القديمة إن أول عاصمة لهذه الدولة الإفريقية كانت تقع في إيلي إيفي (أي في إيفي). ولكن إبان حكم الملك الرابع للسلالة المحلية نقلت العاصمة إلى مدينة أويو. ومن المعروف، بناء على مصادر أخرى أن البلاد اجتاحها بين عامي ٦٠٠ و١٠٠٠ ب.م دخلاء من الشرق اسسوا إيلي إيفي، ثم يستخدم هذا الأسلوب البسيط: تضم الروايتان نصف الغامضتين الواحدة إلى الأخرى، ويحدد زمن وجود إيلي إيفي بمثابة عاصمة بعام ١٠٠٠ ب.م. وثمة كذلك شهادات على أن مدينة أويو أسست نحو عام ١٠٠٠ ب.م. وقد عثر على

المائيس في إيفي، أي إن تاريخ الطبقة التي أخذت منها الكسر ليس بعد أعوام ١٠٠٠ - ١١٠٠ ب.م[١٨].

يمكن، في غضون ذلك، حتى من غير أن نأخذ في الاعتبار حسابات جفريس الزمنية المشتبه فيها، ان نستشهد هنا بالانتقادات التي وجهها إلى فكرة وجود المائيس في الأرض الإفريقية قبل كولومبس عدد من العلماء بينهم فرنك ولت الذي برهن بالوقائع على مساهمة البرتغاليين الواضحة في إدخال هذا النبات الزراعي الثمين في غرب "القارة السوداء"[١٩]. وأعرب مؤلفون آخرون عن افتراض يقول بأنه لم "يدحرج" على الطين الطري كوز مائيس، بل صنف مماثل آخر من الحبوب كالسورغو مثلاً.

ولكن كل ذلك كان عبثاً، فالخبر المثير عن نقل أكواز الذرة إلى إفريقيا عبر المحيط قبل كولومبس بمدة ٤٠٠ - ٥٠٠ سنة حظى في سنوات معدودة بانتشار واسع في كل أرجاء المعمورة، ولا يزال إلى الآن يتنقل بنجاح من كتاب إلى كتاب رغم اعتراضات الاختصاصيين.

النبات الآخر المستخدم عادة للبرهان على الصلات الافرو- أمريكية قديماً هو القرع القاروري (Lagenaria siceraria) الذي يعتبر نباتاً إفريقياً صرفاً. ولكن الأوروبيين الأوائل الذين قدموا إلى العالم الجديد في القرن السادس عشر ب.م اكتشفوا بدهشة أن هذا النبات شائع بين الهنود الحمر. فهل يعني هذا وجود صلات قديمة عبر المحيط؟ لن نتسرع بالاستنتاجات.

فحوى الأمر أنه عثر الآن على بقايا بذور للقرع القاروري في كهوف المكسيك الجبلية في طبقات تعود إلى أعوام ٧٠٠٠ - ٥٠٠٠ ق.م[٢٠]. لم يؤكد إلى الآن حتى أكثر المتحمسين لفكرة الاتصالات قبل كولومبس أن سكان

إفريقيا البدائيين كانوا يستطيعون اجتياز المحيط في ذلك الزمن. لا يسلم، كما نعرف، بوجود اتصالات كهذه إلا منذ عام ١٥٠٠ ق.م (الأولميكيون والرؤوس الحجرية "الزنجية"). وعلاوةً على ذلك، فإن التجارب الطويلة التي أجراها العالمان ويتاكر وكارتر على بذور القرع القاروري برهنت على أن هذه الأخيرة يمكن أن تبقى في ماء البحر المالح من غير أن تفقد خصائصها أكثر من ٢٢٥ يوماً، وهي مدة كافية تماماً للانسياق الطبيعي من إفريقيا إلى الشواطئ الأمريكية[٢١].

اختفوا في البحر أو الأسطول الضائع للسلطان المالي

(أوائل القرن الرابع عشر ب.م)

الحالة الوحيدة الموثوق بها إلى هذه الدرجة أو تلك في صدد محاولة الأفارقة عبور الأطلسي ورؤية ما يوجد "على الطرف الآخر للمحيط" وصلت إلينا في روايات المؤلفين العرب من القرن الرابع عشر بعد الميلاد عن إقلاع أسطول سلطان مالي من مصب النيجر إلى الغرب واختفائه أو هلاكه لاحقاً. بيد أن هذا الحدث على درجة من الأهمية بالنسبة إلى موضوعنا مما يجعل من الأفضل التوجه إلى المصادر الأولى مباشرة.

"سألت السلطان موسى كيف انتقلت إليه المملكة فقال: عن أهل بيت تتوارث الملك، وكان الذي قبلي لا يصدق أن البحر المحيط (المحيط الأطلسي) لا يمكن الوقوف على آخره. وأحب الوقوف على هذا وولع به، فجهز مراكب مملوءة من الرجال أمثالها مملوءة من الذهب والماء والزاد يكفيهم سنين.

وقال للمسافرين فيها: "لا ترجعوا حتى تبلغوا نهايته وتنفد أزوادكم وماؤكم".

فساروا وطالت مدة غيبتهم لا يرجع منهم أحد حتى مضت مدة طويلة، ثم عاد مركب واحد منها، فسألنا كبيرهم عما كان من؟ أثرهم وخبرهم، فقال:"تعلم، أيها السلطان، أنا سرنا زماناً طويلاً حتى عرض في

لجة البحر واد له جرية قوية. وكنت آخر تلك المراكب، أما تلك المراكب فإنها تقدمت، فلما صارت في ذلك المكان ما عادت ولا بانت، ولا عرفنا ما جرى لها. أما أنا فرجعت من مكاني ولم أدخل ذلك الوادي". فأنكر عليه. ثم إن ذلك السلطان أعد ألفي مركب: ألفاً له وللرجال اصطحبهم معه، وألفاً للزاد والماء، ثم استخلفني وركب بمن معه في البحر المحيط، وسافر فيه.

وكان آخر العهد به وبجميع من معه، واستقل لي الملك". (هذا الخبر عن السلطان الإفريقي موسى نقله ابن فضل الله العمري. القرن الرابع عشر).[٢٢]

ولكن اتضح أن المصادر الأولى أيضاً يمكن تفسيرها من مواقع متباينة. إليكم ما تكتبه، مثلاً، في هذا الخصوص لفوفا، التي أتينا على ذكرها، وهي مؤرخة مختصة في الشؤون الإفريقية من جامعة لومومبا للصداقة بين الشعوب في موسكو:

"قدر العلماء هذا القول على نحو متباين. نظر إليه البعض كتلفيق خيالي معد لإثارة دهشة القارئ. بيد أن أغلب العلماء يفترضون أن من الممكن أن أحداثاً حقيقية انعكست هنا. لا بد وأن الأسطول في هذه الحالة أقلع من مصب نهر السنغال أو من غينيا. وقد أعرب عن افتراض يقول بأن "الوادي في لجة البحر" الذي تحدث عنه قبطان السفينة الناجية هو نهر الأمازون الذي يقذف بمائه بعيداً في عرض البحر. كانت دولة مالي في ذلك الحين أغنى وأقوى دولة في إفريقيا، وكانت تستطيع منافسة الخلافة العربية. كان حكامها يقبضون على مفتاح مناجم الذهب والملح؛ وكانوا ينالون أرباحاً طائلة من التجارة. وقد نقل الحاكم موسى معه إبان رحلته ١٠٠ رحل من الذهب في كل منها ٣ قناطير (القنطار وحدة وزن تعادل ٤٢,٣٣ كغ). ووزع من الهدايا الثمينة، ودفع من الأسعار ما جعل سعر الذهب في سوق

القاهرة يهبط بشدة. كانت دولة مالي تشغل جزءاً كبيراً من إفريقيا الغربية، مطلة على ساحل المحيط الأطلسي بين سالوم وريو غرانديه... وننوه كذلك بأن التيارات والرياح الثابتة الاتجاه تساعد على هذه الرحلة عبر المحيط، مع العلم أنه يمكن الوصول من إفريقيا الغربية، من غير مقاومة العوامل الطبيعية، إلى الشواطئ الشمالية الشرقية لأمريكا الجنوبية في منطقة انصباب الأمازون في المحيط الأطلسي (أتذكرون حديث قبطان السفينة الناجية من مالي عن التيار القوي في عرض البحر؟). ولكن الطريف أن دولة مالي كانت تقع في عمق القارة الإفريقية، ولم يصبح البحر حدودها الغربية إلا بعد العديد من الفتوحات وبجهود كبرى. فمن أين للسلطان محمد (وهو بالذات الذي كان سلف كانكو موسى) هذه القناعة الراسخة بأن من الممكن تماماً الوصول إلى شاطئ المحيط الخفي والمجهول؟ هنا ينبغي تذكر جيران مالي الشماليين، الدول العربية. في ذلك الزمن ساد الإسلام في مالي؛ وكان العلماء يعيشون في بلاط الحاكم، وغدت مدن تمبكتو وجينكي وغاو مراكز للثقافة والتعليم الإسلاميين، وهذا الزمن هو العصر الذهبي للجغرافية العربية. ومن المعروف جيداً أن الحكماء العرب كانوا يعرفون حينذاك جزر أسور وجزر كناريا على حد سواء... لعل العرب أنفسهم زاروا أمريكا ووصلت هذه الأخبار إلى مسامع السلطان محمد؟[٢٣].

سنتحدث فيما بعد عن الملاحة العربية، ورحلات مراكب التجار العرب من شمال إفريقيا إلى الغرب، إلى رحاب الأطلسي، أما هنا فمن المناسب التنويه بمحاولة لفوفا الجريئة حل لغز صعب (اختفاء أسطول السلطان المالي) بواسطة قرنه بلغز آخر لا يقل تعقيداً (زيارة العرب لأمريكا قبل كولومبس).

يبدي العالم الإنكليزي فان سيرتيما في كتابه "قدموا قبل كولومبس" جرأة أكبر في تفسير قصة أسطول السلطان المفقود، ولكنه لا يسمي السلطان المالي المفقود محمداً، بل أبا بكر الثاني، ويكتب بثقة أن قوارب الأفارقة المجوفة قطعت المحيط بسلام، ورست في شواطئ المكسيك، ممارسة هناك تأثيراً ملحوظاً في تطوير الثقافة المحلية والبراهين؟ أوه، إنها كثيرة، وكثيرة جداً. فهنا الإله المكسيكي كيتسالكواتل الذي يصور عادة بلحية سوداء، وملابس بيضاء طويلة. وهنا الإناء الفخاري الميشتيكي على شكل رأس زنجي (ولاية واخاكا، المكسيك). وهنا أيضاً المواضيع والصور "الزنجية" الأخرى التي تحدثنا عنها سابقاً[٢٤].

فهل ثمة ما يبعث على الدهشة بعد كل هذا أن يصل المؤلف إلى الاستنتاج الآتي: "كان الأطلسي بحراً مفتوحاً، وسهل المنال قبل رحلات كولومبس بأمد طويل"[٢٥]. أذكر بأن الحديث يجري عن أن المحيط كان مفتوحاً وسهل المنال للبحارة من "القارة السوداء"، لا من البحر الأبيض المتوسط.

سيكون من المناسب تماماً أن نورد هنا تعليق أكبر عارف بالجغرافية التاريخية، ريخارد هنيغ على قصة الأسطول المفقود للسلطان المالي.

يكتب قائلاً: "هذا الحدث الذي جرى في العالم الإفريقي في أوائل القرن الرابع عشر مثبت جيداً ومعقول تماماً. نحن نعرف هذه القصة الغريبة من كتاب القاهري ابن فضل الله العمري (أعوام ١٣٠١ - ١٣٤٨) الذي وضع موسوعة واسعة تحمل التسمية الطويلة الرنانة "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار". وهي تتضمن أخباراً عن والي القاهرة حينذاك المصري ابن عامر الحاجب وعن مغامراته في سنة ٧٢٤ هجرية (عام ١٣٢٤ ب.م).

وفي تلك السنة قابل السلطان موسى، حاكم دولة مالي الزنجية الكبيرة في حوض النيجر. وقد قام موسى كمسلم تقي، بتأدية فريضة الحج إلى مكة، وقام في غضون ذلك بزيارة القاهرة أيضاً...

كانت دولة مالي ومراكزها الرئيسة تقع على بعد ١٠٠٠ كم عن البحر. وحينما بلغت أوج جبروتها كانت تمتد من وادي باني إلى وادي فاليمي ومن الصحراء (الكبرى - المؤلف) إلى حدود الغابة الاستوائية. وهكذا، لم تصل هذه الدولة إلى خليج غينيا، ولم يتغلغل الإسلام أيضاً إلى أبعد من سيراليون. مع مراعاة هذه الظروف يبقى الكثير غير مفهوم تماماً في القصة التي تحدث عنها العمري.

كانت الملاحة غريبة تقريباً عن كل شعوب إفريقيا الاستوائية. لم يكن عندها حافز على الرحلات البحرية البعيدة واقتصرت، حسب علمنا، على صيد السمك الساحلي البدائي. ويبقى بعيداً عن إدراكنا من باب أولى أن يرسل السلطان الإفريقي ألفي سفينة دفعة واحدة في رحلة في المحيط. قبل كل شيء من غير المفهوم تماماً من أين استطاع حاكم بلد بعيد عن البحر أن يحصل على هذا الأسطول الجبار وأين تسنى له أن يجمع هذا العدد من البحارة المحنكين الضروريين لهذه الرحلة الاستكشافية المفترضة عبر "مياه المحيط المتدفقة بعمق"؟!

بيد أن الخبر لا يتحدث إلا عن المراكب المرسلة بدون وصفها. يبدو أنه لم يكن عند سلطان مالي ألفا مركب بحري، والأرجح أنه لم يملك أي مركب كهذا. من الواضح أن المراكب الألفين كانت في الواقع قوارب نهرية للتنقل على النيجر. وإذا كانت البعثة "لتحديد طول المحيط" قد جرت فعلاً، فلا

ينبغي أن تدهشنا نتيجتها التراجيدية، ومصرع السلطان نفسه الذي استولت عليه الرغبة في الأبحاث. كان بين الأسطول الموجود تحت تصرفه ومقاييس المهمة الموضوعة بون شاسع إلى درجة لا تظهر معها فكرة هذا الإجراء الانتحاري إلا في ظل الجهل المطلق بالمحيط والأخطار الكامنة فيه.

وواقع أنه استخدمت في تلك الرحلة قوارب عادية ذات مجاذيف ينبع من الاعتبارات الآتية، حسب علمنا، لم تكن عند الشعوب الأصلية لإفريقيا الغربية مراكب شراعية في يوم من الأيام، ولكن لو جرؤ الأفارقة حقاً على الانطلاق إلى عرض البحر على مراكب شراعية، ووصلوا إلى منطقة الرياح التجارية لما استطاعوا، ولا شك، العودة إلى الوطن، ولكن إلى أي مدى انطلقت في المحيط القوارب ذات المجاذيف للأفارقة الذين يجهلون البحر، فامر نستطيع أن نخمنه فقط!

المؤلف متفق من هذه الناحية مع هومبلدت، ولهذا وقف ضد التأكيد القائل بأن البحارة الأفارقة استطاعوا الوصول إلى أمريكا إبان ممارستهم القرصنة، أو لأن عاصفة قذفت بهم إلى هناك. ما لبث بيدرو مارتير أن طرح هذه الفرضية بعد اكتشافات كولومبس، وحينما عثر بالبوا في برزخ دارين على سكان أصليين ذوي بشرة سوداء تقريباً انضم فرانسيسكو لوبس غومارا إلى هذا الافتراض، وخلافاً لهذا أشار هومبلدت إلى أن "الزنوج الأفارقة لم يمارسو أبداً القرصنة في عرض البحر، بل كانوا يقتصرون على استخدام القوارب الصغيرة لصيد السمك عند الشواطئ"[٢٦].

ولهذا من غير المفهوم على الإطلاق كيف يستطيع أحمد زكي باشا، المعلق على كتابات العمري، أن يتحدث عن "محاولات الوصول إلى

أمريكا" أو حتى يطرح هذا السؤال الساذج بعض الشيء: "ألا يجوز أن نقدم على افتراض خطر جداً، وهو أن بعض هؤلاء الباحثين الشجعان الذين دفعتهم الأمواج استطاعوا الوصول إلى أمريكا، وبعد ذلك اندمجوا في السكان الأصليين أو أسسوا أول مستوطنة سوداء في العالم الجديد؟"[٢٧] لهذا السؤال جواب واحد فقط: نعم هذا الافتراض خطر جداً، بل وخطر للغاية!.. مهما كان الأمر، فإن رحلة السلطان كانت محاولة بوسائل غير صالحة بالمرة، وإجراءً طريفاً، ولكنه متهور، وما كان له إلا أن يسفر عن النهاية التي انتهى إليها. ومع ذلك، فإن نيات السلطان الواسعة تستحق الإطراء، رغم كل هذه الاعتبارات، وهي طريفة جداً من وجهة النظر الثقافية التاريخية.

لا نستطيع أن نقول أية مياه مخرت سفنه. وإذا كانت هذه السفن قوارب من نهر النيجر بالفعل...، فقد غرقت، على الأرجح، وهي لا تزال عند المصب... لعله كان يمكن للكارثة أن تقع بعد الانطلاق إلى البحر مباشرة.

لم يذكر في مؤلف العمري اسم السلطان الإفريقي ذي المراس، ولا يمكن تحديد تاريخ الحادثة إلا بصورة تقريبية. روى هذه الحادثة موسى، سلطان مالي العظيم، الذي أطلق عليه لا- رونسير بأحكام شديد لقب "نابليون الصحراء". وقد حكم من عام ١٣٠٧ إلى عام ١٣٣٢. وخلف موسى أباه السلطان أبا بكر، الذي حكم فترة قصيرة جداً، ولكن من المستبعد أن يستطيع السلطان موسى التحدث عن أبيه دون أن يذكر في غضون ذلك صلة القربى به. وكان أبو بكر خلفاً للمدعو مامادو الذي لا نعرف عنه شيئاً أكثر من ذلك. ومهما كان الأمر، يمكن اعتبار أن الرحلة

الوحيدة التي قام بها الأفارقة لأغراض البحث والمعروفة تاريخياً قد جرت قبل عام ١٣٠٧ بأمد غير طويل، وربما بين عامي ١٣٠٠ و١٣٠٧"[٢٨].

أعتقد أن هذا الشرح المستفيض لاختصاصي وعارف من الدرجة الأولى، كما كان شأن ريخارد هنيغ، لا يحتاج إلى تعليقات خاصة. لا نستطيع اليوم أن نقول عن الصلات الأفرو- أمريكية في عصر ما قبل كولومبس إلا شيئاً واحداً، وهو أنه لا توجد عندنا إلى الآن براهين يعول عليها في مصلحة اتصالات أجريت عمداً عبر المحيط، ولن تساعد هنا لا الإشارات إلى الرياح والتيارات المؤاتية، ولا الإيماءات إلى قرب إفريقيا الغربية من أمريكا الجنوبية جغرافياً. لم يكن المحيط بطبعه المتقلب والغادر وأرجائه التي تقاس بآلاف الأميال يغفر للإنسان أقل هفوة أو خطأ.

لا يجوز أن ننفي، طبعاً الحالات العرضية أو الاضطرارية لانسياق القوارب أو الأطواف أو المراكب الأخرى عبر جنوب الأطلسي حتى وإن كانت تُقِل أناساً أحياء على متنها، ومن الممكن طبعاً أن بعض سكان "القارة السوداء"، وإن كان ذلك رغم إرادتهم، قد قذفت بهم الرياح والتيارات بعيداً إلى الغرب، فوصوا إلى الشواطئ الأمريكية، ولكن لا توجد لدى العلم إلى الآن أية حقيقة راسخة وأي تأكيد في هذا الخصوص[٢٩].

العرب والبحر

« في ذلك الزمن، حينما كانت أوروبا تغط في سبات عميق، كان العرب أمة تجارة وملاحة، أمة محبة للفن وذات مراس ».

تيوفيل فريدريخ أرمان
(جغرافي ألماني من القرن الثامن عشر)

أعترف بصراحة أن أول ما يخطر على بالي عند ذكر "العرب" و"شبه الجزيرة العربية" هو الرمال المترامية الأطراف لصحراء الربع الخالي، وسعف النخيل في الواحات النادرة، وقوافل الإبل البطيئة وكذلك، طبعاً، "ملك الطبيعة المحلية" البدوي بعباءته البيضاء المرفرفة على جواده الجامح ذي القوائم النحيلة. فأية لوحات بحرية هنا؟ وأية مراكب؟ العرب أمة برية بحتة تربطها بالأرض الألوف من الخيوط المتينة.

وماذا في خصوص السندباد البحري من حكايات "ألف ليلة وليلة". أهو حكاية حقاً ومحض خيال ولد في العقول المرهفة لظرفاء بغداد في القرون الوسطى ولا يمت بصلة للحياة الواقعية؟

ليست عندنا الآن، لحسن الحظ، أية مسوغات للشك في أن العرب كانوا منذ الأزمنة القديمة بحارة مهرة ورحالة شجعاناً وتجاراً حريصين يمارسون تجارة بحرية مربحة مع البلدان المجاورة والبعيدة.

يقول السندباد: "إني كنت في ألذ عيش إلى أن خطر ببالي يوماً من الأيام السفر إلى بلاد الناس، واشتاقت نفسي إلى التجارة والتفرج في البلدان والجزائر... فهممت بذلك الأمر وأخرجت من مالي شيئاً كثيراً اشتريت به بضائع وأسبابا تصلح للسفر، وحزمتها وجئت إلى الساحل، فوجدت مركباً مليحة جديدة، ولها قلع قماش مليح، وهي كثيرة الرجال زائدة العدة. وأنزلت حمولتي فيها أنا وجماعة من التجار. وسافرنا في ذلك النهار، وطاب لنا السفر، ولم نزل من بحر إلى بحر، ومن جزيرة إلى جزيرة، وكل محل رسونا عليه نقابل التجار وأرباب الدولة والبائعين والمشترين، ونبيع ونشتري ونقايض بالبضائع فيه..."[٣٠]

في خلال الرحلات نجد السندباد (الذي يجسد شخصية التاجر البغدادي) يراقب باهتمام عادات سكان البلدان البعيدة الواقعة وراء البحار، ويسير في شوارع المدن الغريبة، ويمعن النظر بدهشة في الأسماك العجيبة والحيوانات البحرية والنباتات الثمينة العجيبة - خشب الكافور والصندل، الفلفل، القرفة، الند - أي باختصار كل ما كان يثير اهتمام التاجر المسلم خارج حدود الخلافة.

ولكن الأمر لم يكن هكذا دائماً. كان في انتظار التجار العرب في طريقهم إلى الغنى وعجائب ما وراء البحار الكثير من الأخطار الجدية والعقبات المفاجئة. وأهمها "صاحب الجلالة المحيط" بعواصفه وتياراته وهدوئه وأهواله. وغالباً ما كانت تلك الرحلات البعيدة تسفر عن غرق المركب مع كل طاقمه في لجة البحر. يقول السندباد إياه: "وسافرت بنا المركب على بركة الله تعالى في البحر العجاج، المتلاطم بالأمواج. وطاب لنا السفر، ولم نزل على هذه الحالة عدة ليال وأيام من جزيرة إلى جزيرة، ومن

بحر إلى بحر إلى أن خرجت علينا ريح مختلفة يوماً من الأيام، فرمى الريّس مراسي المركب، وأوقفها في وسط البحر خوفاً من الغرق. فبينما نحن على هذه الحالة ندعو ونتضرع إلى الله تعالى، إذ خرج علينا ريح عاصف شديد فرق القلع... وغرق الناس وجميع حمولتهم وما معهم من متاع وأموال"[٣١].

ومع ذلك سارت أمور البحارة والتجار العرب في الشرق على ما يرام. إنهم، وقد قبضوا بنجاح منذ القدم على ناصية الخليج العربي والبحر الأحمر وأجزاء المحيط الهندي المتاخمة لهما، وصلوا في أواسط القرن السابع إلى جنوب الصين (أول بعثة رسمية في عام ٦٥١ ب.م). وتعلم صانعو المراكب العرب بناء سفن قوية وسريعة تسع للكثير من الحمولات، وللطاقم والركاب. وقد نقل مركب كهذا "إلى وراء القفار والبحار" فيلاً إفريقيا هدية للإمبراطور الصيني. وفي القرن العاشر ب.م كانت الموانئ والمحطات التجارية العربية قد تناثرت على شطان الهند وسيلان وأندونيسيا والصين (أكبرها غوانتشجو، تسيتنغ، غانبو). وكانت تنقل إلى هناك العطور والعاج والنحاس والأقمشة، وحتى العبيد أحياناً من الشاطئ الإفريقي؛ وكان التجار العرب يتلقون بالمقابل المواد التقليدية للصادرات الصينية، أي المسك والقاشاني والحرير"[٣٢].

وهكذا، لا مجال للشك في أن العرب كانوا مرتبطين بالبحر منذ القدم، ورحلاتهم البعيدة على المراكب الشراعية فتحت الآفاق الجغرافية للبشرية حتى قبل عصر الاكتشافات الجغرافية الكبرى. وهذا ما أقره القرآن بإشارة سخية إلى مختلف أجزاء المحيط الذي يغسل بأمواجه سواحل شبه الجزيرة العربي[٣٣]. ثم إن الرحلات المنتظمة البعيدة إلى الهند والصين تتحدث عن نفسها بنفسها. "القدرة على اجتياز هذا الطريق، الذي يعادل ربع خط

الاستواء، على سفن غير متطورة، وفي عهد تاريخي مبكر نسبياً يشهد بوضوح على أن الربابنة العرب كانوا أساتذة من أعلى صنف"[٣٤].

تطورت أمور العرب في الغرب، في البحر الأبيض المتوسط على نحو مغاير تماماً. "عقب وفاة النبي في عام ٦٣٢ انطلقت الجيوش الإسلامية إلى خارج نطاق شبه الجزيرة العربية؛ وأثار تحركها في سورية وشمال إفريقيا اصطدامات مع بيزنطة؛ وكانت المجابهة مع الدولة البحرية القوية تقتضي التضلع من فن المعركة على الماء إلى درجة تمكن من سحق تفوق العدو في هذا الميدان الذي قلما كان يعرفه العرب..."[٣٥].

بلا انتصار في البحر لم يكن ثمة من سبيل إلى انتصار راسخ في البر. انهالت فرق الخيالة العربية الخفيفة التي لا تعرف الهزيمة كمد بحري على الأقاليم المزدهرة لشمال إفريقيا وانطلقت بإصرار قدماً إلى الغرب، إلى "أعمدة هرقل" الأسطورية، إلى جبل طارق، ولكن كانت أساطيل البيزنطيين تظهر بين الحين والآخر في مؤخرة الجيوش البدوية المظفرة. كانت تقوم بالإنزال، وتقطع طرق المواصلات ذات الأهمية الحيوية، وتساعد المدن المحاصرة، وكان على العرب أن يتعلموا على عجل معرفة خوض حروب ناجحة في البحر ضد عدو قوي ومحنك. ينبغي القول أنه كانت عندهم كل المقدمات الضرورية لهذا. بعد الهزائم والإخفاقات الأولى في الاصطدامات البحرية حطم العرب في مكلا الإسكندرية عام ٦٣٥ الأسطول البيزنطي عن بكرة أبيه، وهو الذي لم يعرف الهزيمة قبل ذلك.

"حينذاك شعروا على ضفاف البوسفور بالقوة الحقيقية للرحل الغامضين الذين انهالوا من شبه الجزيرة الأجرد على مدن وقرى الشعوب

الحضرية، وهناك صعد طالع العرب في أرجاء البحر الأبيض المتوسط، تلك العقدة التي قفز منها نابض الهجوم العربي على الغرب..."[٣٦].

وسرعان ما تم الاستيلاء على كل شبه جزيرة البيرينه الذي ظهرت في أرضه الدولة الجبارة لأمويي قرطبة. تلقى العرب في البحر الأبيض المتوسط التراث الثقافي الغني للكثير من سابقيهم: القرطاجيين والاغريق والرومان والبيزنطيين. وفي إسبانيا أقاموا موانئهم في الأماكن القديمة التي قبض على ناصيتها جيداً، بما في ذلك على ساحل الأطلسي، وما إليكانت وقرطجنة ومالَقة والجزيرة الخضراء وقادش إلا أشهرها، ولكن حظيت بأهمية خاصة عند العرب قاعدة الميرية العسكرية البحرية التي كان أسطولها يسيطر على كل غرب البحر الأبيض المتوسط من جبل طارق إلى صقلية. وهكذا، وقف العرب بقدم راسخة على شواطئ الأطلسي من الغرب إلى شمال البيرينه وملكوا، على امتداد قرون كثيرة إلى حين الريكونكيستا الإسبانية، كل هذه الأراضي. كان يبدو أنه حلت اللحظة المناسبة للتحرك المطرد إلى الغرب، إلى رحاب الأطلسي المغرية، للعثور على كل الجزر والأراضي الواقعة في الطريق وضمها إلى الدولة الإسلامية، أو حتى بدافع الفضول البشري البحث لرؤية ومعرفة وفهم ما يقع هناك، بعيداً خلف السديم الأزرق لأفق المحيط.

ولكن يجري ما هو مستعصٍ على الفهم، فالعرب هؤلاء المحاربون المجازفون، والبحارة المهرة الذين لا يعرفون الخوف - يتوقفون فجأة، وكأنهم أذعنوا لتعويذة غامضة، من غير أن يجتازوا الحد الأخير، وبقي المحيط الأطلسي بالنسبة إليهم "أرضاً مجهولة" من حيث الجوهر. ثمة جملة من التفسيرات لهذه المفارقة التاريخية، ولكن سيكون، في رأيي، من الأجدى

بكثير إطلاع القراء على كل الحالات الحقيقية لرحلات البحارة العرب في المحيط الأطلسي ولا سيما أن في النصوص القديمة جواباً جزئياً عن اللغز الذي نحن في صدده.

توجد تحت تصرفنا ثلاثة نصوص من أعمال مؤلفين عربيين من القرون الوسطى: الإدريسي (القرن الثاني عشر) والبيروني (القرن الحادي عشر).

يكتب الإدريسي: "ومن مدينة لشبونة كان خروج المغرورين في ركوب بحر الظلمات ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه... وذلك أنهم اجتمعوا، ثمانية رجال كلهم أبناء عم، فأنشأوا مركباً حمالاً، وأدخلوا فيه الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر. ثم دخلوا البحر في أول طاروس الريح الشرقية، فجَرَوا بها نحواً من أحد عشر يوماً. فوصلوا إلى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير التروش، قليل الضوء، فأيقنوا بالتلف. فردوا قلاعهم في اليد الأخرى، وجروا في البحر في ناحية الجنوب اثني عشر يوماً. فخرجوا إلى جزيرة الغنم، وفيها من الغنم ما لا يأخذه عد ولا تحصيل. وهي سارحة لا راعي لها ولا ناظر إليها.

فقصدوا الجزيرة، فنزلوا بها فوجدوا عين ماء جارية، وعليها شجرة تين بري، فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها، فوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحد على أكلها، فأخذوا من جلودها وساروا مع الجنوب اثني عشر يوماً إلى أن لاحت لهم جزيرة، فنظروا فيها إلى عمارة وحرث، فقصدوا إليها ليروا ما فيها. فما كان غير بعيد حتى أحيط بهم في زوارق هناك، فأخذوا وحملوا في مركبهم إلى مدينة على ضفة البحر فأنزلوا بها في دار، فرأوا بها رجالاً شقراً،

زعروا شعور رؤوسهم، شعورهم سبطة، وهم طوال القدود، ولنسائهم جمال عجيب. فاعتقلوا فيها في بيت ثلاثة أيام، ثم دخل عليهم في اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربي، فسألهم عن حالهم، وفيم جاؤوا؟ وأين بلدهم؟ فأخبروه بكل خبرهم، فوعدهم خيراً. وأعلمهم أنه ترجمان الملك.

فلما كان اليوم الثاني من ذلك اليوم أحضروا بين يدي الملك، فسألهم عما سألهم الترجمان عنه، فأخبروه بما أخبروا به الترجمان بالأمس من أنهم اقتحموا البحر: ليروا ما به من الأخبار والعجائب، ويقفوا على نهايته، فلما علم الملك ذلك ضحك، وقال للترجمان : "خبر القوم أن أبي أمر قوماً من عبيده بركوب هذا البحر. وأنهم جروا في عرضه شهراً. إلى أن انقطع عنهم الضوء وانصرفوا من غير حاجة ولا فائدة تجدي".

ثم أمر الملك الترجمان أن يعدهم خيراً، وأن يحسن ظنهم بالملك ففعل، ثم صرفوا إلى موضع حبسهم إلى أن بدأ جري الريح الغربية، فعمر بهم زورق. وعُصبت أعينهم. وجرى بهم برهة من الدهر. قال القوم: "قدرنا أنه جرى بنا ثلاثة أيام بلياليها. حتى جاء بنا إلى البر. فأخرجنا وكتفنا إلى خلف، وتركنا بالساحل إلى أن تضاحى النهار، وطلعت الشمس ونحن في ضنك وسوء حال من شدة الكتاف، حتى سمعنا ضوضاء وأصوات ناس، فصحنا بأجمعنا، فأقبل القوم إلينا فوجدونا بتلك الحال السيئة، فحلوا من وثاقنا، وسألونا فأخبرناهم بخبرنا، وكانوا برابر. فقال لنا أحدهم: "أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم؟" فقلنا: "لا". فقال: "إن بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين". فقال زعيم القوم: "وا أسفي". فسمي المكان إلى اليوم "أسفي" وهو المرسى في أقصى المغرب"[٣٧].

وهذا مقتطف آخر من خبر الإدريسي:

"لا يعلم أحد ما خلف هذا البحر، ولا وقف بشر عنه على خبر صحيح؛ لصعوبة عبوره، وظلام أنواره، وتعاظم أمواجه وكثرة أهواله، وتسلّط دوابه؛ وهيجان رياحه. وبه جزائر كثيرة. ومنها معمورة ومغمورة. وليس أحد من الربانيين يركبه عرضاً ولا ملججاً، وإنما يمر منه بطول الساحل لا يفارقه"(٣٨).

أما مخطوطة البيروني فتقول: إنه لا توجد ملاحة في هذا البحر (المحيط الأطلسي) بسبب الظلمة، وتجمد المياه، وتعقد المجرى الملاحي، وصعوبة الاهتداء، وشحة ما يناله المرء بعد ذلك الطريق الطويل، ولهذا أقام القدماء على شاطئ البحر، وفي وسطه أعمدة تحذر المتهورين من القيام بخطوة خاطئة(٣٩).

النص الأول هو الشهادة المباشرة الوحيدة على محاولة البحارة العرب التغلغل في أرجاء الأطلسي. يرد تحليل مستفيض ومؤهل لهذا الحدث البارز في مؤلف ريخارد هنيغ المتعدد المجلدات الذي أتينا على ذكره، وهو "الأراضي الخفية".

ينبه قائلاً: "على الرغم من أن العرب كانوا بحارة متحمسين، وكانوا يسعون إلى دراسة الأراضي الجديدة في النظرية والممارسة، فإنهم كانوا مع ذلك.... يشعرون دائماً بنفور لا تفسير له إزاء السفر في المحيط الأطلسي. فقد كان المحيط الأطلسي مجهولاً لهم، من حيث الجوهر، باستثناء المياه الواقعة إلى الشمال وإلى الجنوب من مضيق جبل طارق. وكل أخبار جغرافييهم البارزين عن الأطلسي مقتبسة إما من بطليموس وبلينوس، وإما

من المؤلفين المسيحيين، وفيها أيضاً الكثير من الاختلاقات على غرار تأكيد الإدريسي العظيم، إن في المحيط الأطلسي ٢٧ ألف جزيرة.

يتكون انطباع أن العرب كانوا يعانون الخوف إزاء أخطار مجهولة تترصد لهم في هذه المياه. ومرد هذا على الأرجح، إلى الضباب الصيفي المشؤوم عند ساحل المغرب الذي غالباً ما كان يستمر أياماً كاملة، ممارساً تأثيراً مواتياً للغاية في خصوبة الشريط الساحلي. يذكر في الآثار الأدبية باستمرار "بحر الظلمات"، "محيط الظلام" الذي لا ترى الشمس فوقه حتى في معمعان الصيف. من الواضح أن هذا أحد أهوال البحر، على غرار "جبل المغنطيس". ونصُّ البيروني الذي استشهدنا به مؤشر كاف في هذا الخصوص. في القرن الرابع عشر كتب ابن خلدون (توفي في عام ١٣٧٧): إن المحيط الغربي لا يصلح للملاحة بسبب "الأبخرة" (ضباب الشاطئ)...

تضاف إلى الأهوال البحرية الأخرى، التي تعزى إلى الأطلسي، الأعمدة الغامضة على حافة المحيط التي تحذر البحارة، كما تقول الأسطورة، من تجاوز حد أقصى معين. والمقتطف المأخوذ من البيروني مميز في هذا الخصوص.

نحن لا نعرف إلا رحلة واحدة في عرض البحر انطلقت من ساحل الأطلسي، وحملت طابع بحث محدداً. يصف الإدريسي هذه الرحلة المعاصرة له التي قام بها ثمانية "مغرورون" مسلمون أقلعوا من لشبونة، وأبحروا إلى الغرب، ولكنهم ما لبثوا أن اصطدموا بتجمع لطحالب السرجس، فرجعوا إلى الجنوب. هذه الحادثة كلها تبدو معقولة تماماً...

ليس في هذه القصة كلها أي شيء مميز، وما كان لها أن تستحق اهتمامنا؛ لأن الرحلة لم تكلل بالنجاح، لو لم تتحدث عن محاولة العرب

الوحيدة المثبتة في المصادر لقطع الأطلسي. يستحيل تأريخ هذه الرحلة بدقة. ينبه هومبلدت بأن العرب اضطروا إلى مغادرة لشبونة في عام ١١٤٧. وبالتالي، جرت الرحلة قبل هذا التاريخ... وسعياً وراء الإثارة أعلن المؤرخون المتسرعون بإفراط هذه الرحلة اكتشافاً لأمريكا! وهذا ما صرح به لأول مرة في عام ١٧٦١ صاحب الانفعالات الجياشة غين...

وتبدو لنا فرضية غلاس أكثر من متهورة. على أساس الخبر الذي أورده "الجغرافي النوبي" الإدريسي عن أن سكان إحدى الجزر الواقعة في الغرب (زالي) بدون لحى وأنفاسهم تشبه دخان خشب مشتعل، يستنتج غلاس أن الحديث يجري عن هنود حمر يدخنون تبغاً. من أين للإدريسي أن يتلقى معلومات كهذه؟ في الموضوع الذي يجري فيه الحديث عن رحلة المغرورين الثمانية لا يوجد أي تلميح إلى أمريكا، ولا يوجد في أي موضع ذكر لأية رحلة قام بها العرب في المحيط الأطلسي. ومع ذلك بذلت حتى في الزمن الحديث محاولات لإعلان رحلة العرب هذه أول اكتشاف لأمريكا.

فسر "البحر الكدر الروائح" بأنه السرجس، والبلدان البعيدة التي وصل إليها البحارة بأنها أمريكا الوسطى أو الجنوبية. كل هذا محض خيال طبعاً، ومن المستبعد أن يستحق التحدث عنه.

إذا كان البحارة قد قالوا: إنهم رأوا "أناساً حمراً"، فإن هذا لا يعني أبداً أنهم قابلوا هنوداً أمريكيين. من المناسب هنا التذكير بأن الناس ذوي البشرة غير السوداء تماماً كما في المناطق ذات السكان المختلطين في أثيوبيا والأماكن الأخرى، ما زالوا إلى أيامنا هذه يسموننا، نحن البيض، "حمراً"، ويسمون أنفسهم "بيضاً". وكذلك كان عرب القرون الوسطى يسمون

أناس العرق الأبيض "حمراً"... كان يمكن لأولئك المغرورين العرب الذين انطلقوا في رحلة عام ١١٢٤ أن يقابلوا أناساً بيضاً. ومع أن الهدف النهائي لرحلتهم مجهول، فقد رسوا، على الأرجح، في جزر كناريا، وكان يعيش هناك في ذلك الحين الغوانتسيون ذوو البشرة البيضاء، وهم من مخلفات قبيلة شمالية تاريخ قدومها إلى جزر كناريا مجهول...

يصعب الافتراض أن البحارة العرب الثمانية غادروا منطقة الأطلسي المتاخمة لشمال غرب إفريقيا. فقد عثر البحارة في أبعد بلد شاهدوه على مترجم يتكلم العربية، وبعد ثلاثة أيام صادفوا على أحد الشواطئ بربراً يعرفون المدة التي يستغرقها السفر إلى البرتغال. وهكذا لا يوجد أي شك في أن الرحلة كلها كانت هزيلة إلى درجة مضحكة من حيث المسافة. أعتقد أن الأمر لا يستحق حتى مجرد الحديث عن "محاولة لاكتشاف أمريكا"، كما فعل أولشيفيتش، مع أنه يقف ضد الاختلاقات حول اكتشاف العرب لهذه القارة. هذه الفرضية لا تناسب ابداً المقاييس الهزيلة للبعثة.

... يبدو أن كل المعلومات عن جزر الأطلسي قد اقتبسها الإدريسي والمؤلفون العرب الآخرون حتى القرن الرابع عشر من المصادر اليونانية والرومانية، وكانوا يفضلون بشكل خاص بطليموس الذي أثر عموماً تأثير قوياً في الجغرافيين العرب... ولكن لا ينبغي بالضرورة الاستناد إلى رحلة البحارة الثمانية ليصبح واضحاً مدى شح معلومات العرب عن الأطلسي. رحلة العرب هذه إلى جزر كناريا كانت، حسب علم المؤلف، الوحيدة من نوعها منذ القرن الثاني إلى القرن الثالث عشر. وهي وحدها على الأقل المسندة بالمصادر...

يشهد ذكر "البحر الكدر الروائح" في الحديث عن رحلة المغرورين على صحة المصدر، ولكن لا ينبغي بحال من الأحوال اعتبار أن الحديث يجري هنا عن بحر السرجس الشاسع في الغرب، والأرجح أن البحارة لقوا تجمعاً صغيراً للطحالب من تلك التي تصادف على مقربة من مضيق جبل طارق. من الواضح أن العرب أبحروا من لشبونة في الاتجاه الجنوبي الغربي بصورة رئيسة، ووصلوا إلى جزر كناريا، ولكن سرعان ما أرغموا على العودة إلى القارة... والبرتغاليون، الذين يسعون إلى تأكيد أولويتهم في فتح جزر كناريا جزئياً عام ١٣٤١، يعارضون واقع وصول العرب إليها، ولكن ليست عندنا أية مسوغات لنفي هذه النتيجة المتواضعة جداً لرحلة المغرورين.

ثمة ما كان يعرفه الإدريسي عن جزر كناريا، ولم يكن ذلك من خلال بطليموس فقط. يمكن تأكيد هذا بثقة؛ لأنه يصادف عند الجغرافي خبر يقول بأن قائد الأسطول أحمد بن عمري كُلِّف بأن ينطلق بعمارة إلى عرض البحر؛ بحثاً عن جزيرة خمَّن وجودها انطلاقاً من أعمدة دخان كانت تظهر أحياناً إلى الغرب من أسفي، والأرجح أنها كانت انفجارات بركانية في جزيرة تنريف. ففي تلك الأزمنة كان النشاط البركاني هناك أشد بكثير مما هو الآن، ولا توجد عندنا للأسف معلومات عن نتائج رحلة العمارة، ووصول العرب إلى جزر كناريا يصبح محتملاً نظراً لذكر اسم أسفي في آخر الحديث عن جولات المغرورين. عن هذا الموقع الجغرافي يقول الإدريسي ما يأتي: "كان فيما سلف آخر مرسى تصل إليه المراكب، فأما الآن فهي تجوزه بأكثر من أربعة مجار".

ينجم عن هذا الخبر أن السفن العربية كانت تتجنب عادة الدخول في المياه المتاخمة للمغرب. كان مغزى أسفي بالنسبة إلى التجار العرب في القرون الوسطى يتلخص في أنه غالباً ما كانت تنطلق من هناك القوافل

المتوجهة عبر وادي النهر الذهبي (وادي درعة) إلى أراضي مملكة مالي الزنجية التي يكثر فيها الذهب. يلفت النظر التشابه بين بعثة العرب ورحلة السلطان الزنجي محمد غاو في عام ١٣٠٠. يلاحظ في كلتا الحالتين التباين الصارخ بين البرنامج المغري ("دراسة طول المحيط"، "الوصول إلى ضفة المحيط المقابلة") والنتائج الأكثر من متواضعة[٤٠].

وهكذا، إذا قدرنا النتائج العامة لنشاط البحارة العرب في دراسة مياه الأطلسي المتاخمة لممتلكاتهم الغربية، فمن الواضح أنه ينبغي اعتبارها أكثر من متواضعة: رحلة واحدة لا شريك لها إلى جزر كناريا انعكست في المصادر الكتابية بالإضافة إلى ملاحة السواحل في منطقة شبه جزيرة البيرينه وشمال إفريقيا (المغرب). لا مجال هنا حتى لمجرد الحديث عن أي تغلغل للعرب في أمريكا!.

ومع ذلك لن ننسى أن الناس اكتشفوا كوكبنا سوية. إذ إن كل الشعوب المثقفة تقريباً في الأزمنة القديمة والقرون الوسطى أدت قسطها في الإعداد والنجاح النهائي لاكتشافات الأوروبيين الجغرافية الكبرى. تكمن الحقيقة في أن البحارة البرتغاليين والإسبان تلقوا من العرب منذ القرن الخامس عشر الكثير من المعارف القيمة والخرائط، وكتب الملاحة والأدوات التقنية التي ضمنت للبرتغاليين الاكتشاف الناجح للطريق البحري إلى الهند حول إفريقيا، وللإسبان "الاندفاع" عبر الأطلسي إلى العالم الجديد.

وهكذا، فإن ما يسمى في الأدبيات المتخصصة بالشراع المائل "اللاتيني" الذي يساعد المراكب على المناورة لم يكن أبداً من اختراع أوروبا الإغريقية- الرومانية، بل أدخله العرب بالذات في الممارسة البحرية. "إن

العرب، وقد عينوا لأول مرة قانون قوة الريح المقابلة المتناسبة عكساً لمساحة الشراع في أرجاء المحيط، واستخدموا لأول مرة الشراع المائل في ظروف الحوض الواسع وطوَّروه، ووضعوا لأول مرة في رحلاتهم في المحيط بين شراع المقدمة والمؤخرة المائلين شراعاً قائم الزوايا (لزيادة قوة الاستمرار عند هبوب ريح مواتية) وضبطوا لأول مرة النظام المعقد لمسايرة الريح وفق محور المجرى الملاحي، ضمنوا مناورة عالية لمراكبهم الضخمة في مياه البحر الأبيض المتوسط، وعلاوة على ذلك، أعدوا تقنياً إمكانية تنفيذ الرحلات الكبرى لكولومبس، وفاسكو دي غاما، ومأجلان وكوك..."[٤١].

يمكن للبحث في مسألة التأثير العربي في الثقافة الأوروبية- من الفلك إلى الشعر- أن يشكل مادة لكتاب، وحتى أكثر من كتاب، كما يبدو. أما بالنسبة إلينا فمن المهم هنا أن نشير مرة أخرى إلى دور العرب الكبير في تطوير المعارف الجغرافية والملاحة في بلدان أوروبا، ولا سيما إسبانيا والبرتغال.

استوعب الأوروبيون، علاوة على "السمت" و"النظير"، ٢١٠ أسماء عربية للنجوم، ومن بينها أسماء معروفة مثل الدبران والطائر والواقع (النسر الواقع) والرجل (رجل الجبار). ولا تزال المصطلحات العربية تزخرف أيضاً المعجم البحري لأوروبا المتكبرة. يكتب المستعرب المعروف شوموفسكي: "دور أبناء الصحارى، والمياه البعيدة هنا منسي إلى درجة أنه يدهش الاختصاصيين أنفسهم الأصل العربي لتلك الكلمات المشهورة عالمياً مثل "الأميرال" و"الترسانة" و"البارجة" و"المزين" و"القادس" و"الكابل" و"الموسون" (الريح الموسمية)... كل هذا يجعل الثقافة العربية للملاحة في القرون الوسطى أهلاً لشكر عصرنا وامتنانه..."[٤٢].

هوامش الفصل الخامس

١ - تاريخ إفريقيا الاستوائية. ترجمة من الفرنسية. موسكو دار "ناؤوكا" ١٩٨٤، ص ١٢.

2- E.R.Fingerhut. Who First Discovered America? A Critique of Pre-Columbian Voyages. Claremont, California, Regina Books, 1986, , pp. 81-90. الفصل ٦ .

3- L.Wiener. Africa and the Discovery of America, 3 vol. Philadelphia, Innes and Sons, 1920-1923.

4- E.R.Fingerhut. Who First Discovered..., p.82.

5- W.C.Clwlow واخرون. Colossal heads of the Olmec culture. -In: Contributions of the University of California Archaeological Research Facility, vol. 4, Berkeley, 1967.

6- C.Lizardi Ramos. Extrana Escultura Negroide en unas Grutas de. Yucatan. –"Katunob", vol 5, No 1, march, Oshkosh, 1965, pp. 22-23.

7- West Africa: Something Different in American Indian Origi.Theories "Katunob", vol. 5, No 1, March, Oshkosh. 1965 pp. 67-68.

٨ - لفوفا. من اكتشف أمريكا؟ - "التقنية للشبيبة"، العدد ١، ١٩٧٢، ص ٦٠.

9- A.M. Tozzer. Chichen Itza and Its Cenote of Sacrifice: A Comparative Study of Contemporaneous Maya and Toltec. – Memoris of the peabody museum, vols. 11-12, Cambridge, Mass, 1975.

10- I.Van Sertima. They Came before Columbus. New York, Random Housa, 1967, p. 149.

11- E.Wyllys Andrews and S.H.Boggs. An African Object in Apparently Early Archaeological Context in El Salvador: a caveat to the diffusionist. -"Ethnos", vol. 32, Nos. 1-4, Stockholm, 1968, pp. 18-25

12- Alexander von Wuthenau. The Art of Terracotta Pottery in Pre-Columbian Central and South America. New York, 1969.

13- Alexander von Wuthenau. Unexpected Faces in Ancient America. 1500B.C – A.D. 1500. New York, 1975.

14- Alexander von Wuthenau. The Art of Terracotta..., p. 167.

15- E.R.Fingerhut. Who First Discovered..., p. 86.

16- P. Mangelsdorf, R. Mac Neish and W.Galinat. Domestication of Corn "Science", vol. 143, No 3606. Washington, 1964, p. 539.

17- M.D.W.Jeffreys. Pre-Columbian Maize in Africa. –"Nature", 4386, November 21, New York, 1953, pp. 965 – 966.

18- M.D.W.Jeffreys. Pre-Columbian Maize..., p. 965.

19- F.Willett. The Introduction of Maize in to West Africa. – "Africa", vol. 32, Durban, 1962, pp.1-13.

20- T.W.Whitaker. Endemism and Pre-Columbian Migration of the Bottle Goud Lagenaria siceraria (Mol) Standb. –In: Riley C.L. واخرون (eds). Man Across the sea. Austin, 1971, pp. 320- 327

21- E.R.Fingerhut. Who First Discovered..., p. 84.

٢٢- هنيغ. أراض مجهولة، المجلد ٣، موسكو، ١٩٦٢، ص ١٥٧. (النص العربي من: ابن فضل العمري: "ممالك الأمصار في مسالك الأبصار". مخطوطة من ٢٧ مجلداً في دار "صادر" للنشر. بيروت).

٢٣- لفوفا. من اكتشف أمريكا؟ ...، ص ٥٨ - ٥٩.

24- I.Van Sertima. They Came before Columbus..., pp. 26- 29.

25- I.Van Sertima. They Came before Columbus...., p. 29.

26- A.Humboldt von. Kritische Untersuchungen. Berlin, 1852, B 1, s.344.

27- Ahmed Zeki Pasha. Une seconde tentative des Musulmans pour descouvrir L'Amerique. – "Bulletin de 1'Institut d'Egypte",1919 - 1920, t. 2, p.57.Paris

٢٨- هنيغ. اراض مجهولة، المجلد ٣، ص ١٥٨ - ١٦١.

٢٩- توجه مؤخراً مؤلف آخر، وهو نيبومنياشي، إلى قضية الصلات الأفرو- أمريكية قبل كولومبس. في مقالته "الإفريقيون في العالم الجديد قبل كولومبس"، التي نشرت عام ١٩٧٨، يضع تحت تصرفه قبل كل شيء قاعدة نظرية عامة. وجوهر هذه الأخيرة ما يأتي: " في القرن التاسع عشر أصبح من البديهيات تقريباً تأكيد أن الثقافات القديمة في أمريكا ظهرت وتطورت بصورة مستقلة تماماً عن العالم القديم. هذا التأكيد كان يلائم على أفضل نحو النظرية الأثنولوجية **السائدة** في تلك الأزمنة والقائلة بأن تماثل البشرية الجسدي تحقق بطرق متوازية للتطور الثقافي على نحو تلقائي في كل قارات العالم، ولم يكن متبايناً إلا الوسط الجغرافي. ومفهوم "التطورات المتوازية" العديدة هذا بقي طويلاً في العالم العلمي، مكتسباً نظريات جديدة على الدوام. وإلى الآن تتجلى عناصره في كل مرة يجري فيها الحديث عن الاتصالات الثقافية التي تم تجاهلها أمداً طويلاً. بيد أنه لم يعد من الضروري الآن البرهان لأي كان على الصلات بين آسيا وأمريكا، أو بين أمريكا وبولينيزيا، ولكن هذا اقتضى عشرات السنين من الصراع الحقيقي. وتبرز الآن في جدول الأعمال قضية الاتصالات عبر المحيط الأطلسي" (نيبومنياشي. الأفارقة في العالم الجديد قبل كولومبس. - "أمريكا اللاتينية"، العدد ٢، ١٩٧٨، ص ١٥٠).

بصراحة، لا تروق لي كثيراً هذه المصطلحات "الحربية" التي يبدو أن مؤلف المقالة المذكورة يتمسك بها. دراسة القضايا العلمية أمر حساس وهادئ لا يقتضي "عشرات السنين من الصراع الحقيقي"، ولا سيما أننا لو أخذنا هذه المناقشة العلمية التي جرت، كقاعدة عامة، غيابياً، عبر الأجيال والقرون، وسط علماء من شتى البلدان والآراء، لاقتضى الأمر التحدث عن "٥٠٠ سنة" لا عن "عشرات السنين". وليس صحيحاً أيضاً أن الاتجاه المحلي، الانعزالي سيطر على العلم تماماً في القرن التاسع عشر. بل على العكس، ففي ذلك القرن ولد بألوان فاخرة العديد من الفرضيات والاتجاهات والمدارس الساعية إلى تعليل منشأ كل ثقافات الهنود الأمريكيين تقريباً بمؤثرات من العالم القديم، من جانب المصريين

والفينيقيين والإغريق والرومان والصينيين والهنود والأسقوثيين والفيكنغ والعرب والزنوج.

ثم إنه كان يجب على المؤلف أن يتصور بدقة أن التشابه العام بين الكثير من الثقافات القديمة التي تبعد إحداها عن الأخرى مسافات كبيرة لا يفسر "بآلية الطرق المتوازية لتطور البشرية"، بل بوحدة قوانين الحياة المادية للمجتمع البشري، بوحدة قوانين الإنتاج الاجتماعي. ينبغي التذكير مرة أخرى بأنه في ظروف الأنماط الاقتصادية الثقافية المتشابهة، بما في ذلك العوامل الطبيعية المتشابهة والوسط المتماثل، تظهر تقاربياً عناصر وملامح متشابهة حتى لدى المجتمعات القديمة التي لا توجد صلات منتظمة بينها. ولا ينحصر الأمر هنا في أن كل العلماء كانوا ينفون "سابقاً" أية اتصالات بين العالمين القديم والجديد قبل كولومبس، وتخلوا الآن فجأة، بعد "عشرات السنين من الصراع" عن الآراء القديمة، وصاروا يقفون بلا تحفظ إلى جانب فكرة صلات الهنود الحمر بآسيا وبولينيزيا وحوض البحر الأبيض المتوسط.

أستطيع أن أؤكد لنيبومنياشي أن أغلبية الباحثين حتى يومنا هذا لا تقف أبداً إلى جانب الاعتراف المطلق بالاتصالات الواسعة عبر المحيط بين أمريكا وقارات العالم الأخرى قبل كولومبس.

إن العلماء المعاصرين، وقد تخلوا سواء عن تطرفات المحلية ("الانعزالية") المتحجرة، أو عن التقاربية ("الانتشارية") غير القائمة على أساس، لا يطلبون عند النظر في هذه القضية سوى أمر واحد، وهو توفر الوقائع والبراهين العلمية، بصرامة في دعم الآراء المطروحة.

وبالمناسبة، فإن أنصار المنشأ والتطور المستقلين للثقافات القديمة لهنود أمريكا هم بالذات الذين تعود إليهم في الوقت الحاضر الأولوية من حيث دعم موقفهم بالوقائع.فلننظر كيف يعلل نيبومنياشي بالمعطيات العلمية آراءه حول الصلات القديمة بين إفريقيا وأمريكا عبر المحيط. أولاً، يعرض بإسهاب الحبكة الغامضة حول الرحلة التي قام بها في الأطلسي أسطول السلطان المالي الذي توارى هناك

بلا أثر مع كل رعاياه. ثم تتطرق المقالة إلى لقية الأشياء القديمة التي عثر عليها منذ أكثر من مئة سنة في كارولينا الشمالية (الولايات المتحدة)، وهي عبارة عن مصنوعات سيراميكية وحفر على الخشب ورسوم على الصخور. بين رسوم الناس أشخاص ملفعون بملابس طويلة من الرأس إلى القدم، وبين الحيوانات جمال وحيدة السنم وبرانيق ومراميس.

من المفهوم تماماً حتى للقارئ القليل الخبرة أنه إذا عثر في أراضي الولايات المتحدة منذ القرن التاسع عشر على رسوم ومواد مثيرة كهذه وتأكدت صحتها في خلال الاختبار العلمي، لشغل هذا منذ وقت بعيد فصلاً موقراً في كل كتب تاريخ أمريكا قبل كولومبس. وطالما أن هذا لم يحدث، فمن الواضح أن الحديث يجري إما عن تزوير، وإما عن تفسير خاطئ للآثار القديمة.

وأخيراً، تبعث إلى الحياة من جديد فقرات من يوميات كولومبس وأخبار مدوني الأسفار الإسبان القدماء حول وجود أناس "سود" وسط الهنود المحليين (جزر انتيل، باناما وغيرها).

بيد أنه توجد شهادات تنطوي على أهمية أكبر، من وجهة نظر مؤلف المقالة. إذ يمكن، مثلاً، العثور على الكثير من المعطيات المناسبة في تاريخ دولة غانا الإفريقية على نهر نيجر.

"يصر أغلب الباحثين على أن الملاحين القدماء توجهوا إلى أمريكا من هذه الأماكن بالذات. وهم لا يختلفون إلا في تعيين التأريخ... كانت غانا القديمة وخليفتها، دولة مالي، تعيشان على التجارة عبر الصحراء الكبرى. وادت التجارة إلى اتصالات ثقافية بالعالم العربي. وقد استمرت الحياة السلمية حتى عام ١٠٥٤، حينما اجتاحت قوات المرابطين الامبراطورية الغانية الكبرى، ولكن في القرن الثالث عشر أقام حكامها من جديد علاقات وطيدة بالسلاطين المغاربة الذين كان أتباعهم يعرفون منذ زمن نظام خطوط الطول والعرض والبوصلة وربع الدائرة وآلة السدس. في الفترة من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر درس العرب جيداً جزر الأطلسي - عدداً من جزر أسو وكناريا وجزر

الرأس الأخضر؛ وأسماؤها العربية واردة في الخرائط الجنوية المبكرة. لعل الأفارقة تلقوا خبرات الملاحة من العرب بالذات؟ كان يمكن لرحلة الإيطاليين، الاخوين فيفالدي، بمحاذاة الشواطئ الإفريقية في عام ١٢٩١ أن تصبح أيضاً إحدى المناسبات لتشكيل أسطول افريقي كبير: فقد بين الأوروبيون على نحو ملموس افضليات التنقل على الماء" **(**المصدر السابق ص ١٥٤**)**.

هذا هو، من قبيل التجاوز، أكثر "الحجج" إقناعاً. كان يكفي، على حد قوله، أن تمر سفينة أوروبية واحدة بمحاذاة ساحل إفريقيا الشمالي الغربي حتى ينظر السكان المحليون إلى "النماذج التكنولوجية المتقدمة" ويندفعوا على الفور إلى بناء مراكب خاصة بهم - كارافلات، غلايين، شخاتير.

من الممتع أن نعرف من نيبومنياشي لماذا لم يبن الأفارقة الأساطيل سابقاً، حينما لاحت أمامهم في اللأفق مرات ومرات، بل وأقامت اتصالات بهم زوارق المصريين والفينيقيين والإغريق والرومان؟

هنا يقرر مؤلف المقالة أن يتوقف ويلتقط أنفاسه بعض الشيء، معززاً مؤخرته. يكتب بتعقل: "البرهان على إمكان الرحلات لا يعني البرهان على أنها تحققت". إلا أنه بعد لحظة على وجه التحديد يندفع مجدداً إلى المعركة ضد خصومه الوهميين: ينفي أغلب الباحثين السابقين **(**؟؟؟ - المؤلف**)** وجود وسائل للملاحة عند الأفارقة. وثمة رأي يقول بأنهم كانوا يخافون عباب المياه ... بيد أن هذا ضلال مبين. إذ إن السيطرة على عباب المياه كانت من الشروط الأولى لحياة الإنسان في إفريقيا الغربية، بسبب العديد من الأنهار والأهوار والبحيرات، وأخيراً سواحل المحيط ... الرحالة البرتغالي المعروف فالنتين فرننديش ... كتب في عام ١٥٠٦ عن " قوارب ضخمة تستطيع ان تقل حتى١٢٠ محارباً"... ويتحدث الرحالة الفرنسي بربو عن قوارب يبلغ طولها ٢١ م وعرضها ٢,١ - ٢,٤م. وقد بنيت بطريقة لم يطرأ عليها تغيير يذكرعلى امتداد مئات السنين. "إنهم يبنون القارب من جذع شجرة كامل، منتزعين اللب بمدقات حديدية ومبقين القعر بسمك إصبعين والجوانب بسمك إصبع واحد. ويدعمون الجوانب

بركائز. وتصنع هذه القوارب من أشجار ضخمة تبلغ ١٧ - ١٨ باعاً"، - هكذا وصف الهولندي دابر بناء القوارب. وقد رأى المؤرخ الانكليزي آدمس في القرن الثامن عشر قوارب يقل كل منها على متنه ١٨٠ شخصاً ... وإليكم ما قاله فسبوشي: "في طريقنا إلى هناك (إلى أمريكا. - المؤلف) راينا كنوا منطلقاً من جزر الرأس الأخضر على متنه أناس كثيرون ...كانت سفينتهم التي يبلغ طولها ٢٦ خطوة وعرضها أكثر من خطوتين مصنوعة من جذع شجرة كامل ..." إنه لمتهافت، على ما يبدو، تأكيد أن الرحلات عبر المحيط الأطلسي كانت مستحيلة لمجرد انعدام الوسائل الملاحية" (نيبومنياشي. الأفارقة ...، ص ١٥٦).

لا ينحصر جوهر الخلاف فيما إذا كان عند الأفارقة القدماء سفن كبيرة قادرة على الانطلاق إلى عرض المحيط أو لا. إذ إن تجارب هيردهل على القارب "رع" المصنوع من البردي برهنت بما لا يدحض أن السفر من إفريقيا إلى أمريكا إذا تضافرت الظروف الطبيعية المواتية (الطقس، الرياح، التيارات) أمر في متناول الوسائط العائمة البدائية - القوارب المقورة، الاطواف المصنوعة من الخشب والقصب إلخ.

فحوى الأمر أنه يبرهن على وجود كل نوع من الصلات بتوفر مواد وأشياء مجلوبة ("مستوردات") في الأراضي التي تجري دراستها. وفي هذا الخصوص لا نستطيع أن نقول إلى الآن إلا أمراً واحداً محدداً تماماً، وهو أنه لم يعثر في الأرض الأمريكية حتى الوقت الحاضر على أية مادة مستوردة ذات منشأ إفريقي لا جدال فيه. ومن الجهة الأخرى، لم تسفر بعد عن شيء كل المحاولات لتتبع الملامح الإفريقية في ثقافة الهنود الأمريكيين وأنماطهم الجسدية. إذ إن نجاحات علم الآثار المعاصر تمكننا أن نتتبع بصورة عامة خط تطور حضارة الهنود الحمر في العالم الجديد، ونفسر جوانب كثيرة لهذه الظاهرة التاريخية.

وعلى هذا النحو، لسنا مضطرين إلى البحث عن جذور المنجزات الثقافية الأمريكية القديمة في الأرض الافريقية. ولكن نيبومنياشي يبقى أميناً على روايته للأحداث إلى النهاية. ينوه قائلاً: "يستطيع العلماء المعاصرون أن يأكدوا على أي

حال أن المضمون الأساسي لهذه الوقائع هو الآتي: لقد وجدت بين إفريقيا وأمريكا قبل كولومبس صلات دائمة انطلقت من ساحل إفريقيا الغربي أو الشمالي الغربي". (المصدر االسابق، ص ١٥٦).

لا يسعنا، والحالة هذه، إلا ان نقول :"طوبى للمؤمنين..!"

٣٠- السندباد البحري، حكايات وأقاصيص مختارة من "ألف ليلة وليلة " الترجمة من العربية ساليبه. موسكو، برافدا، ١٩٨٨، ص ٣٧.

النص العربي من: "ألف ليلة وليلة". بيروت. دار العودة. ص ١٠٠٠.

٣١- ألف ليلة وليلة ...، ص ١٠١٥

٣٢- شوموفسكي. الملاحة العربية .- في مطبوع: "مقالات في تاريخ الثقافة العربية من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر"، موسكو. دار "ناؤوكا"، ١٩٨٢، ص ٣٦٧.

٣٣- شوموفسكي. الملاحة العربية...، ص ٣٦٨.

٣٤- شوموفسكي. الملاحة العربية...، ص ٣٦٦.

٣٥- شوموفسكي. الملاحة العربية...، ص ٣٦٨.

٣٦- شوموفسكي. الملاحة العربية...، ص ٣٧٢.

٣٧- راجع خبر الإدريسي في Edrisi, ed. Dozy, de Goeje, Leiden, 1866, p223 الاستشهاد من هنيغ. أراض مجهولة. المجلد ٢، ص ٤٢٧ - ٤٢٨.

(النص العربي من الشريف الإدريسي. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. القاهرة. مكتبة الثقافة الدينية. ص ٥٤٨ - ٥٤٩).

٣٨- الاستشهاد من هنيغ: أراض مجهولة. المجلد ٢، ص ٤٢٨. (النص العربي. المصدر السابق. ص ٥٢٥).

٣٩- راجع خبر البيروني (توفي عام ١٠٤٩) في:

Reinaud. Fragments Arabes et persans. –"Journal Asiatique", t. 8, Paris, 1844, p237.

الاستشهاد من هنيغ. أراض مجهولة. المجلد ٢، ص ٤٢٩.

٤٠- هنيغ. أراض مجهولة. المجلد ٢، ص ٤٣٠ - ٤٣٤.

٤١ - شوموفسكي. الملاحة العربية...، ص ٣٧٧ - ٣٧٨.

٤٢ - المصدر السابق...، ص ٤١٠ - ٤١١.

يمكن إيراد قول آخر على هذا الغرار: "طرد البرتغاليون، بواسطة الأرستقراطيين الفرنسيين والنقود الإنكليزية، حكامهم العرب (من ساحل بيرينه الأطلسي) قبل قرنين من قيام الإسبان بطرد الحضارة العربية الرائعة من بلادهم. استولى البرتغاليون على المكتبات العربية. وقام الأمير هنريخ البحري، الذي كان نصف انكليزي، لأن أمه هي ابنة جون غونت، باستخدام المعارف العربية والخرائط العربية في رحلاته الكبرى لزيادة توسع البرتغاليين البحري، ولكن أينما حل بحارته كانوا يجدون أن العرب سبقوهم. كان الأمير هنريخ يرشد ويلهم أوربيي الساحل الأطلسي الوجلين (الذين طال قعودهم) أن يحققوا في البحر ما حققه المستوطنون العرب قبل ذلك بقرون كثيرة ..."

(J.Bailey. The God-kibngs and Titans. The New World Ascendancy in Ancient Times. London, Hodder and Stoughton, 1973 – p. 32)

الفصل السادس

الفيكنغ في أمريكا

"في مهب الريح المراوغة انساب الشراع
في الأرجاء،
إلى فينلاندیا سابق حفيده الرياح،
وفي كل لحظة كان البحر بينهما يزداد
أبعاداً عشواء،
وصوت البحر يتردد كعويل ونواح".

بريوسوف عام ١٩٠٩

من هم الفيكنغ؟

"في أحد أيام يونيو عام ٧٩٣ رأى رهبان دير في جزيرة ليندیسفارن، قرب ساحل نورتومبريا، أشرعة في البحر. كان ظهور مركب في هذه البقعة غير المضيافة، المكشوفة لكل الرياح والعواصف في شمال شرق إنكلترا حدثاً نادراً. فقد مضى أكثر من مئة وخمسين سنة ورهبان دير ليندیسفارن، الذي أسسه المبشرون الإيرلنديون والسكوتلانديون، يعيشون في عزلة وتنسك صارم. يمضون الوقت في الصلاة، وتدبير أسباب المعيشة. قلما كانت

حياتهم الهادئة ترتبط بأحداث العالم الخارجي، ولم تكن هذه الأحداث لتخل بها. ولهذا لم يشعر الرهبان بالاضطراب لرؤية الأشرعة المربعة للمراكب المقتربة من الجزيرة. وكم كانت دهشتهم ورعبهم شديدين حينما نزل إلى الشاطئ مقاتلون يرتدون الدروع، ويحملون البلطات الحربية. التوسل بطلب الرحمة والابتهالات إلى الله لم تجد نفعاً، فقد دمَّر الدخلاء الدير وأحرقوه، ونهبوا آنية المناولة الثمينة، وغيرها من الأوعية المقدسة، وثياب الكهنة، والممتلكات الأخرى، وقتلوا الكثير من الرهبان وأسروهم، ونقلوهم بعيداً عن شطآنهم. أما لينديسفارن الذي كان في القرنين السابع والثامن، شأن بعض الأديرة الأخرى في شمال إنكلترا، مركزاً مهماً للحياة الروحية... فلم يعد له وجود"[١].

هكذا تصف الأسفار الأنكلوسكسونية القديمة إحدى الغزوات الأولى التي شنها على ساحل إنكلترا لصوص بحر لم يكونوا معروفين قبل ذلك الحين. ومن ثم تعرض الكثير من المناطق الساحلية في سكوتلاندا وأيرلاندا وويلز وفرنسا وألمانيا لتدمير واجتياح منتظمين. وحينذاك فقط حاول سكان أوروبا الغربية المشدوهون والمذعورون أن يدركوا بمزيد من الوضوح جوهر هذه المصيبة التي انقضت عليهم فجأة من أرجاء البحر الضبابية. وهرع بعض الحكماء إلى تفسير كل ما يجري بعقاب الرب على الآثام السابقة، واستشهدوا بنبوءة النبي أرميا في الكتاب المقدس: "من الشمال تكون فاتحة الشر على جميع سكان الأرض"[٢].

وبالفعل، كان القراصنة، الذين هجموا على المدن والقرى الأوروبية الآمنة، متحدرين من الشمال، من اسكاندينافيا، ولهذا أطلق عليهم اسم

"النورمانديين" أي "أهل الشمال". لم يكن هناك لأمد طويل ما يقي من غاراتهم العنيفة. "كان سكان المناطق الساحلية، إذ يرون المراكب ذات الأشرعة المقلمة أو الحمراء، ورؤوس التنانين... على قوائمها الأمامية المرتفعة عالياً... يتركون بيوتهم وحقولهم، ويهرعون إلى الاختباء في الغابات مع أمتعتهم وماشيتهم. والمتوانون منهم يقتلون تحت ضربات بلطات الدخلاء الحربية، أو يصبحون اسرى عندهم. كانوا يضعونهم في المراكب مع الممتلكات المنهوبة، وينقلونهم إلى الشمال. كان القراصنة يبيدون كل ما لا يستطيعون أخذه معهم: يقتلون الماشية، ويحرقون البيوت. وكانت كل المحاولات لمقاومتهم فاشلة في البداية، إذ إن المحاربين الشماليين المقاديم المسلحين جيداً كانوا تحت قيادة زعمائهم القادرين يبددون بسهولة الحشود غير المنظمة للفلاحين المنصرفين عن العمل العسكري والمعتادين على استخدام المحراث والمجرفة أكثر من استخدام السيف والرمح. لم يكن إقطاعيو أوروبا الغربية المتخاصمون باستمرار يستطيعون الاتحاد لصد النهابين الوقحين"[٣].

كان النورمانديون يبحرون على مراكبهم الرائعة وبأسلحتهم الممتازة من موطنهم سكاندينافيا عبر البحار والمحيطات إلى البلدان الغنية: نحو الجنوب حتى صقلية، ونحو الجنوب الغربي إلى إنكلترا وأيرلندا، ونحو الشرق على الفولغا حتى بحر قزوين.

استمرت غزوة الشماليين الوثنيين الشرسين هذه ثلاثة قرون تقريباً - من أواخر القرن الثامن إلى النصف الثاني من القرن الحادي عشر. كان "الشماليون" معروفين في فرنسا باسم النورمانديين؛ وكانوا يسمون في إنكلترا بالدانمركيين بغض النظر عما إذا كانوا قد أتوا من الدانمرك أو

النروج وكانوا يسمون في أيرلندا بالفنغل **("الغرباء الشقر" - النروجيون)** وبالدبغل **("الغرباء السمر" - الدانمركيون)**؛ وفي ألمانيا بالاسكمينيين؛ وفي بيزنطة بالفارانغيين؛ وفي روسيا بالفارياغيين. أما في اسكاندينافيا نفسها، فكان المحاربون الذين يشنون غارات على البلدان الأخرى يسمون بالفيكنغ، ولكن الكثير من العلماء يعتبرون أن هذا المصطلح لم يستخدمه السكاندينافيون أنفسهم، بل ضحايا هجماتهم الذين اقتبسوا الكلمة النروجية القديمة "فيكنغر" (Vikingr) التي تعني "القرصان"، "لص البحر". وصحيح أن النروجيين يذكرون أحياناً في المصادر الكتابية الإنكليزية القديمة العائدة إلى القرن التاسع باسم "ويسنغاس"، "ويكنغاس" (Wicingas) المستخدم للإشارة إلى القرصان والبحار على حد سواء[٤]. فهل ثمة ما يدعو إلى الدهشة في أن يتلقى المحاربون السكاندينافيون الشقر من جيرانهم القريبين والبعدين هذا اللقب غير الحميد. إذ إن سكان البلدان التي عانت كل أهوال غارات الفيكنغ كانوا يرونهم عادة أناساً بدروع وخوذ حديدية يحملون السيوف والبلطات الحربية، وينهبون ويقتلون، أناساً قساة وجشعين، بعيدين عن الرحمة المسيحية. على هذا النحو بالذات كانت تصفهم الأسفار الأوروبية الغربية في القرون الوسطى. وعلى هذا النحو دخلوا التاريخ.

بيد أن هذا لم يكن أبداً كل الحقيقة عن سكان اسكاندينافيا البعيدة. وراء اليارلات والكونونغات[*] المتكبرين بقواتهم المدججة بالحديد والفولاذ كان يختفي المجتمع الفعلي الذي أنجبهم. الآن فقط استطاع

(*) الأعيان والقادة العسكريون في البلدان السكاندينافية في أوائل القرون الوسطى. ـ المترجم

الباحثون المعاصرون، بفضل نجاحات العلم، أن يروا، خلف الواجهة البراقة لحياة الفيكنغ العسكرية المتنقلة، أولئك الذين كانوا يحرثون الأرض، ويحصدون العشب، ويصيدون السمك، ويرعون الماشية، ويمارسون الحرف، أي باختصار: شعب اسكانديانفيا الذي أرسى بجهده الأساس الاقتصادي الذي قامت عليه كل ثقافة عصر الفيكنغ. "دشن عصر الفيكنغ بغارات قرصنية منفردة على شواطئ إنكلترا وسكوتلاندا، ولكن بدأت فيما بعد حملات كبرى للاستيلاء على أراضي الآخرين. في تلك الفترة كان السيف يستل من غمده بسهولة، وتدفق الدم أنهاراً، ولكن غالباً ما ينسى أن ذلك العصر كان أيضاً عصر الاكتشافات، والقبض السلمي على ناصية مناطق جديدة، حيث كان العمل المضني، لا السيف، يضطلع بالدور الرئيس"[٥].

كان لكل مجموعة من الفيكنغ السكانديانفيين خطها المفضل للحملات والفتوحات. كان السويديون ينطلقون عادة إلى الشرق، إلى أراضي روسيا، وكان الدانمركيون يفضلون ساحل إنكلترا وفرنسا. وكانت للنروجيين أيضاً أفضلياتهم، "ولكن كان أحد الخطوط بحكم موقع النروج الجغرافي نروجياً صرفاً، وهو الطريق إلى الغرب عبر الجزء الشمالي من الأطلسي. كان ساحل البلاد الطويل ينظر إلى المحيط الذي أصبح "الطريق الكبير" بالنسبة إلى النروجيين، ومكنت تجربة أجيال كثيرة من صنع مراكب للرحلات البعيدة. ومرت السنون، وانطلق البحارة أبعد وأبعد إلى الغرب مستوطنين جزيرة تلو أخرى. وصلوا أولاً إلى جزر اسكوتلاندا وهبريد وإلى مين، ثم إلى جزر فارير، وفي أواسط القرن التاسع وصلوا إلى أيسلاندا. وبقيت أخطر وأطول مرحلة، وهي المؤدية إلى غرونلاند. وكان أريك الأحمر أول من شق الطريق إلى هناك.

ثم ذلل لايف أركسن الجزء القصير المتبقي، ودخل ساحل أمريكا الشمالية، وتم اجتياز فيستيرفيغن، أي الطريق إلى الغرب"[٦].

تتحدث الساغات السكاندينافية القديمة بتحديد تام عن كل تقلبات هذه الملحمة الطويلة والصعبة، ولكن هل يمكن تصديق الساغات، "حكايات القرون الوسطى" هذه، حيث يتشابك الواقع، إن وجد أصلاً، تشابكاً وثيقاً مع الخيال المحض؟ سنعود لاحقاً إلى هذا السؤال، أما الآن فأنسب ما يكون هو التحدث عن ثروة الفيكنغ الرئيسة و"سلاحهم" الرئيس، أي مراكبهم.

مراكبهم الرائعة

"المركب هو مسكن السكاندينافي". هذه العبارة تحدد بدقة كبيرة جوهر موقف الفيكنغ من مراكبهم؛ إذ إن الغنى الفائق للمصطلحات والعبارات البحرية التي كانوا يستخدمونها حينما يتحدثون عن سفنهم، وصورها التي لا تحصى، وأخيراً، الدفن في الزوارق، تشهد جميعاً على المكانة الكبيرة التي شغلتها المركب والملاحة عموماً في حياة السكاندينافي.

لا شك في أن اسكاندينافيا كانت من أواخر القرن الثامن وإلى القرن الثاني عشر الدولة البحرية الأولى في أوروبا. ففي العصر الذي كان فيه الانكليز والفرنسيون، وسكان البلدان الأوروبية الجنوبية لا يجرؤون تقريباً على الابتعاد في رحلاتهم عن الأرض المنقذة، كان "الشماليون" النروجيون والدانمركيون والسويديون يندفعون بجرأة إلى عرض المحيط. وقد وصلوا في عام ٨٠٠ ب.م إلى جزر فارير، وفي عام ٨٧٠ إلى أيسلاندا، وفي ٩٨٥ إلى غرونلاند. وكان الفيكنغ قد استولوا قبل عام ٨٠٠ على جزء كبير من أيرلاندا، وفي القرن العاشر هجموا على نورماندي، وفي القرن الحادي عشر هجموا على صقلية، حيث ظهرت على الفور ممالك نورماندية بسلالاتها الحاكمة. وفي عام ١٠٦٦ استولى وليم النورماندي على إنكلترا. وامتدت ممتلكات الفيكنغ حينذاك من مستوطنة صغيرة في فينلاند **(أمريكا الشمالية)** في أقصى الغرب إلى حدود روسيا في الشرق، ومن ساحل المحيط المتجمد إلى البحر الأبيض المتوسط **(صقلية)**.

تضرب تقاليد السكاندينافيين البحرية في أزمنة مغرقة في القدم، إذ إن القوارب والزوارق والمراكب هي من أكثر المواضيع انتشاراً في الرسوم المنحوتة على الصخور في النروج والسويد، والعائدة إلى عصري النيوليت والبرونز والطور الحجري المبكر. وقد عثر على أكبر نموذجين للمراكب السكاندينافية في نيدام (جنوب الدانمرك) وكفالزوند (النروج). ويعود تاريخهما إلى نحو عام ٤٠٠ ب.م. كان للزورق الذي عثر عليه في نيدام هيكل مستدير من خشب البلوط مع قارينة ليست واضحة كثيراً، ولكن لم تكن فيه صوار بعد[٧].

اضطلعت بدور كبير في تكون الأشكال الكلاسيكية للمراكب في عهد الفيكنغ عدة اختراعات تقنية مهمة من الفترة السابقة. وهي قبل كل شيء غلق ("قفل") المجذاف الذي يمكن من التحسين الشديد لطبيعة التجذيف نفسها وبهذا يزيد سرعة السفينة بشكل ملحوظ. ثم اخترعت قارينة حقيقية (وهي موجودة في الزورق الذي عثر عليه في كفالزوند) مصنوعة من جذوع خشبية كاملة. مكن هذا الاختراع من زيادة مقاييس السفن بسرعة شديدة وجعلها أمتن، كما أنه وفر، وهذا هو الأمر الرئيس، إمكان إقامة صار بشراع في المراكب. ظهرت الزوارق الشراعية الأولى عند سكان سكاندينافيا منذ القرنين السادس والسابع ب.م. وأخيراً، فإن الاختراع المهم الأخير لبناة السفن المحليين هو الدفة المثبة بقوة قرب المؤخرة والتي تقع مسكتها داخل السفينة، حيث يجلس عامل الدفة[٨].

كان ظهور المراكب الأولى النموذجية لعصر الفيكنغ النتيجة النهائية لكل هذه التغييرات والتحسينات، وبواسطتها بالذات بدأ المحاربون الفارياغيون القساة حملاتهم التي تجاوزت بعيداً نطاق سكاندينافيا،

ونستطيع، لحسن الحظ أن نحكم على هذه المراكب من مصدر آخر غير وصف معاصريها أو الوثائق التاريخية القليلة الباقية أو رسوم المنمنمات والمخطوطات القديمة، فعادة السكانديناڤيين القدماء، التي تبدو غريبة للوهلة الأولى، وهي دفن زعمائهم ومحاربيهم الوجهاء في تلال مع كل ثرواتهم وزوارقهم، مكنت العلماء إلى يومنا هذا من أن يتلقوا في خلال الحفريات مجموعة كاملة من المراكب المحفوظة جيداً في التربة الطينية، وأشهر ثلاثة منها: اثنان من النروج عُثر عليهما في تون وادسيبرغ، وواحد من الدانمرك (لادبي).

ولكن يتمتع على أي حال بأكبر شهرة سواء في أوساط العلماء، أو بين الجمهور الواسع "مركب غوكستاد" الذي عثر عليه في جنوب النروج عام ١٨٨٠. وهو يعود إلى القرن التاسع ب.م. "قائم أمامي مندفع إلى الأعلى وهيكل أنيق خفيف؛ طول المركب ٢٣,٣٣م، وأكبر عرض له ٥,٢٥م، وهو مصنوع من خشب البلوط، وارتفاعه من الحافة السفلى لصالب القاعدة إلى المتن في جزء السفينة الأوسط ١,٩٥م. وغاطسه ٨٥ سم، أي إن المركب يستطيع المرور في الأمكنة الضحلة المياه، وكان مزوداً بمجاذيف (١٦ زوجاً - المؤلف) وأشرعة مستقيمة"(٩).

في عام ١٨٩٣ بني في سانديفيورد (النروج) مركب يشبه "مركب غوكستاد"، وأطلق عليه الاسم الرنان "الفيكنغ". في غضون ٤٠ يوماً قطعت السفينة بطاقم من ثلاثة عشر بحاراً نروجياً تحت إمرة القبطان ماغنوس أنديرسن المحيط الأطلسي من مدينة بيرغن إلى ساحل الولايات المتحدة، وأظهرت خصائص ملاحية ممتازة رغم تكرر الطقس العاصف. يقول أنديرسن: "انطلقنا على نحو رائع. كان ألق الشمال يضيء المحيط بنور

شاحب سحري؛ وكانت "الفيكنغ" تنزلق من خلال عتمة الليل على هامات الموج كالنورس. كنا ننظر بإعجاب إلى السفينة وهي تنطلق برشاقة، ونسجل باعتزاز سرعتها التي كانت تصل أحياناً إلى إحدى عشرة عقدة"(١٠).

ولكنها كانت مركباً حربياً لا تجارياً، ومنها أتت فيما بعد "الدراكارات" الرهيبة، وهي "المراكب الطويلة" للفيكنغ ذات الهيكل الضيق والطويل المزدان في مقدمته برأس منقوش لتنين مخيف. أما الرحلات البعيدة إلى أمريكا الشمالية، فكانت تجري على سفن مغايرة تماماً، وهي "الكنرات"، أحد اشكال المراكب التجارية. كان يقدر فيها الإتساع ومتانة الهيكل أكثر من السرعة، وكانت أوسع وأكثر استدارة وأعمق غاطساً من المراكب الحربية، وكان لمراكب "الكنرات" شراع مربع واحد من قماش صوفي خشن ومجاذيف.

عُثر مؤخراً على "كنر" متحطم في روسكيلد- فيورد (الدانمرك) يبلغ طوله ١٦,٢م، وعرضه ٤,١م. يمكن التحليل الراديوكربوني لخشب هيكل المركب من تعيين تاريخه بنحو عام ١٠٠٠ ب.م، ولكن حتى هذا النموذج لذلك النمط من السفن يبين تقنية لبناء المراكب في غاية التعقيد، وقد صنعت قارينة القاعدة والإطار الهيكلي المستعرض من خشب البلوط، وألواح التغليف من خشب الصنوبر. وكل الأجزاء الخشبية مثبتة بمشابك وبرشامات حديدية. لا يوجد في مقدمة السفينة شكل منحوت للوحش- التنين البحري كما في مراكب الفيكنغ الحربية، ولكن توجد الدفة المريحة والمتينة نفسها إلى اليمين من المؤخرة. وكان "الكنر" الروسكيلدي مغطى جزئياً من الأمام والخلف بسطح خشبي. كان في وسع السفينة أن تنقل عدة رؤوس من الأبقار، وحملاً وما يربو على ثلاثين شخصاً من الطاقم والركاب(١١).

كان "الكنر" من نواح كثيرة أبرز من كل سفن الفيكنغ، وحتى أشهر من المراكب الحربية الطويلة. على مثل هذه "الكنرات" المريحة والمتينة بالذات وصل الفيكنغ إلى شواطئ أيسلاندا وغرونلاند وأمريكا الشمالية. وقد تسنى لمركب "الكنر" أن يظهر كل أفضلياته الملاحية في عام ١٩٣٢، حينما توجهت نسخة طبق الأصل لإحدى هذه السفن القديمة (طولها ١٨ متراً) في رحلة عبر الأطلسي من شواطئ سكاندينافيا إلى العالم الجديد وفق خط كريستوف كولومبس. ولدهشة الاختصاصيين الشاملة اجتاز "الكنر" هذا الطريق أسرع من أعظم سفينة جنوية بمعدل الثلث، وقفل المركب عائداً إلى الوطن بنجاح من الشواطئ الأمريكية على الطريق الشمالي، عبر نيوفوندلاند وغرونلاند.(١٢)

يكتب العالم الأمريكي المعروف ذو الأصل السكاندينافي أريك وهلغرن: "كان يقف خلف المراكب دائماً الصانع، باني المراكب، الإنسان ذو النظرة الدقيقة واليد القوية، وهذا الإنسان، وهو محصلة لتطور طويل، لم يكن يمارس عمليات على حدة، بل كان يبني السفينة بنفسه من قارينة القاعدة إلى نهاية الصاري، واضعاً المخطط والحسابات في رأسه. هذا الحفار على الخشب والبحار والحالم كان يجسد في ذاته الموهبة الخاصة لذلك العصر"(١٣).

ولكن مهما كانت مراكب الفيكنغ رائعة بحد ذاتها من حيث خواصها، فلا بد من قيادتها بدقة من نقطة جغرافية إلى أخرى بعيداً عن الشواطئ بدون أية معالم مرئية. وبتعبير آخر، كان على الفيكنغ أن يسيروا في عرض البحر، ويجدوا طريق العودة. فكيف كانوا يفعلون ذلك في تلك الأزمنة البعيدة؟ إذ لم تكن عند السكاندينافيين القدماء بوصلة مغنطيسية (لم تخترع إلا في أواخر القرن الثاني عشر) وخرائط بحرية دقيقة، وكتب إرشادات ملاحية، وحتى آلة

سدسية، وهي مقياس زوايا لتحديد خطوط العرض والطول وفق ارتفاع النجوم (لم تظهر في أوروبا إلا في القرن الثامن عشر).

كان الفيكنغ يسترشدون في رحلاتهم بالشمس والنجوم بصورة رئيسة. وإذا لم يكونوا يحسنون فعلاً تحديد خط الطول، فإن التعيين الدقيق لخط العرض ولو بشكل تقريبي لم يكن يشكل صعوبة خاصة بالنسبة إليهم. كانوا يستخدمون لهذا جهازاً خشبياً خاصاً يشبه معين الاتجاه الزاوي أو "البوصلة الشمسية"، وقد عثر على نسخة منه عام ١٩٤٨ إبان الحفريات في مستوطنة للفيكنغ في غرونلاند. وهو عبارة عن قرص له ٣٢ درجة يدور على مقبض في مركز القرص. وكان إسفين ("ميل") عمودي على المقبض يلقي ظلاً على القرص، فيبين إسفين أفقي السمت. "مثلاً، كانت الزاوية الحأصلة بين اتجاه الإسفين عند شروق الشمس، واتجاهه عند غروبها تمكن، إذا توفرت عند النورمانديين المعارف المناسبة، من تعيين خط العرض. من السهل تعيين خط العرض في يوم انقلاب الشمس الشتوي.

حتى إنه كانت توجد، حسب قول الساغات، مصطلحات خاصة للإشارة في ذلك اليوم إلى مختلف النقاط فوق الأفق... وتذكر الساغات الأيسلاندية وسائل أخرى، يبدو أنها برية أو ساحلية، للاهتداء، وهي ما يسمى بالحجارة الشمسية، أو الحجارة المرشدة"[١٤]، ومن هنا يصبح مفهوماً السبب الذي جعل الفيكنغ إذ عملوا في رحاب شمال الأطلسي، يستوعبون إلى درجة الكمال فن "الملاحة وفق خطوط العرض".

إن البحارة السكاندينافيين، وقد اكتشفوا على التوالي جزر فارير وأيسلاندا، والطرف الجنوبي (رأس فارول) لغرونلاند، كانوا في كل مرة يحددون خط عرض الأراضي المكتشفة حديثاً، وفيما بعد كانوا إذ ينطلقون في

المحيط، يسيرون طويلاً بمحاذاة ساحل النروج الغربي إلى أن يصلوا إلى خط عرض هدف رحلتهم (سواء أكان ذلك غرونلاند أم أيسلاندا)، وعندئذ كانوا يبتعدون بشدة وجهة الغرب، إلى عرض البحر، وينطلقون مهتدين بالنجوم ليلاً، ومدونين السمت بدقة نهاراً. وعلى أي حال لم يكن الفيكنغ يهيمون في المياه العاصفة لشمال الأطلسي، متخبطين بلا هدى. كانت سفن النورمانديين تتحمل العواصف الشديدة، ولكنها لم تكن تستطيع الانسياق مع التيار؛ إذ كانت الريح تقذف بها أحياناً بعيداً عن الخط المطلوب. وهكذا كانت تكتشف الأراضي والجزر الجديدة بمحض المصادفة.

في أقاصيص الساغات السكاندينافية عن الرحلات في المحيط تنطوي المعلومات عن طولها على أهمية خاصة، وكان "الديوغر" (Doegr)، اليوم الكامل (٢٤ ساعة) من السفر المتواصل، وحدة للقياس تقدر عادة السرعة المتوسطة لمركب الفيكنغ من طراز "الكنر" بست عقد بحرية، وهكذا تكون المحصلة في اليوم طريقاً طوله نحو ١٥٠ ميلاً بحرياً (الميل البحري يساوي ١٨٥٢م). تبين الرحلات التجريبية على نسخ السفن السكاندينافية القديمة أن الطريق، من النروج (ستاد) مثلاً إلى ساحل أيسلاندا الجنوبي الشرقي (خرن) استغرق ٧ "ديوغرات" (أيام)، وهذا رغم الرياح والتيارات المواجهة. واستغرقت الرحلة من غرب أيسلاندا إلى جنوب غرونلاند أربعة "ديوغرات"[١٥]، ولم تكن تستغرق أمداً طويلاً، كما تشير الساغات، الرحلة من غرونلاند إلى فينلاند (الساحل الشمالي لأمريكا الشمالية).

ولكن لا ينبغي مع ذلك نسيان أنه كان يمكن لأية رحلة كهذه في أرجاء المحيط أن تنتهي، رغم كل مهارة السكاندينافيين في الملاحة، ورغم متانة مراكبهم، على نحو فاجع بالنسبة إلى المشاركين فيها. كانت الرياح

العاصفة، والتيارات والجليد وجبال الجليد المختفية في الضباب والبرد القارس، والكثير من الأسباب الجدية الأخرى تؤدي إلى هلاك البحَّار الذي يقع تحت سلطة عوامل الطبيعة المنفلتة من عقالها. نجهل عدد مراكب الفيكنغ التي انطلقت إلى عرض المحيط، واختفت في عبابه، لا نعرف مصير هؤلاء البحارة إلا في حالات منفردة، وهكذا بقيت على حجر نصب في القرن الحادي عشر في غرب النروج على ذكرى البحارة القتلى كتابه رونية تتحدث عن طاقم مركب حاصره الجليد قرب غرونلاند: غادر الناس السفينة، ووصلوا على جليد متحرك إلى شاطئ جزيرة، معانين الصقيع والجوع، وجاء في الكتابة: "قدر غاشم أن يلقوا مصرعهم في هذه السن المبكرة؛ لأن الحظ تخلى عنهم"[١٦].

وكما نرى، فإن طريق الرواد السكاندينافيين الشجعان إلى "فينلاند الطيبة" الواقعة على ذلك الجانب من الأطلسي لم يكن أبداً مفروشاً بالورود، ولقاء كل الاكتشافات والمنجزات في ظروف الأركتيكا (منطقة القطب الشمالي) القاسية لم يكن من النادر أن يدفع أغلى ثمن، وهو حياة الإنسان.

الساعات تتحدث

ينبغي التنبيه إلى أن اكتشاف الفيكنغ لأمريكا **(فينلاند)** لم يكن كاكتشاف كولومبس، بل جرى على مراحل، أو "على قفزات"، إن شئنا المجاز. كانت النروج نقطة الانطلاق، "وجرت القفزات عبر جزر فارير وأيسلاندا وغرونلاند، وكان اكتشاف واستيطان النورمانديين لغرونلاند في عام ٩٨٥ اللحظة الحاسمة لكل هذا التوسع الذي اتخذ شكل قفزات، وكان أريك الأحمر البطل الرئيس لهذه الملحمة، وهو من مواليد النروج، وقد سمي هكذا للون شعره وقد سكن أريك الأحمر أيسلاندا، وما لبث أن طُرد من هناك؛ لارتكابه العديد من جرائم القتل إبَّان النزاعات العشائرية، ولكن فرصة سعيدة ساعدت هذا الطريد، فعلم من رجل من الفيكنغ اسمه غنبيورن أن أرضاً واسعة مغطاة بالجليد تقع إلى الغرب من أيسلاندا، فقرر أن يبحث عن حظه هناك بالذات، وبعد عدة رحلات استكشافية إلى شواطئ الجزيرة المكتشفة حديثاً، وجدها أريك الأحمر صالحة للعيش تماماً، وذلك في جزئها الجنوبي على الأقل، وأطلق عليها الاسم الرنان "غرونلاند"، أي "البلاد الخضراء"، الأمر الذي لم يكن يطابق الواقع بشكل من الأشكال. أرسى خمسة عشر مركباً تقل الفيكنغ الأيسلانديين أساس مستوطنة الفيكنغ الغرونلاندية الشهيرة. حدث هذا نحو عام ٩٨٥ ب.م"[١٧].

نزل أريك الأحمر إلى خليج أطلق عليه اسم اريكسفيورد، حيث أسس دسكرة براتاليد المحصنة، ومن المعروف بشكل موثوق به وجود مستوطنتين

في جنوب غرونلاند، وهما أوستيربوغدن، أو "البلدة الغربية" (غودتهاب حالياً) وفيستيربوغدن، أو "البلدة الشرقية" (قرب يوليانيهاب المعاصرة).

بعد أن استقر الفيكنغ في أرض غرونلاند بثبات، أصبحت أمريكا الشمالية بالنسبة إليهم بلاداً متاخمة بالمعنى الحرفي للكلمة.

لم يكن يفصل المستوطنة النورماندية عن القارة العملاقة سوى مضيق ديفيس الذي لم يكن عرضه في أضيق مكان يتجاوز ٢٠٠ ميل، ولم يكن اجتيازه إذا توفرت الرغبة يتطلب جهداً كبيراً بالنسبة إلى الذين كانوا ينطلقون في زوارقهم عبر المحيط العاصف إلى النروج وأيسلاندا إبان رحلات الصيد بمحاذاة ساحل غرونلاند الغربي كان في وسع المستوطنين تماماً أن يروا في الأيام الصافية الجبال العالية البعيدة لأرض بافن.

عاش الفيكنغ في غرونلاند نحو ٥٠٠ سنة، وما كان لهم، مع كل هذه الظروف إلا أن يكتشفوا أمريكا الشمالية. يكتب النروجي هيلغي إينغستاد (سنتحدث لاحقاً عن اكتشافاته الرائعة): "يحق لنا أن نؤكد هذا حتى وإن لم تتوفر عندنا مصادر كتابية، ولكن الحظ أسعدنا، فعندنا مصادر تتحدث عن رحلات النورمانديين من غرونلاند إلى بلاد مجهولة في الغرب... وهذه المصادر هي الساغات الإيسلاندية التي كتبت بعد نحو مئتي سنة من الحدث نفسه، وتتحدث بالتفصيل عن الرحلات إلى الأراضي الجديدة"[١٨].

فما هي الساغا النورماندية؟ وإلى أي مدى يمكن تصديقها بمثابة مصدر تاريخي؟

يكتب المؤرخ المعروف، المختص في الشؤون السكاندينافية غوريفيتش: "الساغا: فن روائي لا يصادف إلا في سكاندينافيا، ولا سيما في أيسلاندا.

خصائص الساغا (نعني الآن الساغا عن الأيسلانديين أو الساغا العشائرية) ناجمة عن المكان الخاص الذي تشغله على التخوم بين الفولكلور والأدب. يقرب الساغا إلى الفولكلور وجود آثار أكيدة فيها للتقليد الشفهي الشعبي، بما في ذلك الكلام العامي، وكون مؤلف الساغا غير مرئي فيها على الإطلاق... ومع ذلك، فإن الساغات، وإن حفظها الناس شفهياً أول الأمر، فقد تعرضت عند الكتابة لتحوير معين على الأرجح، ونحن لا نعرفها طبعاً إلا بالشكل الذي كتبت به (في القرن الثالث عشر غالباً).

تتميز الساغا بأسلوب رواية في غاية الهدوء والموضوعية، وبواقعية العرض، وهي لا تروي سوى الأحداث والتصرفات التي قام بها الأيسلانديون والخطب التي تبادلوها... لا تعرف الساغات الأبطال المختلقين، وكل الأشخاص المذكورين فيها عاشوا في أيسلاندا وبلدان أخرى (إذا جرى الحديث عنها) في "عصر الساغات"؛ وعلى أي حال فإن الأيسلانديين الذين كانوا يروون أو يسجلون أو يسمعون أو يطالعون الساغات كانوا على قناعة مطلقة بصحة هذه الشخصيات التي لم يكن من النادر أن تربطهم بها أواصر القربى، وكذلك بصحة كل الأحداث الواردة في الساغات، فمقولة الخيال الأدبي أو المبالغة غريبة تماماً عن وعي مؤلفي الساغات.

ولكن الساغا ظهرت في مجتمع لم تتميز فيه كل من القصة التاريخية والقصة الأدبية عن الأخرى كفنين مختلفين. الساغا هذه وتلك معاً، ولذا فهي ليست تاريخاً ولا رواية. مؤلف الساغا أو راويها لا يعمم شيئاً، بل يتحدث عن الأحداث الحقيقية والناس، غير مسترشد إلا بمصلحته

ومصلحة وسطه الاجتماعي، ويتجه إلى الأحداث التي تستحق أن يتذكرها الناس، ويتناقلوها من جيل إلى جيل، إلى أفعال الأسلاف، إلى العداء العشائري وما شابه ذلك...

ورغم أن الساغات كتبت في العصر المسيحي، إلا أن الروح الوثنية تتغلغل فيها. القوة المحركة الرئيسة في الساغات هي القدر. لا يمكن فهم خاصية الساغا كفن إلا بمراعاة هذا العامل الحاسم... الساغا تتحدث، كقاعدة عامة عن جوانب حياة الأيسلانديين حينما تتصادم والقدر، وحينما تلتقي وتتنازع مصائر شتى الأفراد... في هذه اللحظات بالذات ينكشف جوهر الإنسان على أكمل نحو"(١٩).

مضمون الساغات جاف للغاية: تسرد الوقائع، وينعدم تماماً المجال الملحمي للقصائد القديمة، وقصائد القرون الوسطى، ويجري التغني بعظمة الأبطال ومجدهم بتحفظ شديد، وفي الساغات لا تطمس الجوانب السلبية أبداً. فقد جاء فيها مثلاً أن الفيكنغ في أيسلاندا لم يكونوا يوافقون على التعمد إلا في الينابيع الدافئة؛ لأن المحاربين المقاديم "لم يكونوا يحبون الماء البارد أبداً"(٢٠).

من بين كل الساغات الأيسلاندية تنطوي على أهمية خاصة بالنسبة إلينا "قصة الغرونلانديين" (أو "الساغا الغرونلاندية") و"ساغا أريك الأحمر" (وتسمى كذلك "ساغا تورفن كارلسيفني")؛ لأنهما بالذات تتحدثان عن اكتشافات أمريكا، وعن أول لقاء بين الفيكنغ والسكان الأصليين لهذه القارة. كان ذلك، كما تقول الساغاتان، اكتشاف "فينلاند" - بلاد العنب.

في رأي أغلب العلماء لا يمكن اعتبار "قصة الغرونلانديين" ولا "ساغا أريك الأحمر" مصدراً تاريخياً صحيحاً بلا تحفظ؛ ففي الساغات السكاندينافية يتشابك، بحكم الطابع الواحد لهذه المؤلفات الواقع والخيال تشابكاً وثيقاً. ظهرت هنا اعتبارات الهيبة العائلية- العشائرية، حينما كانت الأحداث الواقعية الموصوفة (ولا سيما في لحظة تسجيلها) تشوه عن قصد أو غير قصد في مصلحة البطل المتحدر من العشيرة المعنية. يكتب المؤرخ الألماني شتيخي: "كل ساغا أيسلاندية مزيج من الحقيقة والخيال، والأمر الرئيس عند تقديرها هو تبين الأسرة التي ألف فيها هذا الجزء من الساغا أو ذاك"[٢١]. انطلاقاً من الاعتبارات المذكورة، يفضل أغلب الباحثين "قصة الغرونلانديين" من حيث درجة الصدق في وصف الأحداث الواقعية المرتبطة باكتشاف فينلاند.

تتحدث الساغاتان عن ست رحلات إلى أمريكا قام بها الفيكنغ. الأولى قام بها بيارني بن خيريولف في عام ٩٨٥، ولكن يمكن اعتباره سيئ الحظ تماماً بعد أن ضل طريقه عدة أيام في المحيط، وقذفته العاصفة بعيداً عن الخطوط المألوفة، رأى فجأة إلى الغرب من غرونلاند شاطئاً منخفضاً مجهولاً تغطيه غابة. لم يقرر بيارني النزول وتفقد الأرض الجديدة، فحرم نفسه إلى الأبد من مجد "المكتشف الأول" لأمريكا. وقد اكتشفها، كما هو معروف، لايف بن أريك الأحمر في عام ١٠٠٠ ب.م. بعد أن استوضح من بيارني كل تفاصيل اكتشافه، واشترى مركبه الهرم والمتين في الوقت نفسه، انطلق إلى الغرب بلا تردد، فابتسم له الحظ. وليس عبثاً ان يدخل لايف التاريخ باسم "السعيد" أو "المحظوظ".

ووصف اللحظة المثيرة لاكتشاف العالم الجديد من قبل رسل أوروبا البعيدة قبل كولومبس بخمسة قرون الوارد في "ساغا الغرونلانديين" مهم بالنسبة إلى كل محاكماتنا اللاحقة عن فينلاند وعن أمريكا عموماً، مما يجعل من الضروري أن نورده هنا بأكمله تقريباً:

"صعِد لايف ورفاقه إلى المركب، وكان مجموعهم ٣٥ شخصاً بينهم ألماني اسمه توركير. أعدوا مراكبهم، وحينما أصبح كل شيء جاهزاً انطلقوا إلى عرض البحر، ووصلوا أول الأمر إلى الأرض التي رآها بيارني. اقتربوا من هذه الأرض، ورسوا ونزلوا على قواربهم إلى الشاطئ. كانت الأرض كلها من الشاطئ إلى كتل الجليد تشبه حجراً مسطحاً تماماً، وبدت لهم غير جذابة البتة. هنا قال لايف: "لم يكن شأننا مع هذه الأرض شأن بيارني؛ لأننا وطئناها. سأطلق الآن عليها اسماً، وأدعوها الأرض الصخرية (خلولاند)". بعد ذلك عادوا إلى المركب، وتابعوا الإبحار، ووجدوا أرضاً أخرى. اقتربوا منها، ورسوا ونزلوا في قارب إلى الشاطئ. كانت هذه البلاد منبسطة، وكثيرة الغابات. وفي كل مكان تمتد المضاحل الرملية البيضاء، وينحدر الشاطئ إلى البحر بالتدريج. عندئذ قال لايف: "سنطلق على هذه الأرض اسماً مناسباً، وندعوها أرض الغابات (ماركلاند)"، ورجعوا إلى مركبهم على الفور. ثم عاموا يومين إلى الجنوب الغربي تدفعهم ريح شمالية شرقية، واقتربوا من جديد إلى أرض وجزيرة تقع شمالي الأرض التي نزلوا فيها. عادوا إلى المركب، واجتازوا مضيقاً بين جزيرة ورأس يطل على الشمال. أخذوا يطوفون حول هذا الرأس من الغرب. في خلال الجزر ظهر قاع البحر، واستقر مركبهم على مضحل، وانطلق الماء بعيداً، ولكنهم كانوا يتحرقون شوقاً

إلى النزول على الشاطئ، فلم ينتظروا أن يرفع البحر مركبهم من جديد، وتوجهوا إلى اليابسة على الفور.

كان هناك نهر يتدفق من بحيرة. حينما رفع المد مركبهم مجدداً، استقلوا القارب، وتوجهوا إلى المركب، وقادوه على النهر صاعدين إلى البحيرة. رسوا هناك وأخرجوا أكياس النوم، ونصبوا الخيام. قرروا البقاء هناك فصل الشتاء، وشيدوا بيوتاً كبيرة، وكان في النهر والبحيرة الكثير من السمك الأحمر الكبير الذي لم يروا نظيراً له في السابق. في تلك البلاد المباركة ليس من الضروري في رأيهم إعداد العلف من أجل الماشية لفصل الشتاء. في الشتاء لا يقع صقيع هناك، ويبقى العشب اخضر كشأنه في الصيف تقريباً، ولا يوجد هناك بون شاسع بين النهار والليل من حيث الطول كما في غرونلاند أو أيسلاندا... حينما أصبحت بيوتهم جاهزة، توجه لايف إلى رفقائه قائلاً: "أريد الآن أن أجعلكم مجموعتين لتفقد هذه الأرض. سيبقى نصفكم عند البيوت، ويتوجه النصف الآخر إلى عمق البلاد مسافة يستطيعون معها العودة إلى هنا مساء، وعليهم أن يبقوا معاً". هكذا تصرفوا بعض الوقت... في أحد الأيام لم يرجع أحدهم إلى البيت؛ وهو الألماني توركير. قلق لايف كثيراً؛ لأن توركير عاش معه ومع أبيه طويلاً، وكان يحبه منذ أن كان طفلاً. وبخ لايف رفقاء توركير، وتوجه إلى البحث عنه، وذهب معه ١٢ شخصاً. لم يسيروا مسافة قصيرة حتى قابلوا توركير، فحيوه بسرور.

سرعان ما لاحظ لايف أن مربيه السابق يتصرف على نحو غريب... سأله: "لماذا رجعت متأخراً يا أبي؟ ولماذا ابتعدت عن الآخرين؟" ورداً عليه تكلم توكير طويلاً بالألمانية، وقلب عينيه، وصعَّر وجهه. لم يفهم أحد كلماته. بعد بعض الوقت أخذ يتكلم بالسكاندينافية وقال: "سبقت رفقائي

قليلاً، ولكن تسنى لي أن أقوم باكتشاف جديد: عثرت على كرم وعناقيد عنب". سأله لايف: "أهذا صحيح يا أبي؟" أجاب: "طبعاً، صحيح. لقد ترعرعت في مكان تكثر فيه الكروم"، وانقضى الليل. عند الصباح قال لايف لرجاله: "سنعكف على عملين: في يوم نجمع العنب، وفي الآخر نقطع الجفن، ونقص الأشجار لنحملها على مركبنا". هكذا قرروا... وحينما حل الربيع استعدوا للإقلاع، أطلق لايف على هذه البلاد اسماً يناسب خصائصها، ودعاها أرض العنب (فينلاند)..."[٢٢].

بغض النظر عما إذا كان يوجد عنب هناك أو لا، فإن توركير كان على الأرجح محباً للمزاح؛ لأنه لم يتسن بعد لأحد أن يثمل بأكل العنب وحده. بعد لايف قدم إلى فينلاند أخوه تورفالد نحو أعوام ١٠٠١ - ١٠٠٣؛ ثم أخوه الآخر تورستين بعد سنة تقريباً، وقام بالرحلة الخامسة الفيكنغي الغني والوجيه تورفن كارلسيفني في نحو أعوام ١٠٠٥ - ١٠٠٧؛ وتعزو الساغات الرحلة الأخيرة إلى الأيسلانديين خليغي وفنبوغي اللذين رافقتهما في سفرهما الطويل فريديس، شقيقة لايف (نحو أعوام ١٠١٠ - ١٠٢٠). بيد أن كل محاولات الفيكنغ الاستقرار في الاراضي المكتشفة حديثاً والغنية بكل المصادر الطبيعية الضرورية منيت بالفشل، فقد تدخلت في الأمر قوة مفاجئة وجبارة جداً، وهي سكان فينلاند الأصليون الذين أطلق عليهم النورمانديون اسم "السكريلنغ".

كلمة "سكريلنغ" لا تشير بحد ذاتها إلى شيء، مع أنه يمكن العثور على تفسير لها في اللغة النروجية القديمة: "سكريلا" (Scraela) - "صراخ" أو "سكريلنا" (Scraelna) - "تجعد". ويمكن ترجمة هذه الكلمة على سبيل المزاح بمثابة "الصارخ المتجعد"، ولكن هذا لن يساعد على تحديد

انتماء السكان الأصليين إلى أي شعب معين في أمريكا. من الأبسط افتراض أن الفيكنغ لم يكونوا يميزون أبداً بين الهنود الحمر والأسكيمو، وكانوا يسمون كل ساكن أصلي يصادفونه سكريلنغيا[٢٣].

بيد أن الدخلاء، كما تشير بعض التفاصيل المميزة الواردة في الساغات، اصطدموا بالاسكيمو وبالهنود الحمر على حد سواء. أبحر تورفالد، أخو لايف، في مركبه إلى فينلاند حيث أمضى الشتاء في البيت الذي بناه أخوه، ثم قام بعدة بعثات استطلاعية في الجوار. في أحد الأيام صادفت إحدى فصائل النورمانديين على شاطئ البحر ثلاثة قوارب مقلوبة يختبئ تحتها تسعة من السكان الأصليين. لم يتردد الفيكنغ طويلاً وهجموا عليهم وقتلوا الجميع باستثناء واحد استطاع الفرار. وسرعان ما أتى القصاص على هذا الطيش. ظهر في الأفق أسطول كامل لقوارب مصنوعة من الجلود يغص كل منها بالمحاربين المحليين. ما ان هم الفيكنغ بتناول سيوفهم وبلطاتهم حتى انهال عليهم وابل من سهام السكريلنغ. انغرز أحدها في صدر تورفالد. انتزع السهم، وأمر رفقاءه بالتراجع، ومات. ولكنه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة نطق بهذه الكلمات الحافلة بالتنبؤ: "لقد فتحنا بلاداً خصبة، ولكنها لن تجلب لنا السعادة".

وهكذا، كما تشير الساغات السكاندينافية، جرى في ظروف العداء الصريح والدرامية القاتمة أول لقاء نعرفه بين رسل أوروبا البعيدة وسكان أمريكا الأصليين.

تصف الساغات بأكثر ما يكون من التفصيل أكبر بعثة للفيكنغ إلى فينلاند، وقد ترأسها تورفن كارلسيفني. رافقه ٦٠ رجلاً و٥ نساء والكثير

من الحيوانات الداجنة. من الواضح أن النورمانديين نووا تأسيس مستوطنة كبيرة في فينلاند. أمضوا الشتاء في بيت لايف اريكسن، وفي الصيف التالي قابلوا السكريلنغ مجدداً. في البداية عقدت بين ممثلي العالمين علاقات سلمية بما فيه الكفاية. وجرت بينهما تجارة بالمقايضة. عرض السكان المحليون جلود الحيوانات وطلبوا بالمقابل أسلحة الفيكنغ الفولاذية العجيبة. ولكن بعد أن تلقوا رفضاً قاطعاً، قنعوا بحليب البقر الذي أعجبهم جداً.

بيد أن الوضع فيما بعد احتدم من جديد، ووصل الأمر إلى معركة مكشوفة مع فصيلة تضم عدداً غفيراً من السكان الأصليين. وانتصر الفيكنغ في نهاية المطاف. ومع ذلك اضطروا إلى مغادرة فينلاند. بقي كارلسيفني هناك سنتين وفق "قصة الغرونلانديين"، وثلاث سنوات وفق "ساغا أريك الاحمر".

كانت البعثة الأخيرة أكثر البعثات فشلاً، ولا شك، أما المرأة السادية فريديس (أخت لايف السعيد) فكانت روح البعثة القائمة بما لا يقبل الجدال. فهي بالذات التي أثارت فتنة دامية وسط الفصيلة الصغيرة للمستوطنين النورمانديين، وبيديها بالذات قتلت بالبلطة خمس نساء نجون من بين أعدائها. هكذا كانت النهاية الدرامية للموجة الأولى من الاستيطان النورماندي في أمريكا الشمالية.

آثار الفيكنغ في أمريكا

وهكذا ينجم حتماً عن أخبار الساغات النورماندية القديمة، التي لم تكن صحتها تثير شكوكاً خاصة، أن الفيكنغ السكاندينافيين اكتشفوا ساحل أمريكا الشمالي الشرقي قبل كولومبس بمدة ٥٠٠ سنة، وحتى أنهم بذلوا محاولة لتأسيس مستوطنة لهم هناك. وهذا ما تحدث عنه لأول مرة في مستهل القرن الثامن عشر المؤرخ الدانمركي تورفيوس. وفي عام ١٨٣٧ توجه مواطنه كارل رفن، الذي نشر في كوبنهاغن مؤلفاً ضخماً من أربعة مجلدات عن رحلات النورمانديين إلى فينلاند، بهذا الطلب البريء إلى زملائه مؤرخي الولايات المتحدة: البحث على ساحل البلاد الأطلسي عن آثار إقامة الفيكنغ هناك.

تحدث الصحافيون العاملون في الجرائد والمجلات عن هذا في كل بقعة من الولايات المتحدة تقريباً، وأصبح البحث عن إرث الفيكنغ الملموس هواية شاملة وموضة من نوع خاص، وسرعان ما ظهرت النتائج.

اتضح أن أراضي ولايتي رود أيلاند ومساتشوستس، حيث كانت تقع، حسب قول رافن، محطات مراكب الفيكنغ المحتملة أكثر ما يكون، "محشوة" تماماً بكل ما يمكن من اللقيات المثيرة. اكتشف اليانكي على الصخور في دايتن نقوشاً رونية سكاندينافية، واكتشفوا في نيوبورت برجا حجرياً قديماً، ثم اكتشفوا في الجوار رفات أحد الفيكنغ الرواد، ولكن

"النقوش الرونية" اتضح عند النظر إليها عن كثب أنها رسوم صخرية هندية ذات غرض سحري - "بيتروغليفات"، والبرج في نيوبورت، حسب شهادة وثائق المستوطنين، بناه في عام ١٦٧٥ المحافظ الإنكليزي رود-إيليندا، أما المدفن المشؤوم فكان، بناء على الطقس وتشكيلة الأشياء، مدفناً هندياً بشكل واضح، ولكن هذا لم يستطع بشكل من الأشكال التأثير في المزاج العام.

استجاب مؤلف "هاياواتا" الشهيرة، الشاعر لونغفلو، لكل ما يجري بقصيدة "هيكل عظمي في درع"، حيث يحول خيال الشاعر كل قبر لهندي إلى مدفن لمحارب فيكنغي مدجج بدرع فولاذي، أما برج نيوبورت فأصبح أثراً لحب هذا الفارس الفتي المتوفى في القرون الوسطى لسيدته الجميلة:

"ثلاثة أسابيع استمرت الرحلة إلى الغرب،

وحينما هدأت العاصفة،

رأينا شاطئاً كغيمة

يمتد من جهة الريح.

هنا بنيت مفعماً بالحب

مسكناً لسيدتي،

برجاً شامخاً ما زال حتى الآن

ينظر إلى البحر"[٢٤].

في مقدمة القصيدة يشير لونغفلو نفسه إلى أن حبكتها من بنات الخيال، أما الصلة بين الهيكل العظمي في الدرع وبرج نيوبورت فهي

أسلوب فني، شعري بحت، ولكن كان الأوان قد فات. وفي ذاكرة أوسع فئات سكان الولايات المتحدة ترتبط كلتا اللقيتين إلى الآن ارتباطاً وثيقاً بالفيكنغ المقاديم.

في عام ١٨٩٨ عثر المزارع الأمريكي أولاف أومان ذو الأصل السويدي في كينسينغتن، ولاية منيسوتا، تحت جذور شجرة حورة كبيرة كتلة ثقيلة لحجر رمادي خطت عليها إشارات غريبة تشبه الرونات السكاندينافية... بعثت اللقية على الفور إلى بريدا، البروفسور الفيلولوجي في جامعة منيابوليس، الذي أكد أن الرموز الكتابية رونية فعلاً. وأعطى أول ترجمة لها. يقول نص الكتابة القديمة:

"(نحن) ٨ غوطيين (أي سويديين) و٢٢ نروجياً، (أفراد) الرحلة الاستطلاعية من فينلاند إلى الغرب. توقفنا عند جزيرتين صخريتين في أحد أيام السفر إلى الشمال من هذا الحجر. (ذهبنا) لمدة يوم لصيد السمك. ثم رجعنا ووجدنا عشرة من رجالنا ملطخين بالدم وموتى. (رحمتك يا مريم العذراء)، خلصينا من الشر! بقي عشرة أشخاص من فصيلتنا عند البحر لمراقبة مراكبنا (أو مركبنا)، على بعد ١٤ يوماً من السفر عن هذه الجزيرة. عام ١٣٦٢"[٢٥].

منذ الأيام الأولى التي أعقبت نشر هذه اللقية ظهرت مؤلفات كثيرة تتناول صحتها بالتشكيل الجدي على أساس التحليل اللغوي البحت، ولا يزال النقاش حول حجر كينسينغتن دائراً إلى اليوم، ولكن لم يحقق بعد أي من الطرفين المتعارضين نجاحاً حاسماً.

من المعروف الآن بما لا يقبل الشك أن الحجر ذا الكتابة الرونية قد غمرته الرواسب الترابية منذ عشرينات القرن التاسع عشر. في ذلك الزمن لم

يكن يعيش في منطقة كينسينغتن سوى مزارعين بسطاء لا يحسن أغلبهم القراءة والكتابة عموماً، ومن باب أولى ألا يكون بينهم اختصاصيون في الكتابة الرونية. ويستنتج الجيولوجيون أن "المظهر الخارجي للحجر يجعل من الأصح افتراض أن النقش يبلغ من العمر ٦٠٠ سنة". ويتمسك برأي كهذا ريخارد هنيغ أيضاً. يكتب قائلاً: "... يمكن، طبعاً، تقليد الكتابة الرونية، ولكن تقليد درجة تآكل الرموز على الحجر بفعل الريح أمر مستحيل. فعملية التآكل التي انطلقت بعيداً تؤكد، ولا شك، أن الكتابة نقشت منذ عدة قرون"[٢٦].

لو كان الأمر كذلك فعلاً لتلقى العلم في حجر كينسينغتن وثيقة تاريخية فائقة الأهمية. وهذا يعني أنه في عام ١٣٦٢، أي قبل كولومبس بمائة وثلاثين سنة أقامت بعثة استطلاع من ٣٠ اسكاندينافياً في عمق الجزء الشمالي من أمريكا، في أعالي نهر المسيسيبي!

يربط خولاند، الذي كرس كل حياته لدراسة حجر كينسينغتن، ظهور هذا الحجر ببعثة بأول كنوتسن التي أرسلها إلى غرونلاند في عام ١٣٥٥ الملك النروجي ماغنوس أريكسون بهدف تعزيز الدين المسيحي الذي تزعزع بين الجالية المقيمة هناك، وفي رأي هذا العالم أن بعثة كنوتسن، وقد علمت بخبر "اختفاء" سكان المستوطنة الغربية في غرونلاند، واحتمال انتقالهم إلى فينلاند، تبعتهم إلى شواطئ أمريكا الشمالية. لم يعثروا في فينلاند على المفقودين، وبعد عدة سنوات من الإقامة في العالم الجديد عادت البعثة إلى النروج بعد أن فقدت عدداً من رجالها في الاشتباكات مع الهنود.

اللقيات من مواد الأسلحة السكاندينافية العائدة إلى القرون الوسطى في منطقة البحيرات الكبرى، ولغز الهنود الماندانيين ذوي البشرة البيضاء

والعيون الزرق من شأنها، حسب رأي خولاند، أن تعزز فقط صحة المعلومات التي تتحدث عنها النقوش على صخرة كينسينغتن[٢٧].

بيد أننا لن نسرع في الاستنتاجات؛ إذ يبرز في الولايات المتحدة كمعارض حاسم لخولاند (السكانديناڤي الأصل) خلف آخر للفيكنغ، وهو العالم الفيلولوجي الأمريكي المعروف، الاختصاصي في اللغات السكاندينافية والألمانية، بروفسور جامعة كاليفورنيا أريك فالغرن. بعد تحليل دقيق لنص هذه الكتابة الرونية توصل إلى استنتاج وحيد المدلول: هذا تزوير من القرن التاسع عشر[٢٨].

يمكننا فقط أن نتصور الصراع النفسي الشاق الذي كان على البروفسور أن يجتازه في غضون ذلك. إذ كان الحديث يجري عن أمور فائقة الأهمية: هل يعلو فيه الشعور الوطني لخلف الفيكنغ أو تتغلب النزاهة العلمية. وانتصر حب الحقيقة. وينبغي القول أن أغلب علماء أوروبا وأمريكا الشمالية يدعمون أريك فالغرن في قناعته[٢٩].

ما إن هدأت المناقشات حول حجر كينسينغين حتى نبش أنصار فكرة إقامة النورمانديين الطويلة في العالم الجديد جملة من "البراهين القوية" الجديدة.

في هذه المرة جرى الحديث عن "مدفن الفيكنغي" الذي عثر عليه قرب بحيرة نيبيغون (إقليم أونتاريو، كندا) في عام ١٩٣١، وعن دزينة من"الهلبردات"[١] النورماندية في مختلف أماكن ولاية منيسوتا (الولايات المتحدة).

---

(١) هلبرد (Halberd) سلاح مؤلف من رمح وفاس حربية. المترجم

في الحالة الأولى وجدت تحت جذور شجرة بتولا على عمق أكثر من متر عن سطح الأرض أسلحة اسكاندينافية تعرضت لصدأ شديد، ولكنها حافظت على شكلها، وهي عبارة عن سيف وبلطة حربية، وبقايا عقد ترس حديدية، ولكن لم تكن هناك أية عظام في الجوار.

وكان صديق لجامع عاديات نورماندية "أول من اكتشف" "قبر الفيكنغي". بالإضافة إلى أنه وجد شهود رأوا سابقاً مواد الأسلحة هذه في بيت الجامع المذكور. وكان الأمر أبسط بالنسبة إلى "الهلبردات". حينما وقعت هذه "التحف" في أيدي الخبراء، حددوا بلا أية صعوبة أنها قواطع للتبغ أعدتها شركة روجرز من سبرينغفيلد (ولاية أوهايو) في القرن التاسع عشر[٣٠].

ونتيجة لهذا الضجيج عام "برج نيوبورت" على السطح من جديد. وطالب أكثر المتحمسين بأن يعترف له رسمياً مهما كلف الأمر بصفة "منشأة من عصر الفيكنغ"، ولا يهم أن يعتبر برج حراسة أو أول معبد مسيحي في الأرض الأمريكية. ولم يعد عمره ينطوي على أي مغزى: حتى وإن لم يكن البرج من صنع أيدي لايف السعيد وأقرب أخلافه، لا بد من الاعتراف بأنه يعود إلى القرن الرابع أو الخامس عشر. واقتضى الأمر القيام بحفريات حقيقية حول البرج وعند أساسه. وما لبث الآثاريون المحترفون أن أعطوا قرارهم النهائي:

كل الأشياء التي عثر عليها تعود إلى الفترة الاستعمارية فقط، من القرن الثامن عشر وبعده[٣١].

وهذا هو أيضاً شأن "البرهان" الآخر على إقامة الفيكنغ في الساحل الشرقي للولايات المتحدة، ونعني به حجارة "القلس" أو "المرس"، وهي

بلاطات أو جلاميد بثقوب وحزوز عميقة. مثل هذه الحجارة بالذات يستخدمها الكثير من الصيادين المحليين إلى الآن. ولذلك لا يمكن أن تشكل برهاناً على رحلات النورمانديين إلى أمريكا(٣٢).

وأثارت كلمة "فينلاند" - "بلاد العنب" نفسها الكثير من التخمينات والمناقشات. من المعروف أن العنب البري لا ينمو في المناطق الشمالية من أمريكا نفسها، بل يصادف في مناطق أبعد بكثير في الجنوب، على خط عرض ولايتي رود- أيلاند ومستشوسيتس. وإذ استخدم البعض هذا الواقع بلا أية أسس مع ادعائهم التناول العلمي، اعتبروا أن فينلاند تمتد على ساحل الولايات المتحدة من شبه جزيرة كيب كود في ولاية مستشوسيتس إلى شبه جزيرة فلوريدا.

"آن الأوان لأن يتدخل في هذا النقاش شخص لا يمارس المجادلة، بل يدرس بتجرد كل المعلومات التي وصلت إلينا. وقد ظهر هذا الشخص"(٣٣). كان اسمه خليغي أنغستاد، ولم يكن يعيش في الولايات المتحدة، بل في النروج، ولذا يمكن له، وفق كل المسوغات القانونية، أن يعتبر نفسه خلفاً مباشراً للفيكنغ.

هل عثر على فينلاند؟

قبل ذلك عكف خليغي أنغستاد على دراسة تاريخ غرونلاند، وهناك بالذات راجع كل ما وجد من مصادر كتابية ووقائع، وطرح فرضيته حول موقع فينلاند. حينما توجه الباحث النروجي عام ١٩٦٠ إلى بعثته الأولى بحثاً عن بقايا مستوطنات الفيكنغ في أمريكا، تعرض، شأن كل مبتدئ، لسخرية أغلب الاختصاصيين. لقد قارنوا البحث عن المستوطنة التي كانت، كما تشير كل الدلائل، الوحيدة على امتداد الساحل الأطلسي البالغ ٢٥٠٠ كم بالبحث عن إبرة في كومة من القش. بيد أن انغستاد لم يبدأ عمله أبداً كيفما اتفق. لقد توصل منذ زمن بعيد إلى قناعة راسخة بأنه ينبغي البحث عن فينلاند في الجزء الشمالي من نيوفوندلاند. صحيح أنه أعرب عن وجهة النظر هذه في الماضي أيضاً، ولكن كل المحاولات للعثور على آثار مستوطنة الفيكنغ في الجزيرة لم تكلل بالنجاح.

أثار أصل كلمة "فينلاند" نفسه تفكيراً عميقاً لدى النروجي. هل كان هذا المصطلح يعني "بلاد العنب" حقاً؟ واستطاع أن يحدد ان "فين" عند السكانديناڤيين القدماء تترجم بمثابة "البلاد الغنية"، "البلاد الخصبة"، "أرض الحقول والمراعي". في المناطق الخصبة من النروج والدانمرك تبدأ اسماء الكثير من الأماكن بمقطع "فين" مع أن العنب لا ينمو هناك عموماً. أما في خصوص النبيذ الذي يذكر عدة مرات في كل من الساغات، فإن الفيكنغ يستطيعون صنعه من الثمار البرية العديدة الموجودة في غرونلاند،

وفي نيوفوندلاند بشكل خاص: عنب الثعلب الأحمر، الويبرنوم، عنب النصارى وغيرها[٣٤].

تفقد أنغستاد برفقة زوجته أنا ستاين، وابنته بينيدكتا سيراً على الأقدام، مستعينا بوسائل المواصلات التي صادفها في طريقه وعلى يخته الخاص، كل شمال شرق الولايات المتحدة وجزءاً من كندا، ولم يعثر على مكان يشبه ذلك الذي وصفته الساغات. لم يتفق وهذه الشروط القاسية سوى نيوفوندلاند. وهناك، قرب قرية صغيرة لصيادي السمك ذات اسم غريب، وهو لانس- أو- ميدوز، عثر أخيراً على أطلال مبان قديمة لا تعود، كما تشير سماتها الخارجية إلى الهنود الحمر، ولا إلى الأسكيمو. واسم القرية نصف الفرنسي، ونصف الإنكليزي معناه "خليج وسط المروج". وكيف لا يخطر على الذاكرة هنا أن كلمة "فين" النورماندية القديمة أيضاً كانت تعني قبل كل شيء "المرج"، "المرعى". وكان الخليج نفسه، وما يحيط به يطابقان وصف مكان نزول بعثات الفيكنغ الأولى في فينلاند.

استمرت الحفريات الأثرية في لانس- أو- ميدوز خمس سنوات، من عام ١٩٦٠ إلى عام ١٩٦٤. وبينت أن المباني تعود إلى النورمانديين. وقد شيدت في نحو عام ١٠٠٠ ب.م، أي حينما انطلق لايف السعيد، وعلى أثره الآخرون، من غرونلاند إلى شواطئ أمريكا. ولما كنت لا أملك إمكانية التحدث بأي تفصيل يذكر عن هذه الاستقصاءات العلمية الطويلة والناجحة، فسأقتصر هنا على أهم نتائجها[٣٥].

نقب أنغستاد بمساعدة آثاريين محترفين عن ثمانية بيوت كبيرة وصغيرة، أو بالأحرى عن بقايا أسسها، واكتشفت كذلك أنقاض محل للحدادة، وحمام بخار، وحفر لاشعال الفحم الخشبي. وفي وسط كل هذا كان يقع ما يسمى

"البيت الطويل" وفيه خمس غرف مساحتها الإجمالية ٣٢٠ متراً مربعاً. وتحدث انطباعاً خاصاً القاعة، وهي الغرفة الرئيسة التي تثير المخيلة حتى وفق المعايير الحالية. مساحتها ٣٢ متراً مربعاً، وفي وسط القاعة موقد كبير.

لم تكن اللقيات كثيرة بمجموعها، ولكن الأمر الرئيس أنها تبرهن بما لا يقبل الشك على أن المباني المنقب عنها تعود إلى الفيكنغ بالذات. فقد تسنى العثور، مثلاً، على حديد مصنع تم الحصول عليه من فلزات مستنقعية بطريقة معروفة جيداً للنورمانديين، ولكن كان سكان العالم الجديد يجهلونها قبل قدوم الأوروبيين. وعثر على دبوس برونزي ذي أصل نورماندي واضح. وحينما انتزعت آنا ستاين، زوجة أنغستاد، من تحت الأرض ثقل مغزل صغيراً مستديراً من الحجر الصابوني (الاستيتيت)، لم يكن ثمة حد لفرح المساهمين في البعثة. فقد كان سكان النروج وغرونلاند في عهد الفيكنغ يستخدمون على نطاق واسع مثل هذه الاثقال بالذات.

تمكن سلسلة كاملة من التواريخ، التي تم الحصول عليها وفق نماذج الفحم في "البيت الطويل"، من أن نعزو بكل ثقة زمن وجود المبنى إلى عام ١٠٠٠ ب.م.

وهكذا، اكتملت حلقات سلسلة البراهين. ولأول مرة في تاريخ الاستقصاءات العلمية المرتبطة بإقامة البحارة النورمانديين في أمريكا الشمالية، تسنى، أخيراً، العثور على آثارهم الملموسة والمادية تماماً. أي أن ساغات القرون الوسطى كانت مصيبة في الأمر الرئيس، وكانت فينلاند تقع فعلاً في شمال شرق القارة الأمريكية. بيد أن الاستنتاج العام لانغستاد بعد انتهاء الأعمال في لنس - أو - ميدوز يشوبه شيء من الاتزان والحذر:

"من الصعب هنا، كما في الحالات المماثلة الأخرى، البرهان بشكل علمي صارم على أن المسكن كان يعود إلى أشخاص معينين، معروفين تاريخياً. صحيح أن جملة من السمات تشهد على أن لايف أركسون بنى بيوته الكبيرة في لنس- أو- ميدوز بالذات وأن الجزء الشمالي من نيوفونلاند يطابق فينلاند الساغات. ولكن هذا ليس بالأمر الجوهري. ما هو رئيس يكمن في أن التحليلين الآثاري والإشعاعي الكربوني يبينان ان البيوت ... كانت تعود إلى النورمانديين وبنيت قبل كولومبس، نحو عام ١٠٠٠"(٣٦). وبالتالي لم تكن "فينلاند الطيبة" تقع في القارة، بل في جزيرة؟ أما العزبة التي عثر عليها في لنس- أو- ميدوز فكانت تعود إلى لايف السعيد، "المكتشف الأول للعالم الجديد؟ " اقنعت حجج انغستاد الكثير من العلماء، فوافقوا على استنتاجاته.

كتب كيرام، مثلاً: "لم تعد توجد أي شكوك في أن هذا البيت هو بيت لايف اركسون. ومن هناك كان ينطلق إلى صيد السمك والقنص. وعند هذا الموقد كان يتعشى وسط فصيلته. وهناك كانوا يتحدثون عن المآثر، وهذه الأخبار، إذ تناقلتها الألسن، وصلت إلى غرونلاند وأيسلاندا، وإلى النروج، حيث غدت ساغات في نهاية المطاف. وقد ترك هذا البيت لأقربائه، حينما عاد إلى غرونلاند ليموت في الوطن ..."(٣٧).

ولكن، أولاً، لم يمض لايف في فينلاند سوى وقت قصير نسبياً، وكانت إقامته الدائمة على أي حال في عزبة أبيه براتاليد، في مستوطنة الفيكنغ الغرونلاندية.

ثانياً، إذ يستند بعض العلماء إلى أن أكبر بعثة للفيكنغ إلى الغرب كانت، كما تقول الساغات، بعثة الأيسلاندي تورفن كارلسيفني (٧٠- ٨٠ شخصاً)،

يعزون المجمع السكني في لنس- أو- ميدوز إليه بالذات. وبالفعل، كان مع لايف ما مجموعه ٣٥ شخصاً، في حين أن البيوت في نيوفوندلاند تتسع عند الحاجة لعدد من السكان يتراوح ما بين ٦٧ و٩٠ شخصاً.

وعلاوةً على ذلك، فإن البروفسور أريك وهلغرن من جامعة كاليفورنيا، الذي أتينا على ذكره، اعترف بالمغزى الكبير لاكتشافات أنغستاد في لنس- أو- ميدوز، كبرهان مباشر على إقامة النورمانديين في العالم الجديد، ولكنه رفض في الوقت نفسه رفضاً قاطعاً فكرة النروجي حول اعتبار نيوفوندلاند وفينلاند شيئاً واحداً. تقع فينلاند، حسب قوله، أبعد بكثير إلى الجنوب، على ساحل القارة الأطلسي، عند ملتقى ولايتي مين (الولايات المتحدة) ونيوبرنسويك (كندا)، في منطقة خليج فندي. أما البرهان فيتلخص من جديد في كون العنب والكروم، المشار إليها في الساغات عند الحديث عن فينلاند، لا يمكن أن تنمو شمالي الأراضي المذكورة[٣٨]. وهذا يعني أن البيوت في لنس- أو- ميدوز لم تكن تعود إلى لايف ولا إلى كارلسيفني، بل إلى فيكنغ آخرين ربما لم يرد ذكرهم عموماً في الساغات التي وصلت إلينا.

وهكذا، يستمر البحث عن الموقع الدقيق لفينلاند. ومن يعرف، فقد نسمع عن قريب خبر العثور، أخيراً، على آثار مستوطنة الفيكنغ في مكان ما على ساحل نيو أنغلند.

لغز المستوطنة المختفية

أعار عالم العلماء قضية فينلاند وإقامة الفيكنغ في القارة الأمريكية اهتماماً كبيراً مما جعل دور المستوطنة الغرونلاندية، التي أرسى أساسها أريك الأحمر منذ عام ٩٨٦، يبتعد إلى المقام الثاني. هذا في حين أن كل الرحلات إلى الأراضي الغربية، خلولاند وماركلاند وفينلاند، انطلقت من غرونلاند بالذات، وأقام بها سكانها كقاعدة عامة.

وعلاوة على ذلك، تقع غرونلاند في النصف الغربي من الكرة الأرضية، وبالتالي تشكل جزءاً لا يتجزأ من العالم الجديد. ولهذا كان اكتشافها واستيطانها من جانب الأوروبيين قبل كولومبس بخمسمئة سنة حدثاً غير عادياً بالمرة من وجهتي النظر الجغرافية والتاريخية على حدٍّ سواءْ.

وللأسف، فإن جمال فينلاند بدواليها الملتفة حجب لأمد طويل الحياة المتواضعة للمستوطنين النورمانديين الذين قبعت مستوطناتهم العديدة في الطرف الجنوبي، الخالي من الجليد للجزيرة المتجهة والمقفرة. عند بعث تاريخ الغرونلانديين القديم لا مفر من الاعتماد مجدداً على أخبار الساغات وحدها، وهي أخبار شحيحة، وغير مفهومة دائماً.

بدأت الحفريات الآثارية لمستوطنات الفيكنغ في غرونلاند في عشرينات القرن الحالي، حينما نظمت بمساعدة المتحف الوطني الدانمركي في كوبنهاغن سلسلة كاملة من البعثات التي استمرت حتى بداية الحرب

العالمية الثانية، وأسفرت عن لقيات في غاية الأهمية، واستمرت الاستقصاءات هناك بعد ذلك أيضاً، ولا نستطيع الآن إلا على أساس كل المعلومات التي كدسها العلم أن نبعث بالخطوط العريضة أهم الصفحات في تاريخ أبعد مستوطنات الفيكنغ إلى الغرب، المستوطنة التي كتب عليها القدر أن تصبح أهم حلقة وصل بين أوروبا وأمريكا الشمالية.

منذ أن وطئ أريك الأحمر ورفقاؤه الأرض الغرونلاندية لأول مرة وألفوا العيش هناك، أخذ سكان الجزيرة يزدادون بسرعة؛ بسبب قدوم مستوطنين جدد من أيسلاندا والنروج، ولكن حتى في أوج ازدهار المستوطنة المحلية في القرن الثالث عشر لم يزد عدد سكانها على ثلاثة أو خمسة آلاف شخص[٣٩].

في خلال العمليات الآثارية تسنى العثور في نطاق الأراضي التي عمرها الفيكنغ على بقايا ما يقرب من ٣٠٠ عزبة (ضيعة) و١٧ كنيسة، وضياع للأسقف وديرين أحدهما للرجال، والآخر للنساء[٤٠]. كانت توجد في الجزيرة مستوطنتان نورمانديتان كبيرتان: "غربية" (فستربغدن) و"شرقية" (أوستربغدن)، والمسافة بينهما نحو ٤٠٠ ميل.

كانت المنطقة القطبية مدرسة صارمة للمستوطنين، ولكنهم اجتازوا كل الامتحانات بشرف. وكان الفيكنغ، كما في وطنهم، ينطلقون إلى عرض البحر، ويبنون البيوت من الحجر والطبقة العليا من التربة المشتملة على العشب والجذور ويزرعون قطع الأرض الشحيحة، ويربون الماشية ويقتنصون الحيتان والفقم والأيائل الكاريبو، ويصيدون السمك. كان القنص وصيد السمك وتربية الماشية الوسائل الأساسية للحصول على

الطعام عند الغرونلانديين. لم تكن تنبت حبوب تقريباً في الجزيرة، ولكن هناك ما يكفي من الأعشاب والشجيرات لتحضير الأعلاف، مما مكن من تربية الغنم والبقر والخيل، وتشير أماكن الحدادة والخبث إلى أن النورمانديين استوعبوا هناك سبك الحديد من الفلزات المستنقعية. كانت الأدغال الكثيفة لأشجار البتولا القزمة، وجبال حطام السفن على شاطئ البحر تشكل مصدراً كافياً من الأخشاب للبناء والمصنوعات المنزلية والوقود.

نبش الآثاريون عن العزب المعروفة من الساغات والعائدة إلى المشاركين في ملحمة فينلاند: في براتاليد (قرب يوليل نيهاب) : البيت الطويل وملحقاته لأريك الأحمر، وابنه لايف، وعزبة تورفن كارلسفيني إلخ. وترأس البعثة الدانمركية على امتداد العشرينات بأسرها بول نيورلند (أعوام ١٨٨٨ - ١٩٥١)، الآثاري والمؤرخ الذي شغل لاحقاً منصب مدير المتحف الوطني في كوبنهاغن، وهو متحدر من أسرة دانمركية مثقفة معروفة، وبالمناسبة، كان الفيزيائي المعروف نلس بر واحداً من أقربائه.

كان نيورلند باحثاً محظوظاً جداً، فمنذ أول موسم ميداني، في صيف عام ١٩٢١، نبش عن عزبة ريفية في خريولفسنس، واكتشف هناك أشياء متنوعة ومحفوظة على نحو رائع. لم تكن هذه اللقيات تتحدث ببلاغة عن حياة المستوطنة النورماندية البعيدة فحسب، بل وعن المعيشة اليومية للشعب البسيط في أوروبا في القرون الوسطى عموماً؛ إذ إن قطع القماش والملابس الصوفية التي كانت في قبور الفيكنغ في ظروف تجمد الأرض في الأركتيكا قد بقيت بحالة جيدة وأعطت نماذج رائعة لملابس الأوروبي في عهد دانته ومعاصريه (في القرنين الرابع عشر والخامس عشر) : الأثواب

الطويلة والأردية ذات القلانس، و"القبعات البرغونية" إلخ[41]. لم تبق في أراضي أوروبا نفسها ملابس من تلك الفترة، ومن هنا الأهمية الخاصة لكل اللقيات الغرونلاندية التي وصلت إلينا.

بيد أن الاكتشافات المهمة بشكل خاص قام بها نيورلند وزملاؤه في عام ١٩٢٦، حينما تسنى لهم تعيين الموقع الدقيق لمقر الأسقف في غردار: في رأس ضيق بين خليجين مقابل عزبة براتاليد. أسست غردار، كما يبدو، في النصف الأول من القرن الثاني عشر. ومع أن لايف السعيد هو الذي جلب المسيحية إلى غرونلاند، كما تشير المصادر الكتابية، إلا أنه لم تؤسس هناك أسقفية مستقلة إلا في عام ١١٢٤، بعد أن سمح بهذا الملك النروجي سيغرد يرسالفار إثر تلقيه من مستوطنة الفيكنغ الغرونلاندية دباً أبيض كهدية، وحينذاك ظهر في غردار، على ما يبدو، مقر أسقفي.

بين الآثاريون الدانمركيون وجود قاعة عالية واسعة في مبنى المقر يمكن لها أن تتسع عند الضرورة لعدة مئات من الاشخاص لحل الشؤون الكنسية أو المدنية، ومن الممكن تماماً أنه كانت تعقد هناك بالذات جلسات "الألتنغ" المحلي، "الجمعية الشعبية"، هيئة الإدارة الذاتية لكل المشاعية الغرونلاندية.

وكانت تقع إلى جانب المقر أطلال كاتدرائية حجرية رشيقة مكرسة للقديس نقولا، حامي البحارة.

بيد أن قمة كل أعمال عام ١٩٢٦ كانت اكتشاف مدفن أحد أساقفة غرونلاند في الملحق الشرقي للكاتدرائية. وكانت إلى جانب الهيكل العظمي للأسقف عصاه ذات المسكة المصنوعة من عظم محفور، وهي

نموذج رائع لفن الصياغة في القرون الوسطى. وقد صنعت هذه المادة نحو عام ١٢٠٠ في أيسلاندا [٤٢].

إبان الحفريات في بعض المساكن، ولا سيما في "المستوطنة الغربية" اكتشف أن جزءاً من الخشب المستخدم في البناء مجلوب ولا شك من أمريكا الشمالية. ووجدت هناك مواد أخرى ذات أصل أمريكي واضح: رأس سهم من الكوارتز كان يستخدمه الهنود الحمر، لا الأسكيمو، ربما أخذه "للذكرى" (أو انتزعه من جرح؟) بعد اشتباك مع "السكريلنغ" مشارك في إحدى البعثات إلى فينلاند؛ وقطعة من فحم الأنتراسيت من انقاض بيت كارلسيفني (اقرب مصدر لهذا الفحم يقع في رود إيلاند، على الساحل الشمالي الشرقي للولايات المتحدة) إلخ [٤٣].

وكان يصدر من المستوطنة الغرونلاندية إلى النروج، في القارة، عظم المورس والجلود، وأُهُب الأيائل، وفراء الدببة والثعالب، والسمك المقدَّد، وزغب الونس، والصقور القطبية البيضاء (التي كانت تتمتع بإقبال كبير لرحلات الصيد الملكية) إلخ. منذ السنوات الأولى لوجود المستوطنات النورماندية في الجزيرة بدأت رحلات مباشرة من غرونلاند إلى النروج (برغن). حتى القرن الثالث عشر كان الفيكنغ المحليون مستقلين عن السلطة المركزية، وكانت لهم قوانينهم ومحاكمهم، ولكن في عام ١٢٦١ خضعوا طوعاً للملك هوكن هوكنسن، وأصبحوا جزءاً من المملكة النروجية. ومنذ ذلك الحين أخذت، بناء على مرسوم ملكي، تأتي إلى الجزيرة بانتظام (ما لا يقل عن مرة كل سنتين) سفينة تجارية من برغن لتزويد المستوطنة بكل ما هو ضروري (الملح، الملت، الحبوب، الحديد إلخ) وللتجارة وأخذ عائدات الضرائب.

وماذا في خصوص فينلاند؟ أمن المعقول أن الفيكنغ الغرونلانديين بعد الرحلات الست الأولى، التي وصفتها ببلاغة اثنتان من الساغات الأيسلاندية، لم يحاولوا التغلغل أكثر في هذه القارة الغربية المغرية بثرواتها والقريبة المنال؟ يصعب تصديق هذا حتى انطلاقاً من المنطق البسيط، ولكن اتضح أنه توجد في المصادر الكتابية شهادات محددة، وإن كانت مبعثرة، تؤكد تخميننا. نحو عام ١٠٧٤ أشار مدون الأخبار الألماني آدم البريمني في رسالته التاريخية الجغرافية الضخمة عن "بلاد عثر عليها الكثيرون[١] في هذا المحيط، وسميت بفينلاند؛ لأنه تنمو هناك كروم برية تعطي عنباً رائعاً"[٤٤].

وإذا أخذنا في الاعتبار أن مدوني الأسفار الايسلانديين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر لم يكن من النادر أيضاً أن يذكروا فينلاند في مؤلفاتهم، لا يصعب استنتاج أن "البلاد المجيدة" على الجانب الآخر من المحيط لم يطوها النسيان على امتداد القرون التي مرت على اكتشافها. إذا وافقنا على هذا الواقع، فلا بد من الاعتراف كذلك بأن النورمانديين تابعوا، على ما يبدو، بذل محاولات لزيارة هذه البلاد الرائعة.

ومما يشهد على هذا الافتراض الرحلة الغامضة إلى فينلاند التي قام بها في عام ١١٢١ أول أسقف لغرونلاند أريك تبسن الذي لا يمكن أن يكون عنده باعث آخر غير السعي إلى الاهتمام بإنقاذ أرواح المسيحيين الذين استقروا في فينلاند[٤٥] وبعد ذلك لم يسمع أحد شيئاً عنه.

في مصدر أيسلاندي مؤرخ بعام ١٣٤٧ برهان مقنع على أنه بعد ٣٤٧ سنة من اكتشاف الفيكنغ أمريكا الشمالية كانت الرحلات من غرونلاند إلى

---

(١) إشارة التشديد من المؤلف.

هذه القارة أمراً عادياً. إذ إن مدون الأخبار الأيسلاندي لا يبدو له واقع رحلة ١٧ غرونلانديا إلى شواطئ ماركلاند (نيوفوندلاند؟) الغنية بالغابات أمراً يستحق الذكر، بل كون مركبهم الذي غادر غرونلاند إلى ماركلاند لجلب الخشب قذفت به عاصفة... إلى ستراوم فيورد (أيسلاندا). وفيما يلي نص هذه المدونة:

"وقدم كذلك مركب من غرونلاند أقل حجماً من سفن الأيسلانديين الصغيرة. دخل الجزء الخارجي لستراوم فيورد ولم يرس. كان يقل ١٧ شخصاً توجهوا إلى ماركلاند، ولكن قذف بهم التيار إلى هنا..."[٤٦].

هذا الحادث الذي وقع لمركب الفيكنغ عام ١٣٤٧ آخر إشارة وثائقية إلى الأراضي التي اكتشفها بيارني ولايف. وبالتدريج انعقدت الغيوم فوق رؤوس سكان الجزيرة الأركتيكية أيضاً. وقد مات الأسقف آلف، آخر رجل كنسيي رسمي في غرونلاند، عام ١٣٧٧. والمركب الملكي، الذي كان يأتي دورياً إلى الجزيرة من برغن، غرق في عام ١٣٦٩، ومع أنه تسنى إنقاذ الطاقم، فإنه لم تجر الاستعاضة عن السفينة بأخرى جديدة[٤٧]. وانقطع الخيط الدقيق الأخير الذي يربط المستوطنة النورماندية البعيدة بالوطن. هذا بالإضافة إلى أن وباء الطاعون اجتاح النروج وأيسلاندا في عام ١٣٥٠. وبالتدريج بدأ أسكيمو ثولي، الذين قدموا بأعداد كبيرة إلى شمال غرونلاند منذ القرنين الثاني عشر والثالث عشر، بالتحرك إلى الجنوب، مزيحين الفيكنغ من مناطق صيدهم البعيدة.

استمر بالتصاعد السريع التردي الشديد للمناخ وتزايد البرد الذي بدأ في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر. وبسبب البرد أصبحت تربية المواشي أصعب فأصعب، وأهملت زراعة الشعير الشحيحة[٤٨].

جرت عملية انقراض المستوطنة ببطء وبالتدريج، وحينما قدم أخيراً، مركب نروجي إلى غرونلاند بين عامي ١٤٠٦ و١٤١٠، اضطر إلى تمضية الشتاء عند "المستوطنة الغربية". لم يبق هناك أحد من السكان المحليين، وكانت الحيوانات الداجنة المستوحشة تهيم وحدها في التلال المجاورة(٤٩)، وفي الوقت نفسه يتحدث شاهد عيان من أيسلاندا زار المستوطنة الغرونلاندية في عام ١٤٠٩ بأن "المستوطنة الشرقية" لا تزال موجودة، وتحتفل بالأعراس مع التقيد بكل المراسم والقواعد(٥٠).

أبعد المستوطنتين إلى الشمال، فستربغدن ("الغربية")، هجرها سكانها حسب بعض الأخبار منذ عام ١٣٦٤. وفي عام ١٣٧٩ حملت المصادر إلينا نبأ درامياً عن مصرع ١٨ نورماندياً على أيدي أسكيمو هاجموهم بغتةً.(٥١)

في عام ١٤٤٨ كتب البابا نيقولاس الخامس من روما إلى رئيس أساقفة مدينة تروندهم (النروج) أنه منذ نحو ٣٠ سنة (أي في عام ١٤١٨) "وصل أسطول همجي ووثني من الخارج إلى غرونلاند، واجتاح أراضيها بالحديد والنار، ودمر الكنائس، فلم يبق منها سوى ٩ ". وطلب البابا من رئيس الأساقفة أن ينظر في الأمر، ويرسل كهنة إلى الجزيرة لتقديم المساعدة إلى سكانها الناجين(٥٢).

لا توجد عندنا علاوة على هذا أية معطيات عن مصير الفيكنغ الغرونلانديين. ماذا حدث للمستوطنة المحلية؟ وما هو المصير النهائي لسكانها، أخلاف الرائدَين المقدامَين، أريك الأحمر ولايف السعيد؟

ثمة العديد من شتى التفسيرات في هذا الصدد. يفترض البعض أن أسكيمو ثولي القادمين من الشمال أبادوا النورمانديين الغرونلانديين، ولكن

مع أن الاصطدامات الدامية بينهم كانت تجري فعلاً من حين إلى آخر، وازداد في أواخر القرن الرابع عشر الصراع على مناطق القنص وأماكن الصيد البحري، فمن المستبعد أن يكون هذا هو العامل الحاسم، فثمة مثلاً شهادات آثارية موثوق بها على التجارة بين النورمانديين والأسكيمو حتى أواخر القرن الرابع عشر. ربما اندمج الفيكنغ في السكان الأصليين؟ ولكن تشير تقصيات الأنتروبولوجيين العديدة إلى أن الخط النورماندي بقي محافظاً على نقائه (الهياكل العظمية في مقابر المستوطنتين "الشرقية" و"الغربية").

ثمة رواية تقول بأن الفيكنغ انقرضوا بالتدريج؛ بسبب نقص التغذية الدائم والأمراض، الأمر الذي يشير إليه، حسب زعم هذه الرواية، تناقص الطول، والكساح لدى بعض الرجال في مدفن خريولفسنس. بيد أن أنتروبولوجيين آخرين رفضوا هذه الحجج فيما بعد، وبينوا على أساس مادة أحدث أن الفيكنغ حافظوا إلى النهاية على صحة وحيوية جاليتهم الصغيرة(٥٣).

ألم ينشب في غرونلاند، كما حدث في النروج وأيسلاندا عامي ١٣٤٩-١٣٥٠ "المرض الأسود" الرهيب، الطاعون؟ وهذا أيضاً يبقى في طيات المجهول.

يؤكد بعض العلماء أن الفيكنغ انتقلوا، بعد التردي الشديد لظروف الحياة في "جزيرتهم الجليدية"، من غرونلاند إلى القارة الأمريكية، إلى كندا أو الولايات المتحدة (نيو أنغلند، منيسوتا)، حيث اختلطوا فيما بعد بالسكان الأصليين أو انقرضوا. ويبدو أن هناك تأكيدات وثائقية لهذا. وهكذا ففي سفر الأسقف غيسلي ادسن (عام ١٦٣٧) القائم على المصادر القديمة جاء تحت عام ١٣٤٢: "تخلى سكان غرونلاند عن المسيحية طائعين، وتوجهوا إلى القبيلة الأمريكية"(٥٤).

نحو عام ١٣٥٠ توجه أسقف غرونلاند إيغار بروسن إلى فستربغدن ("المستوطنة الغربية") ليطرد السكريلنغ من هناك. كانت المستوطنة "مقفرة مع أن الحيوانات الداجنة المهجورة كانت تتجول في الجوار. من الواضح أنه لم يجر أي اشتباك مع الأسكيمو". ثم إن الأسكيمو لو كانوا هناك لذبحوا ولا شك كل الماشية للحصول على اللحم، ولعله جرت هجرة جماعية وعاجلة لسكان المستوطنة، ولكن إلى أين؟ لو ذهبوا إلى النروج أو أيسلاندا فلا بد وأن يعرجوا على أوستربغدن (المستوطنة "الشرقية")؟ ولا يبقى إلا افتراض أنهم ذهبوا إلى أمريكا(٥٥).

وعلى هذا النحو، لا يمكن اعتبار أي من هذه التفسيرات مقبولاً. والأرجح يمكن ربط انقراض الغرونلانديين بتأثير طويل لعدة عوامل مختلفة دفعة واحدة: طبيعية (الانخفاض العام لدرجة حرارة المناخ)، واقتصادية (تقلص التبادل التجاري مع المتروبول بسبب هبوط أسعار سن المورس نتيجة لمنافسة العاج اللإفريقي الذي كان البرتغاليون يجلبونه إلى أوروبا؛ وتدهور الزراعة وتربية الماشية إلخ، وفيزيولوجية (التقلص التدريجي لنسبة المواليد)، وخارجية (التقلقل الداخلي للمتروبول وغارات القراصنة من إنكلترا والبيرينه على غرونلاند)، وروحية (انقطاع الصلات الكنسية بروما والنروج).

كان يمكن أيضاً للهجوم الذي شنه على برغن في أعوام ١٣٩٣ و١٤٢٨ - ١٤٢٩ القراصنة الألمان الذين قتلوا الكثير من سكان المدينة وجعلوا المدينة نفسها طعاماً للنيران أن يؤثر مباشرة في متانة صلات هذا الميناء بالجزيرة الأركتيكية البعيدة.

ومع ذلك، فإن القراصنة هم الذين وجهوا الضربة القاضية إلى المستوطنة، وقد حدث هذا في وقت متأخر نسبياً. في القرنين الخامس عشر والسادس عشر

كان القراصنة مأساة حقيقية للكثير من البلدان الشمالية. وتضررت بشدة من غاراتهم جزر فارير وأيسلاندا وحتى غرونلاند. وثمة شهادات على أن "الرومنتيكيين القادمين من الطريق الكبير" نهبوا وحرقوا مراراً عزب النورمانديين الغرونلانديين، ودمروا كنائسهم. وهذه الضربات المفاجئة من البحر هي بالذات التي أنجزت تفكك وهلاك المستوطنة الصغيرة(٥٦). وقد حدث هذا نحو عام ١٥٠٠. ولكن يقول أحد الأيسلانديين الذي كان في غرونلاند عام ١٥٤٠ إنه شاهد على شاطئ خليج، عند حافة الرواه، جسد نورماندي ميت(٥٧). هكذا مات، على ما يبدو، آخر رجل فيكنغ بلا مراسم ولا دفن.

على هذا النحو اكتشف البحارة السكانديناڤيون الشجعان أمريكا الشمالية قبل كولومبس بخمسة قرون، وحتى أنهم بذلوا محاولات للاستقرار قرب سواحلها، ولكن قلة عدد القادمين والبعد عن الوطن قضيا على كل هذه الجهود بالإخفاق. غالباً ما يعرب عن رأي مفاده أن الفيكنغ هم منافسو كولومبس الشرعيون الوحيدون، وأهمية اكتشافاتهم تفوق بكثير رحلات "الجنوي العظيم".

ورداً على هذا يمكن قول شيء واحد: كل هذه الرحلات القديمة إلى أمريكا قبل كولومبس لم تنطو على آثار تاريخية مهمة بالنسبة إلى البشرية.

ينوه هنيغ: "لم تبق ذكرى الاكتشافات النورماندية في الجزء الغربي من المحيط إلا في شمال أوروبا. ويبدو أنه لا أحد في البلدان الرومنسية كان يعرف شيئاً عنها عموماً. وحتى في أرشيفات الفاتيكان لم يتسنَّ إلى الآن، رغم الاستقصاءات العديدة، العثور على شهادات موثوق بها تؤكد أنهم تلقوا هناك في يوم من الأيام معلومات عن البلدان الواقعة غربي غرونلاند"(٥٨).

بقي علينا في الختام حل مسألة واحدة فقط، ولكنها حادة جداً، وهي كولومبس والفيكنغ. أي اكتشاف هو الأهم بالنسبة إلى التاريخ؟ ألم يستخدم

"الأميرال العظيم لبحر المحيط" في مشروعاته معلومات تلقاها من مصادر نورماندية؟ إن الناس الذين ينكرون على كولومبس بحكم جملة من الأسباب (الوطنية القومية وغيرها) مجد اكتشاف أمريكا يقعون، إذ يشيرون إلى رحلات الفيكنغ الأبكر، في مبالغة واضحة حتى إن البعض أكد أن "كريستوف كولومبس اقتصر على إقامة اتصالات تجارية دائمة بين العالم الجديد وأوروبا". ومن حين إلى آخر تظهر في الصحافة مجدداً الرواية القديمة عن أن كولومبس نفسه حاول فقط أن يصل إلى الأراضي التي اكتشفها قبله الفيكنغ في أمريكا.

لا مجال حتى لمجرد الحديث عن أمر كهذا. ولا ريب أن الجنوي الشهير لم يسمع شيئاً عن فينلاند، مع أنه كاد يصل في شبابه إلى شواطئ أيسلاندا في مركب برتغالي. حتى وإن وصلت إلى مسامعه أقاويل كهذه فمن المستبعد أنه أعارها أي اهتمام، إذ إن كولومبس لم يبحث عن أول أرض يصادفها في المحيط، بل عن طريق إلى "الهند" و"كاتاي" (الصين) يقع أبعد بكثير إلى الجنوب. كان يحلم بالتوابل والذهب والأحجار الكريمة، لا بعظم المورس والعنب البري. وكان يتعطش إلى مقابلة الأباطرة الصينيين والإقطاعيين اليابانيين والراجات الهنود، لا السكريلنغ الأجلاف من المنطقة الأركتيكية. ولهذا كان خطه الأول في الأطلسي يمر على بعد ١٤٠٠ ميل جنوب فينلاند[٥٩].

لا أحد يشك في أن الأوروبيين زاروا أمريكا مراراً قبل كولومبس، ولكن أياً من هذه "الاكتشافات المبكرة" لم ينطو على أي آثار جوهرية ودائمة، ولم يفهم أي منها بكل معناه ولم يقدر حق قدره. الحدث العظيم الذي جرى عام ١٤٩٢ في التاريخ العالمي يرتبط ارتباطاً لا ينفصم بمأثرة كولومبس البطولية التي جلبت له المجد الذي يستحقه تماماً[٦٠].

هوامش الفصل السادس

١- غوريفيتش. حملات الفيكنغ. موسكو. دار "ناؤوكا"، ١٩٦٦، ص ٣ - ٤.

2- Erik Wahlgren. The Vikings and America. London, Thames and Hudson, 1986, p. 29-30.

٣- غوريفيتش. حملات ...، ص ٤ –٥.

4- Morton J.Golding. The Mystery of the Vikings in America. Philadelphia and New York, 1973, p. 13.

٥- انغستاد. على آثار لايف السعيد. لينينغراد. غدرومتيو ازدات، ١٩٦٩، ص ٢٨-٢٩.

٦- انغستاد. على آثار ...، ص ٢٩.

٧- انغستاد. على آثار ...، ص ٨ – ٩.

8- M.J.Golding. The Mystery..., p. 42-43.

٩- انغستاد. على آثار ...، ص ٣٧.

١٠- انغستاد. على آثار ...، ص ٣٧.

11- S.E.Morison. TheEuropean Discovry of America. The Northen Voyage. A.D. 500-1600. New York, 1971, p. 35.

12- M.J.Golding. The Mystery..., p. 53.

13- E. Wahlgren. The Vikings..., p. 44.

١٤- انغستاد. على آثار ...، ص ١١.

15- E. Wahlgren. The Vikings..., p.150.

١٦- غوريفيتش. حملات ...، ص ٤٤ –٤٥.

17- S.E.Morison. The European..., p. 39.

١٨- انغستاد. على آثار ...، ص ٣٠.

١٩- غوريفيتش. التاريخ والساغا. موسكو. دار "ناؤوكا"، ١٩٧٢، ص ١٤ – ١٦.

٢٠- كيرام. الأمريكي الأول. موسكو. دار التقدم، ١٩٧٩، ص ٣١.

٢١- هنيغ. أراض مجهولة...، المجلد ٢، ص ٣٠٥.

٢٢- هنيغ. أراض مجهولة...، المجلد ٢، ص ٣٢٠-٣٢١.

٢٣- كيرام. الأمريكي الأول. ص. ٣٩.

24- S.E.Morison. The European..., p. 37.

25- E. Wahlgren. The Vikings..., p.100 –102.

٢٦- هنيغ. أراض مجهولة، المجلد ٣. موسكو، ١٩٦٢، الفصل ١٥٠.

27- H.R.Holand. America, 1355-1364: A New Chapter in Pre-Columbian history. New York, Duell, Sboan and Pearce, 1946: A Pre-Columbian Crusade to America. New York, Twayne, 1962.

28- E. Wahlgren. The Vikings..., p.101 –105.

29- E.R.Fingerhut. Who first Discovered America?..., p.47.

30- E.Morison. The European..., p. 77 - 78. S.

31- W.S.Godfrey. Vikings in America: theories and evidens. - “American Anthropologist”, vol. 57, №1, pt.1, Menasha, 1955, p.36-37.

32- .W.S.Godfrey. Vikings in America..., p. 38-39

٣٣- كيرام. الأمريكي الأول...، ص ٣٢.

٣٤- انغستاد. على آثار ...، ص ٧٦.

٣٥- للمزيد من التفاصيل عن الأعمال في مستوطنة الفيكنغ في لانس- أو ميدوز راجع: انغستاد. على آثار لايف السعيد. لينينغراد، غدرومتيو ازدات، ١٩٦٩؛ H.Ingstad. Vinland Ruins Prove Vikings Found the New world. – “National Geographic”, vol. 126, №5, Washington, 1964, p.708-734; A.S.Ingstad. The Discovery of a Norse Settlement in America. 2 vols. New York, Columbia University Press, 1977.

٣٦- انغستاد. على آثار ...، ص ٢٨٨.

٣٧- كيرام. الأمريكي...، ص ٣٥.

38- E. Wahlgren. The Vikings..., p.139,157 b fig. 90.

39- S.E.Morison. The European Discovery..., p. 60.

هنيغ. أراض مجهولة...، المجلد ٢، ص ٣٩٠.

٤٠ - انغستاد. على آثار ...، ص ٢٦.

41- E. Wahlgren. The Vikings..., p.173; Leo Deuel. Conquistadors . without Swords. New York, St. Martin Press, 1967 , p.572-573.

42- Leo Deuel. Conquistadors..., p. 573-574.

٤٣ - انغستاد. على آثار ...، ص ٩٩.

٤٤ - هنيغ. أراض مجهولة...، المجلد ٢، ص ٣٥١.

٤٥ - هنيغ. أراض مجهولة...، المجلد ٢، ص ٣٥٥.

٤٦ - هنيغ. أراض مجهولة...، المجلد ٢، ص ٣٨٩.

47- E. Wahlgren. The Vikings..., p.174

48- E. Wahlgren. The Vikings..., p.24-25,fig.23

49- S.E.Morison. The European Discovery..., p. 60

50- E. Wahlgren. The Vikings..., p.174.

51- E. Wahlgren. The Vikings..., p.174.

52- S.E.Morison. The European Discovery..., p. 60.

53- E. Wahlgren. The Vikings..., p.174-175

٥٤ - انغستاد. على آثار ...، ص ١٠١.

٥٥ - انغستاد. على آثار ...، ص ١٠١.

٥٦ - انغستاد. على آثار ...، ص ٢٨.

57- E.Wahlgren. The Vikings..., p. 174.

٥٨ - هنيغ. أراض مجهولة...، المجلد ٢، ص ٣٥٣.

59- S.E.Morison. The European Discovery..., p. 61-62.

٦٠ - هنيغ. أراض مجهولة...، المجلد ٢، ص٣٥٣.

الفصل السابع

جنوك في المحيط

"تنتصب من العمق فوق تموج المياه الرعناء
مرتفعات جرداء من الأرض: سلاسل
هامات ملساء،
أجرُف سوداء، سيول حصي حمراء–
تخوم كئيبة لبلد مجهول الأرجاء".

فولوشين

أمريكا وآسيا

أعار الباحثون دوماً الصلات الآسيوية- الأمريكية في عصر ما قبل كولومبس اهتماماً أكبر بما لا يقاس. وكانت لهذا أسباب وجيهة. فهنا بالذات، كما نعرف، يفصل بين شواطئ آلاسكا وسيبيريا مجال مائي لا يتجاوز ٨٥كم. تمد كل من آسيا وأمريكا الشمالية يدها إلى الأخرى بالمعنى الحرفي للكلمة تقريباً عبر المحيط الجهم والصارم. هنا، في منطقة تشوكوتكا وآلاسكا كان يمر قديماً ذلك الدرب البري المطروق الذي كانت قبائل الصيادين الآسيويين المتنقلة تستطيع الوصول عبره إلى الساحل الأمريكي، ومن ثم إلى عمق القارة. وكم هو مدهش الشبه الخارجي بين الكثير من قبائل الهنود الحمر

وسكان آسيا الشرقية المغول! فهل ثمة ما يدعو إلى العجب أن تتوالى الفرضيات حول الأصل الآسيوي للهنود الحمر الواحدة تلو الأخرى منذ أول يوم تقريباً من اكتشاف الأوروبيين للعالم الجديد؟

في عام ١٥٩٠ رفض العاهل الإسباني خوسيه دا اكستا بحزم كل محاكمات معاصريه حول أطلنطيد و"الأسباط الإسرائيليين" الخرافيين، وسلم بأنه كان يوجد قديماً جسر بري شمالي من أمريكا إلى آسيا استخدمته قبائل الصيادين الآسيويين للوصول إلى نصف الكرة الغربي، ولكن أكستا نسق زمن هذا الحدث تماماً وفق الترتيب الزمني الوارد في الكتاب المقدس. وينجم حسب قوله أن العالم الجديد لم يسكن إلا قبل كولومبس بفترة تتراوح ما بين ألف وألفين من السنين.

في عام ١٦٤٢ افترض العالم الألماني غوغو غروتيوس أن هنود بيرو يرجعون بأصلهم إلى صينيين لا يعرف كيف تغلغلوا قديماً في القارة الأمريكية الجنوبية. وفي عام ١٦٥٠ أشار الانكليزي توماس غيج لأول مرة إلى مضيق بهرنغ باعتباره أكثر الطرق احتمالاً لاستيطان أمريكا. وفي القرن السابع عشر نفسه أدلى العالم الهولندي يوهانس دي لايت بتصريح مماثل، ولكنه اعتبر أن سكان العالم الجديد الأوائل كانوا من "الأسقوثيين" الذين تحدر منهم الهنود الحمر فيما بعد.

ومنذ ذلك الحين ظهر إلى النور الكثير أيضاً من شتى الفرضيات الطريفة أحياناً التي تفسر منشأ سكان أمريكا الأصليين وثقافاتهم بكل ما يمكن من المؤثرات الآسيوية.

وظهر في القرنين الأخيرين مؤيدون كثيرون بشكل خاص لأنصار التأثير الصيني- الياباني في الحضارات القديمة لهنود المكسيك وبيرو.

والدليل هو الشكل المغولي إياه لسكان العالم الجديد الأصليين ووجود الكثير من الملامح المتشابهة في فن وديانة الشعوب القاطنة على جانبي المحيط الهادئ، وأخيراً الظروف المواتية للإبحار من الغرب إلى الشرق، إلى الساحل الأمريكي **(**الرياح والتيارات**)**. مع العلم أن هذه الاتصالات بين القارتين بدأت، في رأي أكثر المؤلفين جرأة، منذ الألف الثالث أو الثاني ق.م، وتطورت بشكل خاص في الألف الأول ب.م[1].

أسطورة بلاد الفوسان

تثير الكثير من النقاش قضية رحلات البحارة الصينيين واليابانيين المباشرة قديماً إلى شواطئ العالم الجديد عبر المحيط الهادئ. وكم ظهر من تخمينات خيالية وفرضيات مرتجلة في غضون القرون الأربعة المنصرمة!

وكأكثر الأمثلة نموذجية من هذا النوع يمكن أن نورد أسطورة بلاد الفوسان الواقعة وراء البحار. بإمكاننا أن نستخلص من قول الراهب البوذي هواي شن، الذي زار هذه البلاد في عام ٤٩٩ ب.م، عدة وقائع طريفة تلقي الأضواء على كل المشكلة عموماً.

يكتب قائلاً: "تقع مملكة الفوسان على بعد أكثر من ٢٠٠٠٠ لي[١] إلى الشرق من تاهان[٢]. وهي تقع كذلك إلى الشرق من الصين. ينمو في هذه البلاد الكثير من أشجار الفوسان، ومنها تلقت اسمها. تشبه الفوسان شجرة التانغ بأوراقها. وهي تخرج من الأرض على شكل عسالج يستخدمها السكان الأصليون في الطعام. وثمار هذه الشجرة حمراء اللون وتشبه الإجاص. ويصنع من لحائها قماش للملابس وألياف، ويبني الناس مساكنهم من الألواح. والمدن ليست محاطة بحواجز، وتستخدم هناك رموز كتابية، أما الورق فيصنع من لحاء شجرة الفوسان. وليست عندهم أية

(١) وحدة قياس صينية قديمة تعادل ٥٠٠ متر. المترجم.

(٢) جزيرة سخالين (حسب رأي كلبروت).

قوات، ولهذا يجهلون الحرب تماماً ... للثيران هناك قرون طويلة بشكل غير عادي ... يقرنون بالعربات الخيل والثيران والأيائل...

ويصنعون الزبدة من حليب هذه الحيوانات. وتنمو هناك أشجار التوت والإجاص التي تحتفظ بأوراقها على مدار السنة كلها. وعلاوة على ذلك، يوجد العنب بوفرة، ولا يوجد في هذه البلاد حديد، ولكن يوجد نحاس. وهناك لا يحظى الذهب والفضة بأي تقدير. ولا يعرفون في الأسواق الضرائب، ولا الأسعار الثابتة...

حينما يرتقي حاكم جديد العرش، يبقى ثلاث سنوات من غير أن يمارس أية شؤون للدولة. في السابق لم تكن تعاليم بوذا معروفة في تلك البلاد. وفي السنة الثانية من عهد حكم دا- مين من سلالة سونغ (عام ٤٥٨ ب.م - المؤلف) قدم إلى فوسان من مملكة كيبين (كابولستان) خمسة رهبان جوالين وجلبوا إلى هناك أصناماً ومخطوطات بوذية مقدسة. ونشرها الرهبان بين السكان الذين غيروا عاداتهم فيما بعد"[٢].

ها قد مضت ٢٠٠ سنة والنقاش الحار دائر في العلم حول السؤال التالي: ما هي "بلاد الفوسان" هذه التي كان في وسع الراهب هواي شين أن يزورها في القرن الخامس ب.م؟ أين نبحث عنها في الخارطة الجغرافية المعاصرة؟

وكما يحدث عادة، فإن النبذة التي أوردناها من السفر الصيني القديم لسلالة لان (أعوام ٥٠٢- ٥٧٧ ب.م) ما لبثت أن أصبحت عند محاولة تفسيرها سبباً لشطحات خيال لا يحد جموحها شيء. وترى بعض الرؤوس الحامية في القصة البسيطة للراهب البوذي تلميحاً لا أكثر ولا أقل إلى اكتشاف الصينيين أمريكا قبل كولومبس بألف سنة! وكان أول من ساهم في

نشر هذه الفكرة الجريئة الفرنسي دي غين الذي قرر منذ عام ١٧٦١ أن الفوسان موجودة في أمريكا[٣].

وللأسف كانت "الفرضية البوذية" جذابة إلى درجة أنه انضم إليها فيما بعد العديد من الباحثين الآخرين من فرنسيين وإنكليز وألمان وأمريكيين[٤]. وسرعان ما وصل الأمر إلى درجة صار يستخدم معها تقرير هواي شين بمثابة حجة حاسمة للبرهان على فكرة مستحيلة تماماً تزعم أن الرحلات من الصين إلى أمريكا وبالعكس كانت في القرن الخامس ب.م من الأمور المألوفة عموماً.[٥]

بيد أن اثنين من الاختصاصيين المؤهلين للغاية حللا في القرن الماضي مدونة الراهب البوذي بدقة، وبينا بصورة محددة تماماً وعلى أساس متين من الواقع أن "بلاد الفوسان" هي اليابان (بريتشنيدر، كلابروت)[٦]. وفيما بعد اعتبر العالم الهولندي شليغل كذلك الفوسان واحدة من بلدان آسيا الشرقية، مع أنه كان يميل إلى جزيرة سخالين أكثر مما إلى اليابان[٧]. وأخيراً، كان الجغرافي الألماني المعروف ريخارد هنيغ، الذي أتينا على ذكره مراراً، يعتبر دائماً أنه يستحيل تقبل النظرية الأمريكية مهما كانت الظروف. وفحوى الأمر أن المركب الياباني أو الصيني، وإن كان يستطيع الإبحار إلى أمريكا الشمالية في أي وقت بواسطة "التيار الاسود" (كوروسيفو)، إلا أن عودته ضد التيار في ذلك العصر كانت، ولا شك، أمراً غير قابل للتحقيق تقريباً[٨].

وجوهر الاعتراضات على السعي إلى وضع إشارة مساواة بين "بلاد الفوسان" وأمريكا، وعزو اكتشافها إلى الصينيين قبل كولومبس بألف سنة يتلخص في الآتي:

أولاً، لم يكن في العالم الجديد قبل كولومبس خيل ولا ثيران ولا عربات.

ثانياً: نبات الفوسان، الذي أطلق اسمه على كل البلاد، ما هو كما يشير وصفه إلا التوت الورقي (Broussonetia papyrifera)، الذي يصادف غالباً في جزر آسيا الشرقية، وهو غير معروف في أمريكا.

ثالثاً وأخيراً**:** عبارة "٢٠٠٠٠ لي "هي تعبير عادي للكلام الصيني المنمق، وتعني مجرد "بعيد"، "بعيد جداً"، ولكن حتى لو قطعنا هذه المسافة - ٢٠٠٠٠ لي - من ساحل الصين إلى الشرق فإننا لا نصل إلا إلى منطقة جزر هاواي.

نظرية شليغل عن أن الفوسان هي جزيرة سخالين معقولة تماماً؛ لأن التوت الورقي يصادف في هذه الجزيرة أيضاً. بيد أن مستوى الثقافة المنخفض للسكان الأصليين المحليين، الذي بقي حتى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، لا يمكن من افتراض أنهم كانوا منذ ١٤٠٠ سنة يصنعون الورق، ويعرفون الكتابة، وأنه كان عندهم حكام أقوياء، وكانوا يعتنقون البوذية. ويستنتج هنيغ: "وبالتالي لا يبقى شيء آخر غير البحث عن الفوسان في اليابان، أي الموافقة على وجهة نظر كلابروت وبريتشنيدر"(٩).

نظرية الجنوك الصينية

تمتعت بالشعبية نفسها حينذاك "نظرية الجنوك الصينية"[1] التي اعتبر أنصارها الهنود الأمريكيين أحفاداً لبحارة صينيين قذفت بهم الرياح والتيارات إلى شواطئ العالم الجديد في عهود تاريخية مختلفة، ولكن قبل رحلة الأوروبيين إلى هناك بزمن طويل.

بدا في وقت ما أن هذه الفكرة تعتمد على بعض الحقائق العلمية، فالهنود الأمريكيون قريبون جداً من حيث مظهرهم الخارجي للسكان المغول في آسيا الشرقية. ومن الشواطئ الآسيوية ينطلق إلى الشمال الشرقي، وجهة سواحل أمريكا، التيار الياباني (كوروسيفو). وهو اتجاه مناسب لكل أنواع الرحلات عبر المحيط. يعرف الصيادون اليابانيون جيداً أن العوامات الزجاجية المستديرة التي تنزعها العواصف من شباكهم غالباً ما يعثر عليها في جزر أليوت والساحل الشمالي الغربي للولايات المتحدة. ومعروفة هناك بعض حالات العثور على مواد من الإنتاج الصيني والياباني: عملات، منحوتات، مواد من الأسلحة. كان جيمس كوك في عام ١٧٧٨ من أوائل الأوروبيين الذين ظهروا عند الساحل الشمالي الغربي للقارة الأمريكية، ولشدة دهشته اكتشف عند الهنود المحليين غير قليل من الأشياء القديمة التي يرجع أصلها إلى آسيا الشرقية[10].

---

(١) جنوك مفردها جنك (هكذا عند ابن بطوطة) – مركبة شحن شراعية ذات قعر مسطح نسبياً ومقدمة ومؤخرة مقطوعتين باستقامة. تصل حمولتها إلى ستمائة طن. منتشرة في بلدان جنوب شرق آسيا والشرق الأقصى. – المترجم.

وفيما بعد، في القرن الحالي، حينما أخذ العلماء - الأثنوغرافيون يدرسون بتمعن قبيلتي خايدا وكفاكيوتل الهنديتين على الساحل الشمالي الغربي للولايات المتحدة وكندا اكتشفوا فجأة واقع استخدام السكان الأصليين الواسع للعملات والأنواط الصينية البرونزية بمثابة حلي للصدر.

وعثر كذلك على تشابهات ليست أقل إثارة للفضول في ثقافتي شمال شرق آسيا، وشمال غرب أمريكا. لفت أنظار الباحثين، مثلاً أن الأقنعة الخشبية المزخرفة التي يستخدمها الهنود المحليون في الرقص غالباً ما ترسم عليها شوارب كبيرة. ولما كانت وجوه السكان الأصليين الأمريكيين، كقاعدة عامة، تخلو (أو تكاد) من الشعر، فمن الواضح أن هذه الشوارب الكثيفة شيء غير عادي، ومن الجهة الأخرى، فإن "الناس الشعرانيين"، الاين من جزيرة هوكايدو اليابانية الشمالية يعتزون فعلاً بشواربهم الطويلة، وتتطابق كثيراً تفاصيل الملابس والقبعات الطقسية لدى سكان الشاطئين الآسيوي والأمريكي للمحيط الهادئ. وتلاحظ ملامح مشتركة في المعتقدات الدينية: عبادة الدب عند الاين والهنود الحمر الشماليين الغربيين، والتشابه في مضمون أسطورة الغراب إلخ[11].

وإلى جانب الصينيين والاين، غالباً ما يذكر في عداد المساهمين النشاطى في الرحلات في الجزء الشمالي من المحيط الهادئ من آسيا إلى أمريكا اليابانيون في الأزمنة القديمة وأوائل القرون الوسطى. لا يفصل اليابان عن كاليفورنيا سوى عدة آلاف من الأميال البحرية. وكان يمكن لهذه الرحلات، المتعمدة أو الاضطرارية، أن تحدث فعلاً إذا توفرت الرياح الموسمية المناسبة، وتيار كورسيفو القوي. وهذا ما تتحدث عنه ببلاغة الإحصاءات المعاصرة أيضاً (معطيات القرن التاسع عشر): من أصل ٦٠ من الحالات المسجلة في الوثائق

للرحلات الاضطرارية للجنوك اليابانية في المحيط، وصلت ست سفن على الأقل إلى شواطئ أمريكا بين سيتكا ومصب كولومبيا، وست سفن أخرى تحطمت على الصخور قرب الساحل المكسيكي.

ومهما كانت رحلة مثل هذه السفينة المنساقة بطيئة، فقد كانت لدى طاقمها فرص لا بأس بها للوصول بسلام إلى الساحل الشمالي الغربي للولايات المتحدة. ويبدو أن الأمر لم يكن هكذا في القرن التاسع عشر فحسب، بل وفي أزمنة أبكر، فقد أشير في المصادر الكتابية مثلاً إلى وجود عبيد يابانيين عند الهنود المحليين حينما وصل البحارة الأوروبيون إلى هناك لأول مرة[١٢]. "وبالتالي، كما ينوه الأمريكي أدفين دوران لم تكن الرحلات غير المتعمدة بين آسيا وأمريكا ممكنة تماماً فحسب، بل وجرت بالفعل مراراً على امتداد الفترة التاريخية"[١٣]. (المقصود هنا العصر الذي تغطيه المصادر الكتابية سواء الآسيوية منها منذ القرون الأولى ب.م، أو الأوروبية من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر بعد الميلاد - المؤلف).

ولكي لا يلقي هذا الباحث الكلام على عواهنه، يورد تأكيداً لآرائه حادثة طريفة من الأسفار الصينية القديمة. في بداية القرن الثالث ب.م، كما جاء في أحدها، تلقى المدعو سيو فو من الإمبراطور الصيني مبلغاً طائلاً من المال وإذناً كريماً بالتوجه إلى "المحيط الشرقي" ليبحث هناك في الأراضي والجزر المحلية عن أدوية عجيبة جديدة لشفاء كل الأمراض. جمع على عجل للأميرال الغر أسطول من الجنوك والأطواف البحرية وقدم إليه نحو ثلاثة آلاف من الشبان والشابات ذوي الطبع الحسن بمثابة مساهمين في البعثة المقبلة. في عام ٢١٩ أقلع سيو فو ورفقاؤه في اتجاه الشرق، وبعد ذلك لم يرهم أحد أبداً.

في الوقت نفسه تقريباً ظهرت فجأة في الثقافة الهندية المحلية على ساحل أكوادور مجموعة كاملة من الملامح "ذات الأصل الصيني الواضح". يكتب دوران: "من المستبعد أن يكون هذا التقارب أمراً عرضياً؛ إذ كان من الممكن تماماً أن يجد أسطول سيو فو الذي لم يرجع، ملجأً في أمريكا الجنوبية بالذات. ومهما كان الأمر، تبدو هذه الفكرة جذابة للغاية". ويضيف على الفور بتهكم، وكأنه أدرك تزعزع مواقعه: "ولكني أعتقد أن هذا لن يكون كافياً لعالم أكاديمي متزمت لن يقنع إلى أن يجد مكان محطة الأسطول المفترضة نقشاً هيروغليفياً مؤرخاً: هنا كان سيو فو"[١٤].

سوف ننظر لاحقاً بمزيد من التفصيل في هذا الموضوع حول الصلات الأكوادورية- الصينية في عهد هان، أما الآن فبودي أن أشير فقط إلى عدم لباقة تلك الأساليب التي يستخدمها دوران في سعيه إلى البرهان على صحة فرضيته؛ إذ إن الحديث اقتصر إلى الآن على انسياق قوارب اليابانيين والصينيين، ورحلاتها الاضطرارية في الجزء الشمالي من المحيط الهادئ فقط، حيث تساعد الرياح والتيارات على هذا بوضوح. أما هذا الأمريكي فيقود "أسطول" سيو فو المفقود فجأة عبر الجزء الأوسط، أوسع أجزاء أكبر محيط في كوكبنا، ثم هل يمكن تفسير أحد أعقد الألغاز التاريخية بواسطة لغز آخر: سر ضياع "الباحثين عن إكسير الحياة" وسر ظهور ملامح خاصة لثقافة هنود أكوادور البعيدة.

تبدو لي أمراً في غاية الأهمية مسألة العوامل الطبيعية في الرحلات عبر المحيط - دور الرياح والتيارات. يتفق اغلب الباحثين على أن التيار الياباني (كوروسيفو)، الذي ينطلق قوساً عريضاً من الغرب إلى الشرق، بمحاذاة

الساحل الآسيوي إلى شمال شرق سيبيريا وألاسكا، ثم ينحرف إلى الجنوب على امتداد ساحل كاليفورنيا - إلى المكسيك، عامل مساعد عموماً للقوارب والسفن المنطلقة من آسيا إلى أمريكا. وهذا بالمناسبة ما كان يعرفه الصينيون القدماء جيداً. كانوا يعتبرون أن المحيط يتدفق من الجنوب إلى الشمال، ويسقط هناك، في مناطق القطب، في هاوية عميقة.

وهكذا، فإن هذا التيار (بالإضافة إلى الرياح الموسمية المؤاتية) يفسر لنا لغز وصول البحارة الآسيويين، عمداً أو بحكم المصادفة، إلى شواطئ أمريكا الشمالية الغربية، ولكن بعد الطريق السهل إلى هناك كان القادمون يصطدمون وجهاً لوجه بمعضلة العودة إلى آسيا. كان عليهم للقيام بهذا أن ينحدروا بمحاذاة الساحل الأمريكي إلى الجنوب، إلى خطوط العرض الجنوبية، و"يتلقفوا" هناك التيار الإستوائي الشمالي والرياح التجارية المنطلقة إلى الغرب. أما الذين يحاولون العودة على طريق أقصر، عبر الجزء الشمالي للمحيط الهادئ، فلا بد وأن يصطدموا بالصعوبات نفسها التي يصطدم بها الأوروبيون المنطلقون إلى أمريكا عبر شمال الأطلسي مباشرة. في الحالتين تعترض البحارة في الطريق الرياح والتيارات السائدة هناك كحاجز يستحيل تذليله تقريباً[١٥].

ومن هنا التباين في مواقف مختلف الباحثين إزاء قضية الرحلات عبر المحيط الهادئ قبل كولومبس. يعترف المدافعون عن فكرة التطور المستقل للثقافات القديمة في أمريكا بإمكانية الرحلات الاضطرارية والمتعمدة إلى العالم الجديد على امتداد السنوات الألفين الأخيرة، ولكنهم لا يسلمون بوجود اتصالات تجارية ثنائية منتظمة بينهما.

لا توجد عند العلماء "الانتشاريين" شكوك كهذه. فهم يعتبرون، استناداً إلى التفوق الواضح للصينيين واليابانيين في بناء السفن والملاحة، إن هذه الصلات مارسها منذ القدم الآسيويون وحدهم الذين كانوا ينطلقون بحرية على القوس الواسع لتيارات المحيط من آسيا إلى أمريكا وبالعكس.

ولكن، رغم كل هذه الحجج، لا تصمد "فرضية الجنوك الصينية" في وجه النقد. وفحوى الأمر أن من غير المجدي البحث على أساسها عن رد على مسألة أصل السكان الأوائل للعالم الجديد؛ إذ إن المراكب الصالحة للرحلات البعيدة إلى هذه الدرجة أو تلك لم تظهر في الصين والمناطق المتاخمة في آسيا إلا بعد الميلاد بعدة قرون، في حين أن أبكر آثار لوجود الإنسان في أراضي أمريكا تبلغ من العمر ٢٥ - ٣٠ ألف سنة. وفي الوقت الذي كان يمكن فيه للبحارة الصينيين أن يظهروا في المياه الساحلية للعالم الجديد، كان هذا العالم مأهولاً على نحو كثيف بشتى القبائل والشعوب التي اجتازت طريق تطور طويلاً ومعقداً.

لغز حجارة بالس فيردس

ومع ذلك ثمة إلى اليوم بين علماء الغرب مجموعة كبيرة من الاختصاصيين من مؤرخين وأثنوغرافيين وآثاريين وجغرافيين ولغويين تدعو بحماسة إلى فكرة أن الرحالة الصينيين استطاعوا زيارة ساحل أمريكا الشمالية منذ القرون الأولى بعد الميلاد وممارسة تأثير ملحوظ لا في حياة القبائل المحلية فقط، بل وفي حياة المكسيكيين القدماء وحتى الشعوب القاطنة في مناطق أبعد إلى الجنوب.

لم تكن هذه المحاكمات حتى وقت قريب مدعمة إلا بواقع واحد، وهو الشهادة على رحلة الراهب البوذي هواي شين إلى جزيرة الفوسان، ثم ظهرت إشارات إلى المستوى الرفيع لبناء السفن في الصين في الأزمنة القديمة والقرون الوسطى وإلى الصفات الملاحية الرائعة للسفن الصينية: الجنوك والسامبانات. أما رحلة هيردهل الناجحة على طوف "كون - تيكي" المصنوع من خشب البلزا من بيرو إلى بولينيزيا فأوصلت الحماسة الشاملة إلى ذرى خارقة. وتذكروا من جديد التيارات والرياح التجارية. وبعد ذلك صارت حتى الرحلات من آسيا إلى أمريكا عبر الجزء الأوسط من المحيط في عصر ما قبل كولومبس تبدو أمراً بسيطاً وعادياً كنزهة في يوم الأحد على لنش أو يخت عصريين.

بيد أن محاولة "تكرار" هذه الرحلة مؤخراً على نسخة طبق الأصل لجنك صيني تقليدي كادت أن تنتهي بكارثة بالنسبة إلى المشاركين في البعثة.

لم تكن السفينة قد قطعت في المحيط الهادئ إلا جزءاً صغيراً من الطريق حينما صار الماء يتسرب إليها بشدة واخذت تغرق، ولم يتمكن المنقذون الذين تم استدعاؤهم باللاسلكي من انتشال الناس من على متن الجنك إلا قبل غرقه بعدة دقائق. وهنا اتضح أن السفينة اجتازت في ٣ اشهر ما لا يتجاوز ١٨٠٠ ميل، أي إنها تحركت بسرعة ٢٠ ميلاً في اليوم وسطياً، وهي سرعة تقل عن سرعة تيار كوروسيفو الذي اتينا على ذكره[١٦]. منذ عدة سنوات على وجه التحديد تلقى أنصار فكرة الرحلات المتكررة للمراكب الصينية إلى شواطئ أمريكا في عصر ما قبل كولومبس حجة راجحة جديدة. وبهذا اصبحت فكرة "أنداد كولومبس الصينيين" وكأنها تقوم على أساس راسخ من الحقائق التاريخية. الحديث يجري عن العثور على مراس حجرية "قديمة" عند ساحل كاليفورنيا في الولايات المتحدة. المراسي الحجرية، وهي حجارة تغطيس بدائية ذات ثقب لإدخال الحبل، شيء يعرفه الاختصاصيون جيداً من مواد البحر الأبيض المتوسط، وكانت تستخدم منذ عام ١٥٠٠ ق.م. عثرت سفينة للإدارة الجيولوجية في الولايات المتحدة كانت تجري أبحاثاً لقاع البحر عند ساحل جنوب كاليفورنيا في عام ١٩٧٣ على حجر بيضوي كبير بثقب في شبكة سحبت من البحر، وكان من الواضح أن يد الإنسان قد عالجته. وكان من حيث كل السمات الخارجية يشبه كثيراً المراسي الحجرية القديمة لسكان البحر الأبيض المتوسط. وفي الوقت نفسه كانت الزوائد، التي تكونت على سطح الحجر، تشهد على بقائه طويلاً على قاع البحر.

وبعد سنتين وجد الغواصان المحترفان ويني بلدون وبوب ميسترل قرب جزيرة بالس فيردس، إلى الجنوب من لوس أنجلس، على قاع بعمق

أمتار عن السطح، قرب صخرة نمت عليها أعشاب بنية اللون، ما لا يقل عن عشرين حجراً كروياً وبيضوياً عالجه الإنسان. أخذا عدداً منها إلى قاعدة الغواصين في ريدندوبيتش لتفحصها مدة أطول[١٧]. علم باللقية مراسلو المجلات والجرائد المحلية. وبعد نشر جملة من المواد أبدى العلماء أيضاً اهتمامهم بهذه "المراسي الحجرية".

عكف بحمية خاصة على حجارة بالس فيردس اثنان: وليم كلفلو، من العاملين في مختبر الطرائق الطبيعية لجامعة كاليفورنيا والانتربولوجي جيمس مريارتي من جامعة سان دييغو. أبلغ كلفلو هيئة تحرير "لوس أنجلس تايمز" أن اللقية، كما تشير خصائص الأسلوب، يمكن أن تعزى إلى القرن العاشر ب.م. وهذا قول جريء جداً إذا أخذ في الاعتبار أن إحداث ثغرة عميقة في كسرة صخر لا يتطلب الكثير من "الأسلوب"! وأعلن كذلك أن الكثير من الآثاريين يؤمنون بوجود صلات قديمة ومتواصلة في الماضي بين آسيا وأمريكا.

أما مريارتي، المقتنع قناعة راسخة بأن هذه الحجارة برهان على تحطم سفينة صينية قديمة عند صخور بالس فيردس، فأخذ، بدوره، يبحث عن عون بين الخبراء المعنيين الآثاريين (الاختصاصيين في الحجر) والعارفين بالملاحة الصينية القديمة، وأرسل نماذج من الحجر إلى جامعة منيسوتا للتحليل، وبعث إلى الصين بصور ورسوم لهذه "المراسي". وما لبث أحد المؤرخين الصينيين، فان تشون بو، أن نشر في مجلة "تشاينا ريكنستركتس" (عام ١٩٨٠) مقالة عن لقية بالس فيردس. وذكّر ثانية بأسطورة بلاد الفوسان، وأشار إلى الإمكانيات الكبيرة للمراكب الصينية القديمة من أجل الرحلات في المحيط وأعلن أخيراً أن الحجارة ذات الثقوب المحفورة فيها

تعود إلى ذلك النمط من المواد الذي "استخدم في الصين على امتداد آلاف السنين بمثابة مراس"[١٨].

وفي السنة نفسها تكلم مريارتي في حديث لمجلة "ويستويز" عن رحلات البوذيين إلى أمريكا وعن حجارة بالس فيردس معرباً عن الثقة بأن هؤلاء القادمين إلى العالم الجديد "أثروا في تطور الحضارة الأمريكية القديمة عن طريق إدخال أساليب الفن الآسيوية، وشتى الأدوات والاختراعات، وعن طريق تعليم الهنود الحمر كيفية الكتابة على الورق، وكيفية تزيين مبانيهم وكيفية عبادة الإله"[١٩].

ونجم بالنتيجة ان الراهب هواي شين وزملاءه البوذيين أقاموا في أمريكا فعلاً، وخلفوا هناك آثارهم المميزة في كل مكان. أما حجارة بالس فيردس فصارت تعتبر بلا قيد أو شرط بقايا "سفينة آسيوية غرقت منذ بضع مئات من السنين". لقد برهن تحليل "المراسي" الأسلوبي على غرقها في القدم، أما تحليلها الجيولوجي فبرهن على أن "الصخور التي صنعت منها "المراسي" غير موجودة في كاليفورنيا..."[٢٠].

حلت الخاتمة بصورة مفاجئة تماماً. حينما وصلت عدة نماذج من حجارة بالس فيردس إلى أيدي اختصاصيي قسم علم الآثار في جامعة كاليفورنيا، واكتشفوا بدهشة أنها تعود إلى الشست المونتيري الواسع الانتشار في جنوب كاليفورنيا. وهكذا ينجم عن هذا الواقع حتماً أن أحداً شذب هذه الحجارة، وجعل فيها ثقوباً في كاليفورنيا، لا في الصين. ومكن غوص الغطاسين المتكرر من تحديد أن هذه المواد الحجرية، أو "المراسي" التي يزيد عددها الإجمالي على العشرين، كانت مرمية بشكل واسع في قاع البحر في بقعة تربو مساحتها على ٠,٥ هكتار. وهذا ما نفى على الفور

إمكانية ربطها بغرق مركب واحد. وظهر إلى الوجود افتراض أكثر منطقية: أمامنا قطاع ساحلي غالباً ما كانت تتوقف فيه القوارب أو السفن الصغيرة، وكانت في غضون ذلك تفقد "مراسيها" الحجرية من حين إلى آخر.

ولكن من هم هؤلاء الضيوف المجهولون الذين قدموا إلى الشواطئ المشمسة لكاليفورنيا من الأرجاء البحرية البعيدة؟ إذ إن مراسيهم كانت مصنوعة من أصناف الحجر المحلية؟ ولكن لم يقتض الأمر التفكير طويلاً في لغز "حجارة بالس فيردس". كان ينبغي من أجل هذا النظر إلى الاسفار التاريخية، ولكن لحسن الحظ، من غير الرجوع بعيداً إلى الوراء، بل إلى القرن ما قبل الماضي فقط.

في أواسط القرن التاسع عشر عاشت كاليفورنيا ازدهاراً حقيقياً بسبب "حمى الذهب"، وأخذت تنمو بسرعة المدن والبلدات الجديدة، وتمدد السكك الحديدية، وتبنى الموانئ والمعامل والمصانع. وتطلب هذا الأمر أيدياً عاملة على أن تكون "بعدد أكبر وسعر أرخص". وسرعان ما تم العثور على هذه الأيدي... على الجانب الآخر من المحيط الهادئ، في الصين. وتدفق إلى أرض كاليفورنيا مئات الألوف من الكولي[1] الصينيين بحثاً عن قسمة أفضل، وكسرة خبز. وجرت الهجرة إلى الشرق أساساً من منطقة كانتون، حيث كان أغلب السكان مرتبطين منذ القدم بالبحر وصيد السمك. كان السمك دوماً الغذاء الرئيس للصينيين المحليين. وحينما رأوا عند وصولهم إلى سان فرنسيسكو مياه ساحل كاليفورنيا التي تعج بكل ما

---

(١) تسمية كانت تطلق قبل عام ١٩٤٩ على العمال الصينيين الزهيدي الأجر غير المؤهلين. **المترجم**

يمكن من الحيوانات البحرية، لم تكن لحماستهم ودهشتهم حدود. وعلاوة على ذلك، فإن الأمريكيين البيض - المتحدرين من شتى بلدان أوروبا وأخلاف مستوطني نيو أنغلند كانوا جميعاً من أكلة اللحم، ولم يكونوا حتى ذلك الحين يهتمون بصيد السمك.

برهنت الأبحاث القريبة العهد لاثنوغرافيي وسوسيولوجيي جامعة كاليفورنيا بما لا يقبل الشك على أن المستوطنين الصينيين بالذات كانوا أول من مارس صيد السمك على نطاق واسع عند سواحل كاليفورنيا، قابضين مع الزمن على ناصية كل المياه المتاخمة لهذه الولاية. وللقيام بالصيد بنوا من الخشب الجنوك والسامبانات التقليدية، واستخدموا أرخص الحبال و"المراسي" وأكثرها بدائية. وكان عندهم العديد من المخيمات والبلدات الدائمة والمؤقتة حول خليج سان فرنسيسكو، في منتيراي وسان دييغو، وكان أحد هذه المخيمات، كما تشير الوثائق، يقع على مقربة من شعب في بالس فيردس.

يستنتج الآثاري فرنك فروست (الولايات المتحدة) قائلاً: "ولهذا، ثمة كل المسوغات لنؤكد أن حجارة بالس فيردس عبارة عن شهادة لا تدحض على أنه وجد هناك صيادو سمك كانوا يعيشون في كاليفورنيا ويزورون غالباً هذا الشعب الغني بالحيوانات البحرية"[٢١].

مراكب "الإمبراطورية السماوية"

وهكذا، ليست عند العلم المعاصر بعد براهين مباشرة على رحلات منتظمة للصينيين القدماء إلى أمريكا الشمالية والجنوبية عبر المحيط الهادئ، ولكن ربما أمكن التوصل إلى استنتاج كهذا بطريق غير مباشر، على أساس شتى المعطيات؟

تدخل في عداد الحجج التي يوردها أكثر من غيرها أنصار وجود "أنداد كولومبس الصينيين" قبل عام ١٤٩٢ بأمد طويل موضوعة المستوى الرفيع لبناء المراكب والملاحة في الصين في الأزمنة القديمة والقرون الوسطى.

ثمة والحق يقال الكثير من المسوغات الوجيهة لمثل هذه المحاكمات. ينبغي هنا قبل كل شيء، التنويه بأن قسط العلماء والبناة والبحارة الصينيين في تطور العلم الجغرافي العالمي كان كبيراً ومتنوعاً، مع أن الأوساط الأوروبية غالباً ما كانت تحاول الإقلال من شأنه أو حتى إخفاءه. ومن المستبعد أن تكون ثمة ضرورة الآن للبرهان على أن تاريخ الأبحاث الجغرافية لا يعود إلى الأوروبيين وحدهم. يكتب الجغرافي سفيت: "لم تكن دراسة وجه الأرض في الأزمنة القديمة، ولا على امتداد القرون الوسطى، ولا في الزمن الحديث، ولا يمكن أن تكون امتيازاً للأوروبيين على وجه الحصر"[٢٢].

فمتى ظهرت في الصين المراكب الشراعية البحرية الأولى؟

مع أن هيروغليف "فان"، الذي يعني "الشراع"، ظهر قبل عام ١٠٠٠ ق.م، وإن الأشرعة المجدولة من القصب قد وصفت في نصوص بداية

عصر هان (نحو القرنين الثالث والثاني ق.م)، فلا توجد عندنا حتى عام ٢٠٠ ب.م وثائق تتحدث عن استخدام الصينيين العملي للأشرعة في الملاحة البحرية. حينذاك، في تخوم ما بعد الميلاد، تكون نهائياً الشكل المعروف أكثر من غيره للسفينة الصينية النموذجية، أي "الجنك" ذي القعر المسطح نسبياً والمقدمة والمؤخرة المقطوعتين باستقامة (نماذج من مدفن سلالة هان)[٢٣].

ولكن المعلومات الكثيرة بشكل خاص عن بناء المراكب والملاحة الصينيين وصلت إلينا من القرون الوسطى. وهكذا، فمن المعروف أنه عقدت منذ أواخر القرن العاشر اتصالات وثيقة بين الصين وجزيرة بورنيو. وتغلغل الصينيون في الفيليبين وجزر الزند الصغرى، ومن هناك انفتح طريق مباشر إلى ملقه - "بلاد البهارات". وأقاموا اتصالات متينة بجاوه وسومطره وسيلان والهند. وهناك قابلوا التجار العرب النشاطى، "دا- شي"، واستطاعوا التفاهم معهم. وطبيعي أن بناء المراكب وعلم الملاحة، والمعارف الجغرافية تطورت في تلك الظروف في "الإمبراطورية السماوية" بخطوات طول كل منها سبعة أميال. ومنذ أواخر القرن الحادي عشر صارت تستخدم في المراكب الصينية "الإبرة المشيرة إلى الجنوب" ("تشينان - تشين")، البوصلة المغنطيسية التي لم يبدأ العرب باستخدامها إلا في أواسط القرن الثاني عشر، أما الأوروبيون فلم يستوعبوها عموماً قبل الفترة من أواخر القرن الثاني عشر إلى بداية القرن الثالث عشر[٢٤].

هكذا يصف المراكب الصينية والتجارة والملاحة الصينيتين تشو يو في رسالته "بين تشو غو تان" (عام ١١١٩):

"للمراكب شكل مربع تقريباً مثل مكاييل الحبوب. إذا لم تكن هناك ريح لا تنزع الصواري، وهي مثبتة بقوة شديدة وتتدلى الأشرعة على جانب

واحد من الصواري وتدور على الصواري كالأبواب. ولهذه المراكب أشرعة من القصب المجدول، وتسمى تسيا دو، وهذه الكلمة أجنبية.

وهي لا تسير في البحر عند هبوب الريح من المؤخرة فقط، بل وعند هبوب الرياح من الشاطئ وإلى الشاطئ، ولا يمنعها التحرك إلى الأمام إلا هبوب الرياح الأمامية، ويسمي (البحارة) هذا (أي استخدام الرياح المنطلقة من المؤخرة والجانبين) سيراً على رياح من ثلاثة اتجاهات. أما عند هبوب الرياح إلى المقدمة مباشرة، فترسو وتتوقف.

يسافر في المراكب البحرية الكبيرة بضع مئات من الأشخاص (الضيوف التجار)، وعلى المراكب الصغيرة مئة وأكثر، وهم ينتخبون أكثر التجار جدارة، فيدير شتى الأعمال مع مساعده...

لا يخشون في البحر الرياح والأمواج. المضاحل مرعبة، لأنه يقال: إن المركب إذا جنح إلى مكان ضحل، فلا تمكن زحزحته من هناك بأي وسيلة كانت...

يعرف الربابنة خطوط الشواطئ، وهم يحددون الطريق بالنجوم ليلاً، وبالشمس نهاراً. وإذا كانت السحب تغطي الشمس يستخدمون الإبرة المشيرة إلى الجنوب..."(٢٥).

في عام ١١٧٩ كتب تشو غوفاي، موظف الملاحة التجارية: "المراكب التي تنطلق إلى البحر الجنوبي وإلى الجنوب منه تشبه البيوت، وحينما تنشر قلوعها تبدو كغيمه صافية. يبلغ طول سكاناتها أحياناً بضع عشرات من الأذرع، وكل مركب يقل بضع مئات من الأشخاص، ويحمل على متنه مؤونة سنة من الحبوب"(٢٦).

"يصف ابن بطوطة، الرحالة العربي العظيم، الذي زار الصين في أربعينات القرن الرابع عشر، المراكب الجبارة التي تبنى في ترسانات الزيتون (تسيوان- تشو) للرحلات البعيدة في عرض المحيط. يكتب ابن بطوطة: ويخدم في المركب منها ألف رجل منهم البحرية ستمئة، ومنهم أربعمئة من المقاتلة... ويجعلون للمركب أربعة ظهور. ويكون فيه البيوت والمصاري والغرف للتجار. والمصرية فيها يكون فيها البيوت..."[٢٧].

في الرحلات المهمة لقائد الأسطول تشين هي إلى شواطئ إفريقيا في القرن الخامس عشر أظهرت الملاحة الصينية والمراكب الصينية للعالم أجمع، بما في ذلك أوروبا المتكبرة، أنه لم يكن لها نظير في كوكبنا بأسره عشية الاكتشافات الجغرافية الكبرى. ويكفي القول أنه ساهم في هذه البعثات السبع ٦٢ مركباً يبلغ طول أكبرها ١٤٢ متراً وعرضه ٥٧ متراً! وكان على متنها ٢٧٨٠٠ شخص![٢٨].

ولكن من الأفضل أن نترك الكلمة لكاتب أسفار من القرون الوسطى وصف هذا الحدث ببلاغة ومعرفة للأمر.

" من سنة يونلي الثالثة (عام ١٤٠٥) وإلى الوقت الحاضر (عام ١٤٣١) أخذنا على عاتقنا سبع مرات مهمة سفراء إلى بلدان المحيط الغربي. زرنا البلدان الهمجية تشان تشين (فيتنام وكمبوديا) وتشاوفا (جاوه) وسانفوشي (سومطره الشرقية) وسيانلي (سيام) والخليج المؤدي إلى سيلانشان (سيلان) ومدينتي غولي (كاليكوت) وغوتشي (كوتشين) الواقعتين جنوب الهند، ووصلنا إلى البلدان الغربية، هولو موصي (هرمز) وأيدان (عدن) وموغودوشو (مقديشو، على شاطئ إفريقيا الشرقي) وزرنا

ما مجموعه ثلاثون بلداً كبيراً وصغيراً. قطعنا أكثر من مئة ألف لي عبر الأرجاء المائية الرحبة ورأينا أمواجاً عملاقة تصل إلى السماء، وبلداناً همجية بعيدة في ضباب أزرق، وكانت أشرعتنا تحمل، كالسحب، مراكبنا ليلاً ونهاراً على الطريق المختار، وسرنا بسرعة النجوم من خلال الأمواج المتوحشة والرهيبة وكأننا نسير على درب ممهد...".

على هذا النحو وصف قائد الأسطول الصيني العظيم تشين هي في نقش تذكاري نتائج رحلاته السبع عبر بحار آسيا الجنوبية. كل هذه الرحلات البحرية جرت في الثلث الأول من القرن الخامس عشر، منذ خمسمئة سنة ونيف، في الوقت الذي لم يكن قد انبثق فيه فجر الاكتشافات الجغرافية الكبرى في أوروبا...

والبعثات الصينية في القرن الخامس عشر لم تكن أبداً مصادفة تاريخية. وقد تكللت الرحلات السبع لقائد الأسطول تشين هو إلى البحار الغربية الجنوبية بالنجاح؛ لأن البحارة الصينيين كانوا قد كدسوا خبرة كبرى حتى ذلك الحين، ولم تكن هذه خبرة صينية فحسب؛ إذ إن تاريخ الطريق البحري الآسيوي الكبير يرتبط ارتباطاً لا ينفصم بتاريخ شعوب جنوب شرق آسيا والهند والشرق الأوسط، ونتائج الممارسة الملاحية لبحارة هذه البلدان على مدى قرون عديدة حددت إلى درجة كبيرة إمكانية قيام تشين هي ببعثاته الكبرى[٢٩].

هكذا كانت النتائج الرائعة للحضارة الصينية على امتداد ألف سنة، وذلك على وجه التحديد عشية صعود البحارة والغزاة الأوروبيين إلى المسرح العالمي في أواخر القرن الخامس عشر. كل المراكب البحرية التي في

حوزة "الإمبراطورية السماوية" تقريباً كانت تستطيع نظرياً قطع المحيط الهادئ من الغرب إلى الشرق في جزئه الشمالي والوصول إلى شواطئ أمريكا، وتساعد على هذه الرحلات الرياح والتيارات السائدة هناك، فلماذا لا نجد إلا نادراً أو لا نصادف على الإطلاق آثاراً ملموسة للبحارة الصينيين القدماء في ثقافات أمريكا قبل كولومبس؟

أعتقد أن كنوروزوف اقترح أنجح جواب لهذا اللغز.

يكتب قائلاً: "لم تجر عملياً تجارة بحرية في الجزء الشمالي من المحيط الهادئ؛ بسبب الظروف الصعبة للملاحة. كان يمكن للسفن اليابانية والصينية، ولا سيما قوارب الصيد، التي تدفعها العواصف إلى عرض المحيط، أن يقذف بها تيار أوياسيفو والرياح إلى ساحل أمريكا. وثمة أمثلة كثيرة على هذا. وكان الصيادون من الهنود الحمر يتمتعون بإمكانية كاملة لرؤية حطام السفن المتحطمة، وفي بعض الحالات كان يمكن أن تصل إلى الشاطئ سفينة كاملة (بطاقم ميت أو حتى على قيد الحياة). وهكذا، على ما يبدو، وصلت إلى الهنود الحمر شتى المصنوعات اليابانية والصينية (العملة، المنحوتات، الأسلحة)...

وإذ قام الصينيون بتجارة بحرية نشيطة، أرسلوا على ما يبدو بعثات استكشافية إلى الشمال منذ القرون الأولى ب.م. وقد وصل بعضها إلى شواطئ أمريكا الشمالية وعاد أدراجه. بيد أن الظروف الصعبة للرحلة وانعدام آفاق التجارة أدت إلى وقف هذه البعثات. وأخذ الصينيون واليابانيون يطورون التجارة البحرية في اتجاه الجنوب"[٣٠].

دزيومن وفلديفيا: اليابانيون في أكوادور؟

الأمر أعقد بكثير في خصوص الاتصالات المباشرة بين أمريكا وآسيا عبر الجزء الأوسط من المحيط الهادئ. ليس عندنا إلى اليوم سوى حالتين مشكوك فيهما لهذه الصلات ما قبل كولومبس وحالة لا جدال فيها (البولينيزيون)[1].

في عام ١٩٥٦ بدأ الآثاريون أيميليو استرادا وزميلاه من الولايات المتحدة بتي ميغرس وكليفرد ايفانس حفريات في محطة فلديفيا القديمة على ساحل أكوادور الجنوبي، وكان هدف عملهم يتلخص في أن يدرسوا على أكمل نحو ثقافة كانت مجهولة تماماً قبل ذلك تعكس الانتقال من اقتصاد الصيد وجمع النباتات إلى الزراعة.

وهنا اتضحت حقيقة مدهشة تماماً. لقد تعلم سكان فلديفيا في تخوم الألفين الرابع والثالث ق.م تحضير آنية فخارية رائعة بأشكال مختلفة وزخارف متباينة. وفي الوقت نفسه لم تكن أية من الثقافات الأخرى للهنود الأمريكيين المعاصرة لفلديفيا قد وصلت إلى المرحلة السيراميكية. ومن المفهوم تماماً أن تثير مسألة أصل السيراميك المحلي اهتمام الباحثين الشديد، ولعل حلها كان سيتطلب أمداً طويلاً لو لم يظهر في أحد أيام عام ١٩٦٠ تحت مجرفة عامل حفر إناء فخاري أحمر بمسكة طويلة ذات زوايا وزخرفة

(١) للمزيد من التفاصيل راجع الفصل الثامن من هذا الكتاب.

معقدة، وكان يشبه إلى درجة مدهشة الأباريق اليابانية لثقافة دزيومن الوسطى، ثم أعقبت ذلك لقيات أخرى من النوع نفسه.

بيد أن جهل آثاريي العالم الجديد ثقافة دزيومن جعل من الصعب القيام بمقارنة مفصلة بين النماذج اليابانية والأكوادورية للآنية الفخارية. وها هما ميغرس وايفانس يتوجهان إلى ما وراء المحيط، إلى "بلاد الشمس الساطعة" لدراسة العاديات التي جمعها الآثاريون المحليون، وفاقت نتائج الرحلة كل التوقعات. لم يتسن فقط الكشف عن عدد كبير من الملامح المتشابهة في سيراميك ثقافتين تبعد إحداهما عن الأخرى نحو ١٥ ألف كم، بل وتسنى العثور على تلك المنطقة من اليابان التي بلغ فيها التشابه مع أكوادور حده الأقصى. وهذه المنطقة هي جزيرة كيوشو، ولا سيما آثارها الساحلية من عصر دزيومن، مثل سوباتا وايتسومي وأتاكا العائدة إلى تخوم الالفين الرابع والثالث ق.م. ولما كان الكثير من النماذج الخاصة للآنية الأكوادورية الفخارية لا ينفصل عملياً عن مصنوعات اليابان، حيث تعود تقاليد أعداد السيراميك إلى الألفين التاسع والثامن ق.م، فلا يمكن أن يكون هناك إلا استنتاج واحد: لأقدم مجموعة سيراميكية في فلديفيا أصل آسيوي[٣١].

ولكن كيف أمكن للسيراميك الياباني أن يصل إلى شواطئ أكوادور؟

بعد أن جمع العالمان الأمريكيان في كل واحد كل ما يمكن الحصول عليه من معلومات، أعادا بناء مسيرة الأحداث على النحو التالي:

"منذ نحو ٥ آلاف سنة كانت تسكن ساحل اليابان وأمريكا الجنوبية مجموعات صغيرة من صيادي السمك، وجامعي الرخويات الذين كانوا يكملون غذاءهم بالقنص، وجمع الثمار والنباتات البرية. ولا يستبعد أنه

ظهرت عندهم البدايات الأولى للزراعة. ومع أن أدواتهم ولوازمهم كانت تختلف من حيث بعض التفاصيل التصميمية، إلا أنها متشابهة عموماً: صنانير الصيد المصنوعة من الصدف، المخارز العظيمة، المدقات وأثقال التغطيس والمطارق الحجرية إلخ، مما يشير إلى مستوى واحد للتطور التكنولوجي وإلى تشابه الوسط الطبيعي. تشهد وفرة حسك الأسماك البحرية الذي عثر عليه في مستوطنات عصر دزيومن على أن صيد البحر كان يعطي القبائل الساحلية اليابانية منذ زمن مبكر جداً جزءاً مهماً من المواد الغذائية. والأرجح أنه كانت تستخدم لهذه الحرفة الخطرة قوارب كانت عبارة عن جذوع أشجار كاملة مقورة.

لو قذف التيفون قديماً قارباً كهذا يقل صيادين من ساحل جزيرة كيوشو إلى عرض البحر في أكتوبر أو نوفمبر لوصل إلى منطقة أقوى تيارات الجزء الشمالي من المحيط الهادئ وتحرك بسرعة ٢٤ - ٣٤ ميلاً في اليوم، على القوس الكبير، في الاتجاه العام نحو الشمال الشرقي... يستحيل طبعاً أن نحسب بدقة مطلقة الزمن اللازم للانسياق من اليابان إلى أكوادور على امتداد ٩٤٥٠ ميلاً، ولكننا نستطيع أن نقول بثقة: إنه يستمر أشهراً عديدة ومن الممكن تماماً أن يتحمل عدد من أفراد طاقم قارب الصيد كل مشاق رحلة كهذه، ويبقى على قيد الحياة.

كانوا بعد أن يصلوا إلى ساحل أكوادور، يحظون باستقبال ودي من الهنود، ويدرجون في قوام القبيلة بمثابة أفراد يتمتعون بكامل الحقوق. وهؤلاء القادمون الآسيويون بالذات علَّموا السكان المحليين فن تحضير السيراميك، ولكن ما لبث الفلديفيون أنفسهم أن أصبحوا فخاريين ممتازين، وفاقوا معلميهم سواء من حيث شكل المصنوعات أو من حيث

نوعيتها: من المميز أن أقدَمَ سيراميك فلديفيا لا يتفوق على أية آنية مبكرة أخرى من العالم الجديد فحسب، بل وعلى سيراميك دزيومن"[٣٢].

كان صيادو السمك اليابانيون الذين قذفت بهم عوامل المحيط إلى شواطئ أكوادور شرارة وقعت على تربة ممهدة تماماً. وقد كانت ثقافتا فلديفيا ودزيومن على مستوى واحد من التطور تقريباً، ولم يكن يميزهما إلا وجود أو انعدام الآنية الفخارية. وهي بالذات التي استوعبها الهنود الحمر الذين ما لبثوا أن أسبغوا عليها أشكالاً فريدة ومبتكرة.

يكتب الأثنوغرافي أروتيونوف: "إذا كانت الأحكام الأساسية لفرضية أسترادا وزميليه صائبة، فما هو المغزى العلمي المبدئي لاكتشافهم؟ إذ إن حادثة ظهور سكان اليابان القدماء في أمريكا الجنوبية أدى بحد ذاته دوراً صغيراً نسبياً في تاريخها الإثني والثقافي، وإن كان من المحتمل أنها بالذات أعطت الدفعة الأولى لانتشار السيراميك على ساحل أكوادور"[٣٣].

وها هي شطحات الخيال تحلق بالعالم إلى السديم الضبابي لآلاف السنين وتبرز في مخيلته لوحات جلية وواضحة تحدثه "كيف كان ذلك".

" مضى مئتا يوم تقريباً منذ أن أصبح القارب الصغير، المصنوع من جذع شجرة مقور بالقدوم، العوبة لأمواج المحيط. في البداية كادت الأمواج المسعورة التي أثارها التيفون أن تحطمه إلى أشلاء، ثم صارت الدفعات الخفيفة للتموجات تسحبه بهدوء واستمرار بعيداً إلى الشرق. وكان الرجلان والمرأة القابعون في القارب قد فقدوا منذ زمن بعيد حساب الأيام والشعور بالاتجاه. ثم ماذا يستطيع المجذاف الوحيد المتبقي أن يفعل حتى وإن عرفوا في أي اتجاه تقع الأرض؟

في ذلك اليوم الخريفي، حينما قذفت العاصفة قاربهم بعيداً عن الشطان الخضراء لجزيرتهم كيوشو التي تحجبها غشاوة وابل منهمر، كانوا سبعة في القارب، وقد مات أربعة أشخاص من الجوع والبرد والعطش منذ الأسابيع الأولى لهذه الرحلة الاضطرارية. واستطاع هؤلاء الثلاثة البقاء على قيد الحياة في أرهب فترة، فترة الشهرين الأولين، ساعدهم في ذلك الشباب والصحة وخبرة الناس الذين تعودوا منذ نعومة أظفارهم العيش على هبات البحر، وفي الأيام اللاحقة وافاهم الحظ أكثر، إذ تسنى لهم من حين إلى آخر جمع قليل من ماء المطر واصطياد سمكة مرة، وطائر مرة، بالإضافة إلى أنهم اعتادوا على العيش في مركب سهل الانقلاب وسط البحر، وفي الشهر الرابع أصبح الطقس دافئاً تماماً بل وحاراً. ومع ذلك أخذت القوى تغادر هؤلاء الثلاثة أيضاً.

عند الشروق حصلت معجزة، تلك المعجزة التي ابتهلوا من أجلها عبثاً إلى آلهة البحر أياماً عديدة، والتي انتظروها متطلعين إلى الأفق الرتيب بلا جدوى. كانت الأرض قريبة جداً - شريط أزرق من الجبال المسننة التي انبلجت من خلفها أشعة الشمس الأولى، وشريط أبيض من الرواه بمحاذاة الساحل الرملي القاحل. ودفعهم التيار على امتداد هذا الشاطئ، إلى الشمال، وهنا احتاجوا إلى استخدام قواهم الأخيرة ومجذافهم الاخير.

موجة كسلى قذفت بالقارب إلى الشاطئ المنخفض وتراجعت، مخلفة إياه على الرمل. استلقوا في الجوار بلا حراك، شأن القارب، لا يستطيعون النهوض والسير، ولكنهم كانوا بكل أجسامهم يشعرون تحتهم بالرمل الدافئ والمتراص - بالسند، بالأرض، بالحياة.

كانت تمتد بمحاذاة الشاطئ فوق المضحل أدغال شجيرات غريبة لا نظير لها في اليابان - لا ورق، ولا أغصان، بل مجرد سياج من الجذوع المضلعة البنية المغطاة بالشوك، وفجأة ظهرت من خلفها مجموعة من الناس. لم يكن في مظهرهم أي شيء غير مألوف - الشعر الأسود المستقيم نفسه الذي يعلو رؤوس أفراد قبيلة الناجين، والبشرة الملوحة نفسها التي تشبه الطين المشوي، والعيون نفسها، الحولاء قليلاً، ولكن أنوفهم كانت غريبة بعض الشيء بشكلها المحدب. وكانت عدة الصيد البسيطة التي يحملونها معروفة جيداً للقادمين الجدد - خيوط من ليف نباتي، صنانير من الصدف، ثقل تغطيس حجري، حقائب مجدولة لجمع المحار - كل هذا مفهوم وقريب ومعروف. بيد أن الكلام لم يكن مفهوماً، ولكن مغزى الكلمات كانت تنقله نظرات العيون الطيبة - المشدوهة، المتعاطفة، المتفهمة. كان ذلك منذ خمسة آلاف سنة"[٣٤].

ولكننا لن نتسرع بالاستنتاجات النهائية، ففي العلم، أكثر من أي نوع آخر للإبداع البشري، يجب أن تنطلق حتى أجرأ الفرضيات من أساس راسخ للحقائق المتراكمة. والحقائق، كما اتضح، تتحدث ببلاغة ضد الرواية الجذابة للغاية حول انسياق صيادين يابانيين إلى شواطئ أكوادور في عام ٣٠٠٠ ق.م.

نذكر بأنه تكمن في أساس فرضية ميغرس وايفانس وأسترادا الآراء في صدد التشابه الأسلوبي الخارجي الكبير بين أبكر سيراميك من فلديفيا (أكوادور) والآنية الفخارية لثقافة دزيومن النيوليتية اليابانية. ومن هنا نبع استنتاج بعيد المدى حول قيام سكان الساحل الأكوادوري باقتباس قدورهم وكؤوسهم الأولى من النماذج اليابانية وحول أن كل السيراميك

اللاحق في أكوادور وأمريكا ما قبل كولومبس عموماً يعود بمنشئه، في نهاية المطاف، إلى تقاليد دزيومن الفخاية.

بيد أن مسألة ظهور السيراميك، وانتشاره في المناطق الأخرى من العالم الجديد لا تزال بعيدة عن الوضوح الكامل. أولاً: من الممكن تماماً أن يظهر السيراميك كاختراع مستقل في جملة من الأماكن، ومن الجهة الأخرى، أثرت في ظهور وانتشار السيراميك في أمريكا الاتصالات الثقافية بآسيا التي لم تتوقف أبداً في منطقة مضيق بهرنغ. لقد تم عبر هذا الجسر قيام الإنسان بالاستيطان الأولي والأساسي لأمريكا، وعلى امتداد كل فترة الآلاف اللاحقة من السنين مرت من هناك أغلبية الخطوط التي يمكن تتبعها بوضوح تام للاختلاط الثقافي بين العالمين القديم والجديد.

برهن الآثاريون بيشف وفيتيري وغمبوا بما لا يقبل الشك على أنه يوجد في ساحل أكوادور سيراميك أبكر، وهو لا يشبه السيراميك الياباني أبداً، ولكنه يرتبط بالمرحلة الأولى لإنتاج السيراميك الياباني في فلديفيا[٣٥]. ثم اتضح أن لأقدم السيراميك هذا جذوراً أيضاً في الثقافات المحلية لعصر ما قبل السيراميك.

أعرب العالمان ماك ايفان وديكسن من الولايات المتحدة عن الشك في إمكان انسياق قارب صيد من اليابان مباشرة إلى أكوادور عبر الجزء الأوسط من المحيط الهادئ، إذ إن الرياح والتيارات السائدة تدفع في الواقع كل القوارب والسفن من الجزر اليابانية إلى الشمال الشرقي على القوس الكبير. وفي هذه الحالة لا بد للقارب الذي يقل صيادين من أن يمر قبل كل شيء قرب ألاسكا والساحل الشمالي الغربي للولايات المتحدة، ويجتاز المكسيك وأمريكا الوسطى، وبعد ذلك فقط يصل إلى الساحل الأكوادوري،

ولكن لماذا يندفع الصيادون الناجون بهذا العناد إلى الجنوب، وقد ظهرت أمامهم منذ زمن بعيد الأرض التي ينتظرونها بفارغ الصبر؟[٣٦].

وأخيراً، نتحدث عن التشابه الأسلوبي بين السيراميك الياباني ونظيره الأكوادوري. أشار الآثاري الأمريكي جون مولر بدهشة، بعد أن توجه إلى المصادر الأولى، إلى أن كسارة الآنية سواء في فلديفيا (أكوادور) أو في دزيومن (اليابان) لا تؤخذ إلا من حيث التشابه الخارجي بغض النظر عن سياقها الثقافي، وعمق طبقة الأرض التي كانت فيها وتأريخها. على هذا النحو يقارن مثلاً نموذج أكوادوري من أبكر طبقة بنموذج ياباني من الطور المتأخر أو الأوسط لتطور دزيومن، وبالعكس. ولهذا بالذات تقارن مواد من فلديفيا لم تصادف في طبقاتها المبكرة بمجموعة يابانية (وذلك أيضاً من كل أطوار التقاليد المتعددة القرون للثقافة الدزيومنية). وعلاوة على ذلك، استثنى أصحاب الحفريات من البحث العام إجمالاً النموذج الأكثر انتشاراً للآنية الفخارية الفلديفية (وهو ما يسمى بالنموذج "الفلديفي المنقوش العريض الخطوط")؛ لأنه لا يشبه المصنوعات اليابانية أبداً. هذا بالإضافة إلى أن سيراميك دزيومن الياباني متنوع جداً، ولا يشكل كلاً واحداً يصلح للمقارنة بالتقاليد الثقافية الأخرى.

التشابه في أسلوب الزخرفة على الآنية الفخارية الأكوادورية واليابانية يحمل، حسب قول جون مولر طابعاً خارجياً بحتاً، ولا يمكن أن يشكل برهاناً جدياً على اتصالات وتأثيرات متبادلة[٣٧].

وهكذا، لم تحدث إثارة في هذه المرة أيضاً، ولكن يوجد عندنا مثال آخر من هذا النوع يستحق تماماً أن ننظر فيه خصيصاً.

لقيات غريبة في بائيا دي كاراكس

في خمسينيات القرن العشرين قام الباحث الأكوادوري أسترادا بأعمال آثارية واسعة على ساحل أكوادور. وإذ كان يدرس آثار الثقافة الهندية القديمة في بائيا دي كاراكس (اقليم مانابي)، اكتشف في خلال الحفريات مجموعة فريدة من المصنوعات الفخارية التي تختلف بمظهرها اختلافاً شديداً عن اللقيات الأخرى، وكانت بينها نماذج فخارية لبيوت ومنحوتات ونسخ مصغرة لمساند للرقبة[٣٨].

وكانت للبيوت سطوح مقعرة من الوسط كالسروج ذات زوايا معقوفة إلى الأعلى. وهي تشبه جداً الباغودات[١] الآسيوية النموذجية. وتصور بعض المنحوتات الفخارية أناساً متربعين بأغطية رأس تشبه خوذا مخروطية. وكانت لكل هؤلاء الأشخاص لحى مشعبة صغيرة، وهي شيء نادر للغاية في تصاوير الهنود قبل كولومبس. وعلى بعض المصنوعات الفخارية رسوم مزخرفة تصور أناساً ينقلون حمولات على عصا طويلة موضوعة على الكتف. وهذه الوسيلة لنقل الأثقال ليست مميزة أيضاً للسكان الأصليين في أمريكا القديمة. بعد أن درس الآثاري الأكوادوري كل المواد المتوفرة، استنتج أن أقرب النظائر لكل هذه الملامح لا تصادف إلا في آسيا، ولا سيما في اليابان وكوريا، في القرون الأولى بعد الميلاد[٣٩]. ما هذا؟

---

(١) جمع باغودة، ومعناها معبد بوذي. المترجم

تطابق عرضي؟ أم هو بالفعل آثار لإقامة بحارة يابانيين وكوريين على ساحل القارة الأمريكية منذ نحو ألفي سنة؟

ثمة، للأسف، في هذه الحالة أيضاً كل المسوغات للشكوك الجدية. عند النظر المتمعن لكل من الملامح "الآسيوية" الواردة أعلاه يتضح أنها موجودة، وبأشكال متشابهة جداً، في أمريكا، لا في آسيا وحدها.

لقد عثر على نماذج فخارية للبيوت تشبه جداً النماذج الأكوادورية في المدافن الشهيرة ذات الاقبية في غرب المكسيك (القرن الخامس ق.م - القرن الخامس ب.م). وكانت مساند الرقبة (سواء من الخشب أو الحجر أو الفخار) منتشرة قديماً على نطاق واسع عند هنود أمريكا الوسطى (كوستاريكا، نيكاراغوا، هندوراس) والقبائل الكاريبية- الأراواكية في جزر انتيل. وأخيراً، فإن اللحية، الطبيعية أو الاصطناعية (كصفة عقائدية، دليل على الحكمة) صورت مراراً لدى شخصيات هندية صرف من حيث المظهر والملبس ذات مرتبة اجتماعية عالية (المايا من القرن الأول إلى القرن الخامس عشر ب.م، الألميك في الألف الأول ق.م وغيرهم).

وثمة خلل كبير أيضاً في الترتيب الزمني الدقيق للمواد الأكوادورية والآسيوية التي قارن أسترادا بينها.

وبالتالي فإن هذا المثال على الصلات بين آسيا وأمريكا عبر المحيط الهادئ قبل كولومبس لا يمكن أيضاً أن يعتبر مقنعاً.

ومع ذلك يمكن تأكيد أن البحارة الآسيويين اجتازوا قديماً على الأرجح أكبر محيطات كوكبنا، وفي أعرض أجزائه، ووصلوا إلى ساحل أمريكا الجنوبية قبل قدوم الأوروبيين بوقت طويل. وأعني البولينيزيين، أو كما يسمون غالباً في الأدبيات العلمية المبسطة، "فيكنغ المحيط الهادئ".

هوامش الفصل السابع

1- M.Covarrubias. The Eagle, the jaguar, and the Serpent. New York, Alfred A.Knopf, 1954, p. 3-72.

2- E Bretschneider. Uber das Land Fusang. –“Mitteilungen der Deutschen Gesellschaft fur Natur-und Volkerkunde Ostasiens”. Bd.2, H. 11, Berlin, 1876, s.3;

الاستشهاد من هنيغ. أراض مجهولة. موسكو. الأدب الأجنبي، المجلد ٢، ١٩٦١، ص ٥١.

3- J. de Guignes. Recherches sur les navigations des Chinois du cote de l’Amerique – Recuei de l’academie des Inscriptions”, t.28, Paris, 1761, p. 505.

٤ - المراجع في هذا الموضوع واسعة جداً، لذا سأقتصر هنا على ايراد مؤلف واحد باعتباره أكثر المؤلفات نموذجية:

Ch.G.Leland. Fusang or the Discovery of America by Chinese Buddhist in the 5-th Century. London, 1875.

5- E.Georg. Verschollene Kulturen. Leipzig, 1930, s. 156.

٦ - هنيغ. أراض مجهولة...، المجلد ٢، ص ٥٣.

7- G.Schlegel. Fou-sang Kouo. –“Problemes Geographiques”, Leiden, 1892, p. 29.

8- R..Hennig. Von ratselhaften Landern. Munchen, 1925, s. 184.

٩ - هنيغ. أراض مجهولة...، المجلد ٢، ص ٥٦.

10- New York, Hill and Wang, 1960, p. 52-53. . F.Hibben

11- Digging up America..., p.53.. F.Hibben

12- E.Jr.Doran. The Sailing raft as a great tradition. –in: C.L.Riley et al (eds.) Man. across the sea. Austin – London, 1971, p. 133-135.

13- E.Jr.Doran. The Sailing raft..., p. 135

14- E.Jr.Doran. The Sailing raft..., p. 135.

15- E.R.Fingerhut. Who first discovered America?..., p.55.

16- F.J.Frost. The Palos Verdes Chinese Anchor Mystery.---“Archaeology, vol. 35, **№1**, New York, 1982, p.24

17- F.J.Frost. The Palos Verdes..., p. 25.

18- F.J.Frost. The Palos ..., p. 25.

19- F.J.Frost. The Palos ..., p. 25.

20- F.J.Frost. The Palos ..., p. 26.

21- F.J.Frost. The Palos ..., p. 28.

٢٢- سفيت. على آثار رحلة ملاحي الشرق. موسكو. غيوغرافغيز، ١٩٥٥، ص ٤.

23- E.Jr.Doran. The Sailing raft..., p. 117.

٢٤- سفيت. على آثار...، ص ١١٠.

٢٥- سفيت. على آثار...، ص ١١٠.

٢٦- سفيت. على آثار...، ص ١١١.

٢٧- سفيت. على آثار...، ص١١٣. (النص العربي من رحلة ابن بطوطة. بيروت. دار صادر. ص ٥٦٥)

٢٨- سفيت. على آثار...، ص ١٢٥.

٢٩- سفيت. على آثار...، ص ١٠٠-١٠٣.

٣٠- كنوروزوف. حول مسألة الصلات بين أمريكا ما قبل كولومبس والعالم القديم. -"أمريكا اللاتنية"، العدد ١، موسكو، ١٩٨٦، ص ٨٤-٨٥.

31- B.Meggers, C.Evans and E. Estrada. Early Formative Period of Coastal Ecuador: the Valdivia and Machalilla Phases. –“Smithsonian Contributions to Anthropology”, vol. 1, Washington, 1965, p.157-167.

32- B.Meggers, C. Evans and E.Estrada. Early Formative..., p.167-168.

٣٣- اروتيونوف. الصلات القديمة عبر المحيط الهادئ: أسطورة ام واقع؟ - "الاثنوغرافيا السوفيتيية" العدد ٤، ١٩٦٧، ص ١٥٠-١٥١.

٣٤- اروتيونوف. الصلات...، ١٩٦٧، ص ١٤٣-١٤٥.

35- H.Bishof and J.Vitori Gamboa. Pre-Valdivian Occupations on the Southwest of Ecuador. –“American Antiquity, vol. 37, Washington, 1972, p.548-551.

36- E.R.Fingerhut. Who first discovered..., p.75.

37- J.Muller. Style and Culture Contact. – in: C.L.Riley et el (eds.). “Man across the sea”. Austin – London, 1971, p. 70-71.

38- E.Estarda and B.J.Meggers. A complex of traits of probable Transpacific origin on the coast of Ecuador. –“American Anthropologist”, vol. 63, **№5**, pt. 1, Menasha, 1961, p. 913-935.

39- E.Estrada and B.J.Meggers. A complex of traits..., p. 935.

الفصل الثامن

بحارة شروق الشمس

"لن يبهت أبداً مجد قواربكم، قواربكم التي
مخرت عباب المحيط، البحر الأرجواني،
محيط كيفا العظيم الذي انبسط أمامهم"

أغنية جنائزية ماورية

لعل الإنسان البدائي، حينما قدم لأول مرة في العصر الحجري إلى شطآن المحيط الهادئ، أحس بالهول لمجرد رؤية هذه الرحاب المائية المترامية الأطراف، ولكننا إلى جانب ذلك نعلم علم اليقين أنه في ذلك العصر البعيد بالذات، منذ ٢٥ -٣٥ ألف سنة، تحركت في البحر قبائل آسيوية تمارس القنص، وصيد السمك، وجمع النباتات على امتداد سلسلة متواصلة تقريباً من الجزر، وسكنت في أستراليا.

يشغل المحيط الكبير، أو الهادئ، ثلث كوكبنا تقريباً، وتبلغ مساحته الإجمالية مع البحار ١٧٩,٧ مليون كم مربع، وعمقه الأقصى ١١٠٢٢ متراً.

يكتب الأثنوغرافي كريوكوف: "لا يستطيع أحد أن ينظر إلى المحيط الهادئ بلا مبالاة. فهو يثير مخيلة كل من يصطدم به لأول مرة وجهاً لوجه، وإذ يرعب الضعيف، يلهم القوي بروح الرغبة العارمة في الإقدام على

البحث عن أجوبة لألغازه. ليست أسرار المحيط كامنة في أعماقه وحدها... إذ إن جزره الكبيرة والصغيرة، التي تفصلها مئات وآلاف كثيرة من الأميال البحرية، تطرح أمام العلماء أيضاً غير قليل من الأسئلة. فكيف وصل إليها مثلاً أناس لا يحسنون تقنية الملاحة العصرية، ولكنهم قرروا تحدي الطبيعة والتوجه إلى الأبعاد المترامية معرضين أنفسهم للمخاطر والأهوال؟

أطلق الأثنوغرافي البولينيزي المعروف تي رانغي خيروا على هؤلاء الناس أجداده، لقب "فيكنغ شروق الشمس". لقد تكون تاريخهم من نواح كثيرة على نحو مغاير لتاريخ الشعوب القاطنة في الأراضي الأخرى، وذلك قبل كل شيء؛ لأن الجزر التي سكنوها لا تشبه الأراضي الأخرى أبداً. مكنت الظروف الموضوعية لوجود الناس التاريخ من أن يجري هناك تجربة عملاقة بمقاييسها، وفريدة تماماً يمكن أن نطلق عليها التسمية الرمزية "الإنسان في المحيط"...[1].

إذا نظرنا إلى خارطة المحيط الهادئ رأينا أنه تقع في أجزائه الوسطى والجنوبية الغربية كوكبات من الجزر الكبيرة والصغيرة تجمعها عادة في الأدبيات الجغرافية التسمية المشتركة "أوقيانوسيا". وتقسم أوقيانوسيا، انطلاقاً من هذه الخصائص الثقافية والجغرافية لهذه المنطقة، أو تلك، إلى ثلاثة أجزاء: ملانيزيا (في الجنوب الغربي)، أو "الجزر السوداء"، وميكرونيزيا (الشمال الغربي)،"الجزر الصغيرة"، وأخيراً بولينيزيا -"الجزر الكثيرة" (وسط المنطقة وشرقها).

تنتشر جزر بولينيزيا على أرجاء شاسعة من المحيط، ممتدة نحو ٨ آلاف كيلومتر من الشمال إلى الجنوب و٦ آلاف كيلومتر من الغرب إلى الشرق، ومشكلة ما يشبه مثلثاً رأسه الشرقي جزيرة الفصح، ورأساه الشمالي

والجنوبي، على التوالي، جزر هاواي ونيوزيلاندا. تقع جزيرة الفصح على بعد ٤ آلاف كيلومتر عن ساحل بيرو و٢,٥ ألف كم عن جزيرة بتكرن. وتبلغ المساحة الإجمالية لكل الجزر البولينيزية (بدون جزيرة نيوزيلاندا - إحدى أكبر الجزر في كوكبنا) ٢٧ ألف كم مربع، أو ما يقل، مثلاً، عن مساحة البلدين الأوروبيين الصغيرين نسبياً بلجيكا أو سويسرا. وحسب مختلف تقديرات العلماء كان يعيش هناك حتى لحظة ظهور الأوروبيين ما يتراوح بين ٣٠٠ ألف ومليون نسمة.

أغلبية جزر المحيط الهادئ صغيرة جداً، وكأنها تندمج في أرخبيلات لا عد لها ولا حصر. وتختلف طبيعة الجزر، وقوامها الجغرافي وارتفاعها عن مستوى البحر. بعض الجزر بركاني، وبعضها مرجاني، وتمكن الإشارة فقط إلى أن مقاييس الجزر تتناقص مع الابتعاد عن جنوب شرق آسيا وأندونيسيا إلى الشرق، وفي الوقت نفسه يصبح عالمها النباتي أكثر فقراً.

أوقيانوسيا هي أرض التباينات، التباينات بين غنى النبات وفقر السكان المحليين. في الكثير من الجزر بمنظرها الرائع يهدد الموت جوعاً سكانها في حالة الجفاف المتكرر هناك.

ولكن الإنسان تكيف مع الزمن للظروف الطبيعية المتقلبة المحلية، وتعلم أن يعيش ويضمن لنفسه كل ما هو ضروري حتى في أنأى جزر المحيط الهادئ المنعزلة نسبياً.

سيقتصر الحديث لاحقاً على بولينيزيا وحدها؛ لأن هذه المنطقة من المحيط بالذات تعتبر في العلم منذ زمن بعيد المنافس الرئيس على ممارسة الاتصالات بأمريكا الجنوبية عبر المحيط قبل اكتشافات كولومبس بقرون كثيرة.

من هم البولينيزيون؟

من بين الماء والنار والتراب، العناصر الأساسية الثلاثة للأنظمة الكسموغونية التي وضعتها الشعوب البدائية، ينطوي الأولان على مغزى خطير في حياة سكان جزر المحيط الهادئ. التراب هنا مجرد حفنة من الجزر التي تشكل في الغالب مأوى مؤقتاً قبيل صراع جديد مع المحيط. يقول البولينيزيون: "أرضنا هي البحر".

فما هو أصل البولينيزيين، ممثلي أكثر الثقافات ارتباطاً بالبحر في أوقيانوسيا بأسرها؟ من أين أتوا؟ أمن الهند الصينية، متحركين إلى الشرق؟ أم ربما من قارة باسيفيد الأسطورية التي كانت تقع، كما يفترضون، في الجزء الشمالي من المحيط الهادئ، ثم غارت في قاع المحيط نتيجة كارثة طبيعية مروعة؟ أو ليسوا أخلافاً للفيكنغ الشقر والمغر الذين أتوا أول الأمر إلى أمريكا، ومن هناك وصلوا إلى الجزء الغربي من المحيط الكبير؟

قبل كل شيء يعطي بعض المعلومات في هذا الخصوص البولينيزيون أنفسهم وأخلافهم المعاصرون. "لا تكمن أصالة نمطهم الجسدي في خاصية لمظهرهم الخارجي بارزة بشدة، بل في الجمع الفريد لسمات ملازمة لمجموعات عرقية أخرى. يميزهم عن الزنوج لون البشرة الأفتح، والبروز الشديد للأنف، ومقاييس الوجه الكبيرة؛ وعن الأوروبيين لون البشرة والشعر الأغمق والتطور، الضعيف لنمو الشعر، وعن المغول بروز الأنف

الشديد نسبياً"[٢] يعتبر الأنتروبولوجي أليكسييف أن البولينيزيين ظهروا نتيجة اختلاط الأشكال المبكرة للأستراليين والمغول. وهذا لا يفسر وضع البولينيزيين الوسط من حيث الكثير من السمات المهمة فحسب، بل ويوجه البحث عن أصل السكان البولينيزيين صوب جنوب شرق آسيا. وبالتالي، تشير المعطيات إلى الجذور الآسيوية الجنوبية لسكان بولينيزيا[٣].

يتسم البولينيزيون عموماً بالقامة الطويلة: تبلغ عند الرجال ١٦٩ - ١٧٣ سم وسطياً، وغالباً ما كان مكتشفو بولينيزيا الأوروبيون الأوائل يشيرون في مؤلفاتهم إلى أنه يُصادَف في الجزر البولينيزية أناس ذوو بشرة فاتحة أو شعر أمغر. تتردد إلى الآن رواية عن العناصر الأوروبية (القوقازية) في النمط العرقي الأوقيانوسي، مع أنها لم تعلل علمياً في يوم من الأيام. وقد أثبت الأنتروبولوجيون الآن أن البشرة الفاتحة والشعر الأمغر (أو الأشقر) لا يصادَفان في حالات كثيرة لدى سكان بولينيزيا الأصليين فحسب، بل لدى سكان أستراليا وغينيا الجديدة الأصليين.

فمن أين أتى أسلاف البولينيزيين إلى جزرهم المتناثرة في أرجاء المحيط؟ حول هذا السؤال جاشت الانفعالات في الأوساط العلمية: طرحت فرضيات متضاربة وخيالية للغاية أحياناً. بيد أن كل هذا انتهى بعودة غالبية الاختصاصيين الساحقة إلى الأفكار والآراء التي طرحت منذ فجر دراسة أوقيانوسيا.

يكتب بلفود: "في أواخر القرن الثامن عشر، القرن الذهبي للأبحاث البولينيزية، ساد رأي مفاده أن البولينيزيين قدموا من الغرب وكانوا أقرباء لشعوب ميكرونيزيا وأندونيسيا والفليبين ومدغشقر، أي التي نضعها الآن

في مجموعة الشعوب الناطقة باللغات الأسترونيزية. لم يكن هناك في غضون سنوات طويلة غير القليل من الاعتراضات الجدية على وجهة النظر هذه، وليس من قبيل المصادفة أن يتضح في نهاية المطاف أنها صائبة. لم تكن عند الباحثين الأوائل تحاملات، وقد أسعدهم الحظ برؤية البحار الجنوبية بشكلها الأولي قبل التأثير الاستعماري الوخيم"(٤).

هذا الاستنتاج تؤكده تماماً كل المعطيات الآثارية المتوفرة إلى اليوم، وبناء عليها ظهر سكان بولينيزيا الأوائل هناك (في جزر تنغا) في أواسط الألف الثاني ق.م(٥). إنهم أصحاب ما يسمى بثقافة لابيتا الذين كانوا يحسنون الزراعة وصنع السيراميك(٦). وفي غضون الألفي سنة اللاحقين استوطن أخلافهم بالتدريج الجزر الأخرى، وتفقدوا كل شبر من اليابسة في "المثلث البولينيزي" الشاسع الذي تشكل هاواي وجزيرة الفصح ونيوزيلاندا رؤوسه.

تبين التنقيبات الآثارية والتواريخ الكربونية الإشعاعية أن جنوب شرق آسيا كان الوطن الأول لسكان أوقيانوسيا المعاصرين. ومن هناك منشأ كل النباتات الزراعية تقريباً (باستثناء البطاطا الأمريكية الجنوبية) والحيوانات الداجنة. "منذ أقدم الأزمنة كانت قبائل زنجية- أسترالية تقطن في الجزء الجنوبي من شبه جزيرة الهند الصينية وفي أندونيسيا. وتحت ضغط المغول الذين تدفقوا من الشمال، تحرك عدد من الزنوج- الأستراليين إلى أوقيانوسيا، واستوطنوا جزر ملانيزيا... أتى المغول إلى ملانيزيا على إثر الزنوج- الأستراليين... ومن اختلاط هذين العنصريين تكون النمط الأنتروبولوجي البولينيزي. المسافة بين أرخبيلات ملانيزيا قصيرة. ولهذا فإن استيطان المتحدرين من أندونيسيا لها لم يتطلب مراكب متطورة، وفن

ملاحة رفيعاً... وهكذا، فإن الملانيزيين أقرباء لسكان بولينيزيا وميكرونيزيا من حيث اللغة. والتشابه كبير أيضاً (مع كل تباين المستويات) في الثقافة المادية لأجزاء أوقيانوسيا الثلاثة... ويعتبر بعض العلماء أن ملانيزيا كانت البوتقة التي ظهر فيها نتيجة لاختلاط المغول والزنوج- الأستراليين النمط الأنتروبولوجي الجديد- البولونيزيون..."[٧].

ولكن الطريق اللاحق إلى أرجاء المحيط المترامي الأطراف تطلب خبرات خاصة واستعداداً، وكان مقترناً بأشد توتر لكل مصادر المجتمع العقلية والمادية. جرى الاستيطان الأولي لبولينيزيا ببطء وصعوبة، وهذا ما تشهد عليه التواريخ التي تم الحصول عليها بواسطة التحليلات الكربونية الإشعاعية. استوطن الإنسان جزر مركيز نحو عام ١٣٠ ق.م، وهاواي منذ عام ٣٠٠ ب.م، أما في جزيرة الفصح، المخفر الأمامي الشرقي لبولينيزيا وكل أوقيانوسيا، فتعود أقدم آثار سكن الإنسان إلى عام ٤٠٠ ب.م. ومن الجهة الأخرى فإن أقدم أثر في جزيرة تاهيتي، الواقعة في وسط بولينيزيا، يعود إلى عام ١٠١٠ ب.م[٨].

وهكذا، بالتدريج، على امتداد قرون كثيرة، تحول البولينيزيون إبان استيطان جزر أبعد وأبعد في المحيط إلى شعب من الملاحين. "دخل المحيط في لحمهم ودمهم ببطء، ولكن بثبات. كان هؤلاء يسبحون كالسمك، ولم يعودوا يهابون الماء. ومخالطة البحر اليومية أوجدت عندهم القدرة على الاهتداء حتى بعيداً عن الشواطئ. ليست هي "الحاسة السادسة" المبهمة التي يزعم أنها تلازم بعض الناس والشعوب، وتنعدم عند الآخرين، بل هي محصلة الملاحظات والخبرات التي تنتقل من جيل إلى جيل..."[٩]

كانت رحلات البولينيزيين جريئة إلى درجة أن بعض العلماء شكوا في صحتها. ولتفسير انتشار البولينيزيين في هذه الوفرة الكبيرة من الجزر التي غالباً ما يبعد بعضها عن البعض مئات وحتى آلاف الأميال، ظهرت أسطورة الأراضي المأهولة وسط المحيط الهادئ التي يزعم أنها وجدت منذ أزمنة سحيقة في القدم (باسيفيدا، مو وغيرهما).

بيد أن كل هذه التخيلات لا تستطيع أن تجرد البولينيزيين من مجد المكتشفين الأوائل والملاحين الذين لا يشق لهم غبار. لقد اكتشفوا على زوارقهم السريعة عدداً متزايداً من الجزر الكبيرة والصغيرة في المثلث الشاسع بين نيوزيلاندا وهاواي وجزيرة الفصح.

وأصبحت منطقة شاسعة للغاية في وسط المحيط الهادئ بين خط العرض ٣٨ درجة شمال خط الاستواء، وخط العرض ٤٨ درجة جنوبي خط الاستواء، وخط الطول ١٦٨ درجة شرقي غرينيتش وخط الطول ١١٠ درجات غربي غرينيتش مكاناً لمآثرهم.

سارت عمليات اكتشاف المزيد والمزيد من الجزر والأرخبيلات ببطء، مع توقفات، ولكن باطراد. وتحققت في اتجاه عام من الغرب والجنوب الغربي (من ملانيزيا) إلى الشرق والشمال الشرقي. وشملت أطرها الزمنية نحو ألفين ونصف أو ثلاثة آلاف من السنين (من عام ١٥٠٠ ق.م إلى عام ١٣٠٠ ب.م).

يقسم العالم والبحار المعروف أريك بيشوب كل الرحلات البولينيزية إلى ثلاثة أنواع:

١ - الرحلات بهدف استطلاع واكتشاف أراض جديدة.

٢- الرحلات بهدف استيطان أراض جديدة مع هجرة طوعية.

٣- الرحلات بهدف استيطان أراض جديدة مع هجرة اضطرارية.

والأسباب لرحلات كهذه كانت دائماً أكثر من كافية عند سكان الجزر. النقص في الماء العذب والجفاف (وبالنتيجة القحط والمجاعة) وفيض السكان والحروب (كانت القبائل المهزومة تضطر إلى البحث عن ملجأ في أراض أخرى) والثأر إلخ. ويشكل تاريخ جزيرة منغاريف أفضل إيضاح لما قيل. كانت الهزيمة في الحرب أحد الأسباب الرئيسة للهجرة من هناك. كان المهزومون يلاحَقون ويُبَادون وكأنهم حيوانات متوحشة. كانت عند المقاديم الذين ينطلقون إلى عرض البحر فرصة واحدة للنجاة من أصل مئة، ولكن الموت المحقق ينتظرهم في الجزيرة، فكانوا يفضلون دوماً أن يخاطروا ويجربوا حظهم[١٠].

كان انتشار البولينيزيين في العديد من جزر المحيط الهادئ ظاهرة خارقة إلى درجة يصعب تفسيرها إذ كان على البحارة الشجعان أن يذللوا في أحيان كثيرة مسافات غير معقولة بالمرة. كان على الشعب، وهو لا يزال يعيش في العصر الحجري من الناحية التقنية، أن يحل أعقد مسائل الرحلات البعيدة في المحيط. وكما رأينا، كانت عند البولينيزيين أسباب كثيرة للبحث عن أراض جديدة وللقيام باكتشافات جغرافية (ويجب أن يضاف إلى هذه الأسباب الفضول البشري البسيط).

ولكن كيف كان الأمر، والحالة هذه، بالنسبة إلى الإمكانيات الفعلية لهذه الرحلات؟ هل كانت عند البولينيزيين السفن المناسبة والخبرات الضرورية لفن الملاحة في أرجاء البحار؟

الإنسان والمحيط (الملاحة عند البولينيزيين)

يورد العالم أريك بيشوب هذا الفرق بين البحارة والملاحين بالنسبة إلى العصر القديم.

"أسمي بحاراً من يستخدم القارب للوصول على الماء إلى مكان معروف لديه، وفي متناول اليد تماماً. تنقصه الصفة الرئيسة للملاح الحقيقي، وهي السعي إلى الانطلاق في عرض البحر لملاقاة الأخطار وإغراءات المجهول، وليس عبثاً أن أسمي المصريين بحارة، والبوليزينيين شعباً من الملاحين"[11].

البولينيزيون هم الشعب الوحيد في العالم الذي استطاع صنع زورق للرحلات الطويلة في المحيط.

ينبغي البحث عن منابع المراكب عند البولينيزيين في جزر جنوب شرق آسيا وفي ملانيزيا، حيث اخترع منذ أزمنة سحيقة في القدم الموازن **(**ذراع الامتداد**)** الذي اكتسبت بفضله قوارب الصيد الضيقة من جذوع أشجار كاملة مقورة الاستقرار الضروري وأصبحت صالحة للانطلاق إلى عرض البحر.

ليست عندنا معلومات عن أنماط السفن التي استخدمها أسلاف البولينيزيين في بداية عصر الانتشار في جزر أوقيانوسيا، ولكن من المستبعد أن يمكن الشك في أن زوارق البولينيزيين، المعروفة لدينا كما وصفت في

القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، قد بنيت وفق أفضل نماذج الأزمنة السابقة المقتبسة من مختلف مناطق أوقيانوسيا.

بنى سكان ميكرونيزيا مثلاً أكثر القوارب المزودة بالموازن تطوراً. "كان الهيكل المخروطي العالي غير المتناسق يضعف الانسياق في اتجاه الريح. وكان الشراع المثلث ينحني إلى هذا الاتجاه من القارب أحياناً وإلى غيره أحياناً أخرى وفقاً لخط المسير. لم تكن المقدمة في هذه المراكب تختلف عن المؤخرة. كان يمكن توجيه السفن إلى الأمام أو الخلف بإدارة الشراع حول الصاري. وكانت أماكن الركاب والحمولة تقع في وسط القارب وعند الجانب المعرض للريح. لم يكن للقوارب الميكرونيزية مثيل من حيث السرعة والقدرة على المناورة"[١٢].

كان صنع سفينة من نمط "دروا" في فيجي أكبر إنجاز أحرزه الأوقيانوسيون في بناء المراكب، وهي نوع لقارب مزدوج يؤدي هيكله الثاني الشبيه بالسيكار دور الموازن[١٣].

وينبغي القول: إن البولينيزيين تقبلوا بسرعة، وطبقوا لأهدافهم على نحو إبداعي أفضل ما ادخره جيرانهم القريبون والبعيدون في ميدان بناء المراكب. كانت تعلق على جوانب القوارب عدة صفوف من الألواح للوقاية من ضربات موجات البحر، ولكن كان صنع زوارق بحرية ضخمة ذات هيكل مزدوج متباين الحجم أهم قسط للبولينيزيين أنفسهم في الملاحة. هذه السفن المكونة من قاربين كبيرين تصل بينهما أرضية خشبية (يقام عليها مكان للسكن عادة) كانت أقل سرعة بعض الشيء من الزوارق ذات الموازن، ولكنها كانت تتفوق عليها كثيراً من حيث الحمولة. وقد بلغ

طولها في جزر "المجتمع" ٣٠ متراً، وكانت لها مؤخرة منقوشة يصل ارتفاعها إلى ٨ أمتار. ويصل عدد الجذافين في مركب كهذا إلى ١١٤ جذافاً. في عام ١٧٧٤ رأى القبطان جيمس كوك أسطولاً بولينيزياً يتكون من ١٦٠ سفينة حربية مزدوجة تعمل على المجاذيف يرافقها ١٧٠ قارباً شراعياً صغيراً للحمولة. وكانت تقل، وفق حساباته، ما مجموعه ٧٧٦٠ شخصاً. كان هذا الأسطول يستعد للهجوم على جزيرة موريا[١٤].

نوه البحار الروسي فيودور ليتكي إبان إقامته في جزر أوقيانوسيا بأن الزوارق المحلية "تناور بأفضلية مدهشة"، أي بسهولة.

قلما كانت مراكب البولينيزيين في القرن الثامن عشر تتخلف عن المراكب الأوروبية من حيث معطياتها الأساسية. كان طول الفرقاطة الإنكليزية "أنديفر"، التي قام جيمس كوك على متنها برحلته الأولى إلى أوقيانوسيا، نحو ٣٢ متراً، في حين أن الإنكليز أنفسهم رأوا في جزيرة تاهيتي زوارق مزدوجة بولينيزية أضخم. كان على متن الفرقاطة ٩٨ شخصاً من الطاقم والركاب، أما بعض سفن الأوقيانوسيين فكانت تتسع لعدد من الأشخاص يصل إلى ٣٠٠ وحمولة تبلغ ٥٠ طناً[١٥].

كانت الزوارق البولينيزية تتحرك سواء بقوة الريح (الشراع) أو بقوة العضلات (الجذافين المدربين خصيصاً). لم تكن للمجاذيف اغلاق، وكان الجذافون يجلسون ووجوههم إلى الأمام، كما في الكياك. وكان يوضع دائماً شراع واحد. "كان يخاط من الحصر المجدولة، وكان على شكلين. وفي بولينيزيا الوسطى كان يستخدم شراع يثبت على صار عمودي، أما في بولينيزيا الغربية فكان يستخدم الشراع "اللاتيني" الذي يمتد بين عارضين

يوصلان على نحو متحرك بزاوية حادة ويعلقان على الشراع بحيث يقع رأس الزاوية الحادة عند مقدمة المركب". وطول الصاري يربو أحياناً على ٢٠ متراً. وفي بعض أنواع السفن يوضع الصاري أحياناً بشكل يستطيع معه أن يسير بالشراع ومؤخرته أو مقدمته إلى الأمام حتى بعكس الريح.

كانت سرعة سفن البولينيزيين تدهش دائماً البحارة الأوروبيين الأوائل. وهكذا، نبه القبطان كوك بأن كل قوارب سكان جزر تونغا بلا استثناء كانت تسبق مركبه. وحتى في النصف الأول من القرن التاسع عشر قال الأمريكي ولكي: إن زوارق السكان الأصليين تسير بسرعة غير معقولة: حتى ١٢ - ١٤ عقدة. أما بعض القوارب الأكثر سرعة وقدرة على المناورة، فكانت تسير بسرعة ١٨ وحتى ٢٢ ميلاً في الساعة[١٦].

إبان زيارة المركب الروسي "ريوريك" جزر مارشال (عام ١٨١٩) كان سكان الجزر يسبقونه بسهولة في زوارقهم، وكانوا بعد ذلك ينزلون الأشرعة، وكأنهم يلعبون، ليستطيع الغرباء اللحاق بهم.

بيد أن المراكب المتطورة لا تكفي للقيام برحلات بعيدة وخطرة في أرجاء المحيط، بل لا بد أيضاً من خبرات متطورة في الملاحة.

لم تظهر الأخبار الأولى الموثوق بها عن الملاحة البولينيزية إلا منذ أواخر القرن الثامن عشر. ومن أولى هذه الأخبار ما تحدث به الإسباني أنديا - أي - فاريلا الذي أقام في تاهيتي عامي ١٧٧٤ - ١٧٧٥.

يكتب فاريلا: "يغادر (أي البحار) المرسى، متمتعاً باحتياطي من المعارف عن ظروف الرحلة؛ ويقود السفينة وفق حساباته الخاصة، مراعياً حالة البحر واتجاه الريح وباذلاً وسعه حتى لا يضل الطريق. من الأصعب

عليه في النهار الغائم تعيين الاتجاهات (بالشمس). وإذا كان الليل غائماً أيضاً، يحدد الطريق وفق السمات نفسها. ولما كانت الريح تغير اتجاهها أكثر من الأمواج، فإن البحار يراقب تغيراتها بواسطة بيارق من الريش ولحاء النخيل ويوجه الشراع، سائراً على خط وفق المعطيات التي تلقاها عند مراقبة البحر. وفي الليلة الصافية يقود السفينة على هدي النجوم، وهذا بالنسبة إليه أسهل بكثير؛ لأنه بفضل النجوم العديدة لا يحدد موقع الجزر المنشودة فحسب، بل وموقع خلجان هذه الجزر التي يستطيع أن يوجه قاربه إليها مباشرة، مسترشداً بالنجمة التي ترتفع أو تبزغ فوق الخليج. وهو يقود السفينة إلى هناك بالدقة نفسها التي يتصرف بها أمهر ملاح من الشعوب المتحضرة"(١٧).

في عام ١٧٧٧ كتب جيمس كوك الذي زار جزر تونغا: "كانت القوارب المحلية تستطيع اجتياز سبعة عقد أو أميال في الساعة... في خلال السفر يحدد التونغيون الطريق بالشمس نهاراً، وبالنجوم ليلاً، وحينما تكون رؤيتهما متعذرة يسترشدون بالاتجاه الذي تهب منه الريح أو تنطلق منه الأمواج إلى القارب. وإذا كان الليل معتماً وكانت الريح والأمواج تغير اتجاهها... يضل الناس ولا يستطيعون العثور على الميناء المنشود وغالباً ما يضيعون بلا أثر"(١٨).

وعلاوة على ذلك، كان الأوقيانوسيون يتمتعون عند الملاحة الساحلية بإمكان الاهتداء وفق سمات مستعصية على اعضاء حواس الأوروبيين: وفق الروائح ولون الماء ولمعان السماء والغيوم فوق الجزر المختبئة وراء الأفق إلخ.

ولكن في عرض البحر، بعيداً عن الأرض، كان الأمر يتطلب وسائل وأساليب مغايرة للاهتداء. "تكمن معرفة مبادئ الفلك في أساس فن الملاحة عند الربابنة الأوقيانوسيين، القباطنة الحقيقيين للرحلات البعيدة، كما عند ملاحي البلدان الأخرى. في جزر بولينيزيا كانت هذه المعارف في حالات ليست بالنادرة حكراً لهذه العشائر أو تلك من علية المجتمع، وكانت تنتقل بالوراثة. درس الأوقيانوسيون على نحو رائع السماء المرصعة بالنجوم، وكانوا يعرفون العديد من الكواكب... وقدرة الأقيانوسيين على الاهتداء في عرض البحر لم يكن من النادر أن تبدو للأوروبيين أمراً عجيباً، غامضاً، بيد أنه لا توجد أية معجزة هنا. كان البحارة الأوروبيون والأمريكيون في القرن الثامن عشر، وبعده بزمن طويل يحددون موقعهم في البحر بواسطة أدوات يصوبونها إلى الأجرام السماوية، أما الأوقيانوسيون، الذين لم تكن عندهم مثل هذه الأجهزة، فكانوا يعينون موقعهم "بالعين" بواسطة المراقبة البصرية للكواكب نفسها.

كان الأوقيانوسيون يعرفون على نحو رائع اتجاهات الرياح التي تهب في المحيط الهادئ باستمرار، وكذلك التيارات، ومن بينها التي تجري تحت الماء. ولاحظوا منذ أقدم الأزمنة ان اتجاه الأمواج في أرجاء شاسعة من المحيط يبقى بلا تغير تحت تأثير الرياح الثابتة الاتجاه. وكان الربابنة يحرصون بانتباه على أن تبقى مقدمة السفينة دائماً على زاوية معينة مع هذا الاتجاه. ولم تكن السفينة تضل خط سيرها المقرر..."[١٩].

وكان البولينيزيون، الذين ألفوا المحيط المترامي الأطراف، ملاحين اختصاصيين في الأرصاد الجوية ويتمتعون بسليقة بحرية حقاً.

يكتب الفرنسي جوردين: "كان الكثيرون من سكان تاهيتي، لا الصفوة وحدها، يعرفون كل شيء تقريباً عن طابع البحر، وطول الأمواج واتجاهها، وقوة الرياح وتغيرها طبقاً للفصل، ويحسنون التنبؤ بحالة الجو بدقة"[٢٠].

كان عند البولينيزيين قبل العصر الاستعماري شتى الأجهزة للملاحة، وللأسف لم يصلنا في المصادر إلا ذكر واحد منها فقط كان السكان المحليون يحددون بواسطته موقعهم في البحر عن طريق النجوم، وهو "القرعة المقدسة". وهذا هو وصفها نقلاً عن أريك بيشوب.

"كانت قرعة عادية قص طرفها. وعلى السطح المتكون نصف المستدير تحفر ثقوب على مسافة دقيقة بين الواحد والآخر. ثم يخرج من القرعة لبها ويصب فيها ماء إلى مستوى الثقوب. فكيف كان البولينيزيون يستخدمون هذا الجهاز؟ بغاية البساطة. كانوا يأخذون طريقهم إلى الشمال. وبعد أن يجتازوا خط الاستواء، يبحثون عن نجمة القطب التي ترتفع كل يوم إلى أعلى وأعلى فوق الأفق. كان الكهنة يعرفون أنه حينما تصل نجمة القطب إلى ارتفاع معين، تكون الزوارق عند سد جزر هاواي. وإذ يتابعون الإبحار مع الريح المواتية، يعثرون بلا خطأ على أرخبيل هاواي. في تلك اللحظة تتخذ القرعة المقدسة وضعاً أفقياً تماماً"، مما يمكن من الاسترشاد بنجمة القطب (تجري مراقبة نجمة القطب من خلال أحد الثقوب في القرعة)"[٢١].

بعد أن زار الرحالة الفرنسي الشهير لويس أنطوان دي بوغنفيل جزيرة تاهيتي (عام ١٧٦٨)، أعطى أيضاً تقديراً عالياً جداً لفن الملاحة عند البولينيزيين، فكتب في مفكرته: "لأكثر ممثلي هذا الشعب اطلاعاً... قائمتهم الخاصة بأسماء أشهر الأبراج. إنهم يعرفون الحركة اليومية، وهم يهتدون بها

في عرض البحر إبان الانتقال من جزيرة إلى جزيرة. وفي خلال هذا الانتقال... تغيب الأرض عن الأنظار تماماً. في النهار بوصلتهم الشمس، وفي الليل النجوم التي تكون دائماً ساطعة للغاية في المنطقة الإستوائية"[٢٢].

في يوليو عام ١٧٦٩ جرى في خليج ماتافائي (جزيرة تاهيتي) اللقاء الشهير بين كوك وتوبيا، وهو من عائلة بحارة بولينيزيين مشهورين (من جزيرة راياتيا) اضطر منذ أيام شبابه إلى مغادرة وطنه؛ بسبب هجوم الأعداء، والإقامة في الأرض التاهيتية. بعد أول لقاء طلب توبيا من القبطان أن يأخذه معه إلى إنكلترا. وافق كوك، ولم يندم على هذا أبداً. هكذا بدأ التعاون الإبداعي (القصير، والحق يقال. لأن توبيا مات في عام ١٧٧٠ بالحمى الاستوائية، حينما كانت الفرطاقة الإنكليزية راسية في جاكارتا، أندونيسيا) بين الأوروبي والبولينيزي الذي جلب نتائج علمية لها وزنها.

قبل كل شيء وضع توبيا لكوك خارطة خاصة لأوقيانوسيا عين عليها أربعاً وسبعين جزيرة مع الإشارة إلى نقاطها البوصلية وبعدها عن جزيرة تاهيتي. يمكن الحكم على دقتها انطلاقاً من واقعة واحدة: بعد يومين على مغادرة "أنديفر" لتاهيتي عثر الإنكليز في أرخبيل "المجتمع"، مسترشدين بخارطة توبيا، على أربع جزر جديدة لا يعرفونها.

يكتب كوك نفسه لاحقاً: "حدثنا توبيا بأن رياحاً غربية مصحوبة بالمطر تسود في هذه المناطق على امتداد نوفمبر وديسمبر ويناير، ولما كان السكان المحليون يعرفون جيداً كيف ينبغي استخدام هذه الرياح لأغراضهم، فليس من الصعب عليهم أن يبحروا في مختلف الاتجاهات ويمارسوا التجارة"[٢٣].

تعزز النصر النهائي لفن الملاحة عند البولينيزيين بعد أن قاد توبيا، بناء على وعده، مركب كوك إلى جزيرة روروتو (خيتروا) الواقعة على بعد ٣٥٠ ميلاً جنوب غربي تاهيتي. كان الأفق الجغرافي العام للملاح البولينيزي يمتد ما لا يقل عن ١٠٠٠ ميل. ولم يكن أبداً الوحيد من نوعه. فقد تحدث الأوروبيون في القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر عن أسماء أخرى للعارفين المحليين من أمثال تومائي وكادو وروما-تاني.

نحن نعرف من المصادر التاريخية والأساطير أن أسطولاً كاملاً من القوارب البحرية الكبيرة غادر بولينيزيا الشرقية وقطع بسلام ٢٠٠٠ ميل من المحيط ووصل إلى شواطئ نيوزيلاندا نحو عام ١٠٠٠ ب.م، مرسياً أساس استيطان البولينيزيين للجزيرة، فهل ثمة من ضرورة للمزيد من البراهين المقنعة على فن البولينيزيين الذي لا يشق له غبار في الاهتداء وسلوك الطريق الصحيح في أرجاء المحيط المترامية الأطراف؟

ومع ذلك يوجد إلى الآن أناس لا يؤمنون بالامكانيات الكافية الكبيرة للملاحة القديمة لدى سكان أوقيانوسيا. منذ زمن قريب نسبياً ظهر في العلم فجأة نقاش حول مسألة تبدو بريئة: هل تعتبر رحلات البولينيزيين لاكتشاف واستيطان أراض جديدة أمراً مقصوداً أو عرضياً؟ ولكن سرعان ما اتضح أن هذه القضية لا تحمل طابعاً أكاديمياً فقط، إذ إن بعض العلماء، وقد ركزوا على تغلب "الاكتشافات العرضية" في خلال استيطان البولينيزيين القدماء لجزر الجزء الجنوبي من المحيط الهادئ، شككوا عملياً في قدرة البحارة المحليين على القيام برحلات طويلة في أرجاء المحيط.

عبر عن هذه الآراء على أكمل نحو في كتاب العالم النيوزيلاندي أندريو شارب "رحلات قديمة في المحيط الهادئ"[٢٤].

حسب فكرة هذا المؤلف، تم استيطان بولينيزيا أساساً عن طريق ما يسمى بالرحلات "بلا عودة"، أي قام بها رحالة غير قادرين على أن يحددوا الطريق الذي اجتازوه ويعودوا أدراجهم حتى وإن أرادوا ذلك. ولا ينطوي على أهمية خاصة كونهم انطلقوا في طريقهم الطويل عن قصد أو غير قصد. كانوا جميعاً، طريدين أو ملاحين أو مضطرين إلى الانسياق مع التيار أو مهاجرين طوعاً، لا يستطيعون الإبحار إلا في اتجاه واحد. وطبيعي أنه كان يجري أيضاً إبحار في اتجاهين، ولكن بين الجزر القريبة فقط التي تبعد إحداها عن الأخرى مسافة ١٥٠ ميلاً (فيما بعد زاد شارب هذه المسافة إلى ٣٥٠ ميلاً). وأكد شارب كذلك أن البولينيزيين لم يكونوا يحسنون تعيين خط الطول، وحساب الانزياح الناجم عن التيارات المائية، التي تبلغ سرعتها ٤٠كم في اليوم، أو الرياح. وبتعبير آخر، لم يكن أي بحار بولينيزي يستطيع تعيين موقعه في البحر بعد عدة أيام من الإبحار في مياه مجهولة[٢٥].

لقي هذا النيوزيلاندي دعماً حاسماً من الآثاري أكربلوم الذي حاول البرهان بحماسة كبيرة على أن حساب خط الطول والانزياح الناجم عن الريح والتيارات كان مهمة فوق طاقة البولينيزيين؛ ولم يكونوا أيضاً يستطيعون، على حد قوله، تعيين خط العرض بواسطة النجوم.

ينبغي أن نضيف إلى هذا أن الرحالة النروجي المعروف هيردهل يحاول، ضمن السياق العام للدفاع عن فرضيته حول استيطان بولينيزيا، وعدم انبثاق ثقافتها من الغرب، بل من الشرق، من أمريكا، البرهان على استحالة الرحلات الطويلة إلى بولينيزيا وما بعدها من الغرب إلى الشرق؛ لأن الرياح والتيارات السائدة هناك تمنع ذلك[٢٦].

بيد أنه لا تمكن الموافقة على هذه الآراء بشكل من الأشكال.

لقد أوردنا قول توبيا في صدد معرفة السكان المحليين الإبحار في وقت معين من السنة من الغرب إلى الشرق أيضاً، ويمكن كذلك التأكيد بصورة محددة تماماً أن استيطان بولينيزيا لم يجر أبداً من قبل طواقم القوارب التي انساقت مصادفة إلى أرجاء المحيط.

نعم، لقد بين هردهل بالفعل منذ سنوات كثيرة أن الانسياق إلى بولينيزيا ممكن من الشرق بالذات. التيارات المنطلقة إلى الشمال والجنوب من خط الاستواء تتحرك هناك من الشرق إلى الغرب بسرعة تصل إلى ٤٠ كم في اليوم، ولكن ينبغي تذكر أنه يوجد أيضاً تيار مضاد ينطلق في الاتجاه المعاكس، وإن كان ذلك في شريط ضيق جداً، أي بين خطي العرض ٤ و١٠ شمالي خط الاستواء. وتهب كذلك الرياح الثابتة من الشرق إلى الغرب في الغالب، مع أنه تحل مكانها أحياناً في أواخر الصيف، وفي الخريف رياح غربية. تضع الطبيعة فعلاً حواجزها الخفية على طريق الرحلات من الغرب إلى الشرق.

ومع ذلك، تتلخص مفارقة الوضع، كما يؤكد العديد من الوقائع، في أنه تم استيطان بولينيزيا من الغرب على وجه التحديد، لا من الشرق، أي رغم الرياح والتيارات السائدة، والانسياق الطبيعي إلى أية نقطة من "المثلث البولينيزي" من أية جزيرة تقع خارجه أمر مستحيل تماماً؛ نظراً للأسباب الطبيعية إياها. وبالتالي، انطلق الأسلاف الشجعان للبولينيزيين إلى "بلاد إقامتهم" المقبلة عن وعي وضد التيار، وفي مواجهة الرياح بزاوية مقدارها ٩٠ درجة. كان يبدو أنه لم تكن توجد بالنسبة إلى البحارة البولينيزيين حواجز طبيعية، ولا مسافات بعيدة.

لقد تحدثنا عن استيطان نيوزيلاندا من قبل البولينيزيين الذين عاموا ٢٠٠٠ ميل لهذا الغرض. ولكن هذا، كما اتضح، لم يكن الحد الأقصى للزوارق السريعة المحلية. جاء في أغنية للبحار البولينيزي كاخو - كورا:

"أوجه مقدمة كنوي

إلى الباب الذي سيظهر فيه إله الشمس.

توما - نوي - تي - را، يا بن الشمس العظيم،

لا تتركني أضل الطريق،

وجه شراعي إلى أرض الوطن.

هبَّ، بمزيد من القوة، تافخيري - ماتيا، يا إله العواصف!

اجعل الريح الغربية تثور لتدفعنا إلى الأمام، على الطريق البحري إلى وطننا غافائيكا.

أغمِض، أغمِض عينك التي تنظر إلى الجنوب؛ لكي تستطيع ريحك الجنوبية أن تغفو"[٢٧].

هذا بالذات ما كان في الحياة الفعلية: كان البحار البولينيزي، إذ يوجه مقدمة كنوه إلى الأراضي المغرية الجديدة، لا يتكل على رحمة الآلهة الجبابرة، أسياد عوامل الطبيعة فحسب، بل وعلى معارفه الرائعة لحياة البحر، وقوانين الملاحة. وفي أحد الأيام وجهت مقدمة الزورق البولينيزي إلى الشرق بعيداً عن الوطن إلى درجة أنه حدث ما لم يكن في الحسبان، فالتقى لأول مرة في المناطق الجنوبية الدافئة ممثلو العالَمين القديم والجديد.

بولينيزيا وأمريكا الجنوبية

في الوقت الحاضر لن ينكر أي عالم جدي أنه وجدت قبل كولومبس بزمن طويل صلات فعلية بين سكان بولينيزيا وأمريكا الجنوبية، على الرغم من أرجاء المحيط الشاسعة التي تفصل بينهما. وعلى هذا النحو، فإن هذا، إلى جانب الفيكنغ الذين أتينا على ذكرهم، هو الحالة الفعلية الثانية للاتصالات عبر المحيط بين العالمين القديم والجديد في عصر ما قبل كولومبس.

بيد أن هذا الاستنتاج لا يقوم عملياً إلا على واقع واحد لا شريك له: وجود النبات الأمريكي الجنوبي، البطاطا الحلوة (Ipomea batatas) في بولينيزيا في الألف الأول، وبداية الألف الثاني بعد الميلاد[٢٨]. من المعروف أن مناطق الأند الجبلية أو، بتعبير أدق بوليفيا وبيرو، هي وطن البطاطا. لا تستطيع درنات البطاطا البقاء على سطح البحر، بل تغرق. ومن الطبيعي أن يستنتج من هنا أن البطاطا حملها إلى هناك إنسان قطع المحيط الهادئ في أعرض أجزائه وأوحشها، إلى الجنوب قليلاً من خط الاستواء. ولكن من هم هؤلاء البحارة المقاديم؟ هل هم البولينيزيون أو سكان المناطق الساحلية لأمريكا الجنوبية؟

يأخذ أغلب العلماء في الاعتبار ما كان يتمتع به البولينيزيون من فن رفيع في الملاحة، فيعتبرون بلا تردد انهم بالذات المبادرون إلى الاتصالات عبر المحيط. يكتب المؤرخ غولنت: "أُلّفت عن الكثير من البحارة البولينيزيين حكايات وأساطير، وقد عاشت ذكراهم، وتعيش عبر العصور. بيد أن

أبرزهم بقي مجهولاً. نحن لا نعرف ما هو اسمه؟ ومتى عاش؟ ولكن يستحيل التشكيك بالمأثرة العظيمة لكولومبس البولينيزي. للاقتناع بهذا لا ضرورة إلى دراسة الفولكلور والبحث في الظروف الميتيورولوجية والهيدرولوجية، بل يكفي القيام في إحدى جزر بولينيزيا بتذوق البطاطا المغذية اللذيذة التي توجه أخلاف البحارة الذين استوطنوا هاواي ونيوزيلاندا إلى وطنها القديم لجلبها"[٢٩].

يؤيد وجهة النظر هذه أيضاً الأثنوغرافي المعروف كنوروزوف. يكتب قائلاً: "كان لا بد للبعثات البولينيزية، طبعاً، أن تصل إلى ساحل أمريكا، مستقرة، على الأرجح، في جزر أرخبيل مركيز. ثمة في بولينيزيا مواسم تهب فيها رياح غربية قوية. وبالإضافة إلى ذلك، كانت البعثات تفضل السير ضد الرياح الشرقية التجارية السائدة عادة؛ لكي تستطيع في حالة نفاد مؤونة الطعام العودة بسرعة مع الريح المواتية، ومن المستبعد أن شواطئ أمريكا الكثيفة بالسكان نسبياً كانت تصلح لتأسيس مستوطنات هناك، ولعل الاتصالات اقتصرت على البعثات الاستطلاعية وحدها، وكان البولينيزيون، إذ يتزودون على الشاطئ الأمريكي بمؤونة الطعام، يحملون معهم النباتات الزراعية المحلية من هناك. لقد وصلت بطاطا بيرو الحلوة - كومار - إلى بولينيزيا بالتسمية ذاتها (كومارا - المؤلف)، مما يشهد على اتصالات البولينيزيين المباشرة بالسكان المحليين... كان أنسب طريق إلى الشرق بالنسبة إلى البولينيزيين يمر على مقربة مباشرة من خط الاستواء، بين التيارين الاستوائيين الشمالي والجنوبي المتقابلين، حيث يظهر التيار الشرقي المعاكس للتيار الاستوائي، وإن كان تياراً لا يعول عليه. بيد أن البولينيزيين كانوا يستطيعون، إذ يعودون إلى جزرهم، أن يعوموا إلى الجنوب بمحاذاة

الشاطئ الأمريكي حتى خط عرض مدينة ليما تقريباً؛ ليستخدموا التيار الاستوائي الجنوبي المواتي المعروف لهم جيداً"[٣٠].

يفترض تي رانغي خيروا (بيتر باك)، الخلف المباشر للبحارة البولينيزيين أن البعثة البحرية (لجلب البطاطا) توجهت على الأرجح إلى شواطئ أمريكا من جزر مركيز. تبلغ المسافة من هذا الأرخبيل إلى ساحل بيرو الشمالي نحو ٤٠٠٠ ميل. وكانت زوارق البولينيزيين تسير مع الريح المواتية بسرعة تصل إلى سبعة أميال في الساعة وسطياً، وفي هذه الحالة كان عليها لكي تصل إلى شاطئ بيرو أن تسير حتى ثلاثة أسابيع أو أكثر بقليل. كانت تستطيع القيام بهذا أية بعثة على زورق شراعي مزدوج كبير، ومن باب أولى على زورقين أو ثلاثة.

وكما يعتبر تي رانغي خيروا، قابل البولينيزيون عقب النزول على ساحل بيرو مباشرة أناساً غرباء جداً لا يشبهونهم من نواح كثيرة، وهم الهنود الحمر. كان القادمون متخلفين عن السكان الأصليين سواء في المعدات أو في الأفراد. ولهذا لم يخض البولينيزيون اشتباكاً مكشوفاً مع الأعداء الكثيرين، وسرعان ما استقلوا مراكبهم، وعادوا أدراجهم، إلى الوطن، ومهما كان المكان الذي انطلقت منه هذه البعثة إلى المحيط، فإنها عادت ولا شك إلى جزر مركيز، حاملة معها البطاطا الأمريكية الجنوبية بمثابة جائزة على مراسها وجرأتها، ثم انتشرت البطاطا الحلوة في كل بولينيزيا، بما في ذلك جزيرة الفصح[٣١].

حتى تور هيردهل الشهير، الذي يذود عن رواية أخرى تماماً لتاريخ بولينيزيا، يعترف بإمكان قيام سكان الجزر بالوصول إلى ساحل بيرو في

عصر قمة ازدهار فن الملاحة عندهم، أي نحو القرن الثالث عشر ب.م. إذ إن المسافة التي تقطعها هذه السفن كانت تمكنها من اجتياز ما يربو على ٢٠٠٠ ميل (هاواي - تاهيتي ذهاباً وإياباً، بولينيزيا الشرقية - نيوزيلاندا إلخ). ولكن البحار النروجي يعتبر أن كولومبس البولينيزي المجهول توجه إلى أمريكا من جزيرة الفصح التي تفصلها عن العالم الجديد أقصر مسافة، أي نحو ٢٠٣٠ ميلاً. يقول: "ليس من الممكن فحسب، بل ومن المحتمل جداً أن بعض سفن البولينيزيين الشراعية استطاعت الوصول إلى شواطئ أمريكا الجنوبية"[٣٢].

بيد أن أغلب الاختصاصيين يفضلون اعتبار جزر مركيز، لا جزيرة الفصح، قاعدة انطلاق لرحلة البولينيزيين الكبرى إلى العالم الجديد.

ثمة بالمناسبة تقدير فرضي للتأريخ التقريبي لهذه الرحلة الفريدة إلى مسافة تربو على ٤٠٠٠ ميل. أوضح عالم نيوزيلاندي أن البطاطا كانت تزرع في منطقة بونتا غرنديه (بيرو)، حسب معطيات التحليل الكربوني الإشعاعي، منذ نحو عام ٢٥٠٠ ق.م. وفي مستهل الألف الثاني ق.م تقريباً ظهر هناك صنف قليل المردود وبدائي من الذرة (التسمية الهندية – مائيس (Zea mays)).

في أواسط القرن الثامن عشر ب.م جرت تغيرات كبرى في زراعة سكان بيرو القدماء: صاروا يزرعون أصنافاً جديدة، عالية المردود من الذرة المهجنة. يصعب، عند المحاكمة المنطقية، افتراض أن البولينيزيين، وقد وصلوا إلى شواطئ بيرو، اقتبسوا من السكان المحليين البطاطا الحلوة وحدها، ولم يعيروا أي انتباه للأكواز الذهبية الكبيرة من "الحبوب الأمريكية"، أي المائيس، وهذا معناه أن الرحلة جرت قبل القرن الثامن ب.م، وليس

في القرن الثالث عشر بحال من الأحوال، ويؤكد هذا العالم أن البعثة إلى أمريكا لم تنطلق من جزر مركيز، بل من بولينيزيا الغربية؛ لأن استيطان بولينيزيا الشرقية لم يبدأ إلا في عام ٩٥٠ ب.م) [٣٣].

كرس العالم والرحالة أريك بيشوب سنوات كثيرة من حياته لدراسة أسرار المحيط الهادئ بواسطة مختلف أنواع التجارب الجريئة، وحتى إنه مات على طوف "تاهيتي- نوي ٢" في عرض المحيط عند عودته من بيرو. وكان عمره أقل من سبعين سنة بقليل.

ابتداء من عام ١٩٣٢ انطلق غير مرة إلى عرض المحيط على جنوك وقوارب شجرية، وكاتامارانات من صنعه. كان بيشوب بعد كل حادث لأحد مراكبه (وقد تعرض البحار المقدام لكثير من هذه الحوادث) يصلح ويرمم سفنه البالية، ويعدها لرحلة جديدة. وفي غضون تلك السنوات سمع وزملاؤه من النصائح والملاحظات الانتقادية ما جعلهم يسمرون في ترساناتهم المرتجلة هذه الملصقة: "نعرف أنكم تعتبروننا مجانين. نرجو ألا تحاولوا البرهان على هذا" [٣٤].

وضع أريك بيشوب أمامه مهمة دراسة التيارات الاستوائية في المحيط الهادئ التي لم تدرس في السابق إلا قليلاً، وذلك لبعث ظروف رحلات البولينيزيين القدماء، ومع أنه لم يكتب عن رحلاته إلا قليلاً، فإنها لا تقل في شيء من حيث جرأة الفكرة والأهمية العلمية عن رحلة تور هيردهل على طوف "كون- تيكي". عرض بيشوب مرة أخرى في كتابه الأخير "إلى نوسنتارا"، وعلل من كل الجوانب الفرضية القائلة بأن البولينيزيين وصلوا في عملية استيعاب المحيط الهادئ إلى شواطئ أمريكا.

يكتب أريك بيشوب: "تحول البولينيزيون إلى كائنات برمائية من نوع خاص، وهذه الظاهرة فريدة في تاريخ البشرية بأسره. تكفي قراءة بعض من أساطير البولينيزيين وخرافاتهم حتى يصبح مفهوماً على الفور أن أبطالهم يعملون في بيئة جغرافية خارقة. إنهم لا يخوضون الصراع ضد الغيلان البرية الأسطورية، بل ضد أسماك القرش العملاقة والسلاحف البحرية، ضد ثعابين الماء المتعطشة إلى الدماء والتريداكنا العملاقة التي تبتلع سفناً كاملة بطواقمها"[٣٥].

أنجز أريك بيشوب تجاربه التي استمرت سنوات كثيرة في المحيط الهادئ برحلة جريئة وناجحة على طوف خيزراني من جزيرة تاهيتي في بولينيزيا إلى شواطئ تشيلي. وكان هدف هذا التدبير الخارق بفكرته يتلخص في البرهان على أن البولينيزيين وصلوا إلى أمريكا الجنوبية، خلافاً لتأكيدات تور هيردهل القائلة بوصول الهنود الأمريكيين إلى جزر بولينيزيا.

أيد فرضية العالم علماء كبار مثل نردنسكيولد، ودكسن، وريفي، وتي رانغي خيروا (بيتر باك)، وإيموري وغيرهم.

أبحر بيشوب من تاهيتي على عوامته الهشة المصنوعة من الخيزران، وتحرك يدفعه تيار موات على امتداد خط العرض ٣٥ درجة جنوبي خط الاستواء إلى الشرق. كان ينوي الاستفادة من تيار هومبلدت، فتوجه إلى الشرق ووصل إلى شواطئ بيرو، أما في طريق العودة فكان يجب أن يساعده التيار شبه الاستوائي الذي استخدمه بنجاح طاقم الطوف البلزي "كون- تيكي".

استمرت "أوديسة" أريك بيشوب أكثر من سنة، وفي غضون هذه الفترة ذاق مرتين كل أهوال السفر في المحيط. في الطريق إلى ساحل أمريكا

تشرب طوفه الخيزراني الماء إلى درجة أنه بدأ يغرق، وتسنى لبيشوب ورفاقه النجاة على بعد ٦٠٠ ميل عن ساحل تشيلي، والأمر نفسه حدث للعوامة المصنوعة من خشب البلزا عند عودته من أمريكا، ومع ذلك استطاع أريك بيشوب أن يصل في نهاية المطاف إلى جزر بولينيزيا.

وعموماً، فإن بيشوب، على الرغم من كل إخفاقاته، لم يبين برحلته المزدوجة هذه في المحيط الهادئ الوسائل التي استخدمها البولينيزيون في رحلاتهم البحرية البعيدة فحسب، بل بين أيضاً طرق سيرهم المحتملة أكثر من غيرها. يقول في كتابه "تاهيتي - نوي": "تتلخص الميزة الرئيسة لنظريتي عن النظريات السابقة في أنني لم أشر إلى الطريق الذي سار عليه البولينيزيون القدماء فحسب، بل وإلى وسيلة النقل التي استخدموها في رحلاتهم البحرية الطويلة، كانوا ينحدرون نحو الجنوب بزاوية قدرها ٤٠ درجة تقريباً، حيث تهب عادة رياح قوية غربية، وحينما يصبحون على مقربة مباشرة من أمريكا الجنوبية، يتلقفهم تيار هومبلدت ويحملهم إلى شواطئ بيرو مباشرة. ومن هناك كانوا يستطيعون العودة بسهولة إلى بولينيزيا عبر البحر. كانت الرياح التجارية والتيارات الشرقية السريعة مساعداً أميناً لهم"[٣٦].

وعلى هذا النحو، يعتبر بيشوب أن البحارة البولينيزيين الشجعان قاموا مراراً منذ القدم برحلات من أوقيانوسيا إلى أمريكا الجنوبية وبالعكس، ولهذا مارسوا تأثيراً مهماً في مختلف مجموعات الهنود الحمر. وأثر السكان المحليون بدورهم بشكل من الأشكال في القادمين من الغرب، من أرجاء المحيط.

يمكن أن نورد أيضاً معلومات ممتعة أخرى عن اتصالات البولينيزيين بسكان أمريكا الجنوبية، وهذه المعلومات من نوعين: ميثولوجية (الحكايات الشعبية الشفهية) وآثارية.

وهكذا، توجد في جزر مركيز أسطورة عن القارب المزدوج الكبير "كخوا" الذي بناه أفراد قبيلة نائيكي من جزيرة خيفا وا. كان القارب كبيراً إلى درجة أن البحارة الذين يغرفون الماء من القعر لم يكونوا يستطيعون الوصول بمغارفهم إلى الشقوق على الجوانب، كان قسما الزورق (على شكل قاربين منفصلين) يتصلان بواسطة رصيف من الألواح عليه ظلة من سعف النخل تحتها مؤونة الطعام (عجين حامض من ثمار شجرة الخبز)، وبناء على الحكاية، أبحر هذا المركب الكبير أول الأمر إلى الشمال الغربي ليزور جزيرة نوكا خيفا، حيث يوجد للطاقم الكثير من الأقرباء بين سكان الجزيرة، ثم أقلعت السفينة من نوكا خيفا إلى الشرق بدقة إلى أن وصلت إلى ساحل بلاد أسماها البولينيزيون "تي فيتي". وطالما أن اليابسة الوحيدة إلى الشرق من جزر مركيز لا يمكن أن تكون إلا شواطئ أكوادور أو بيرو، فإن الحديث يجري هنا عن زيارة سكان أوقيانوسيا لأمريكا الجنوبية.

أقام البحارة البولينيزيون بعض الوقت في البلاد المكتشفة حديثاً، ثم عادوا إلى جزيرة خيفا وا، مبقين بعض أناسهم بين السكان الأصليين[٣٧].

ثمة حكاية شبيهة بطابعها في جزيرة راراتنغا أيضاً، وقد عرضها توماس ديفيس، وهو نصف أوروبي ونصف بولينيزي، ويعرف على نحو رائع الملاحة المحلية، والحكايات المحلية على حد سواء، وحسب قوله: توجهت في أزمنة سحيقة في القدم من جزيرة رياتيا (أرخبيل جزر "المجتمع") إلى الشرق بعثة بحرية بقيادة الزعيم ماوي مارومامَاو، مرت قوارب البولينيزيين قرب جزيرة الفصح، وسارت طويلاً في المحيط آخذة اتجاه الشرق عموماً، إلى أن وصلت إلى "بلاد السلاسل الجبلية". الأرجح

أن الحديث يجري هنا عن القمم الشامخة لجبال الأند الممتدة بمحاذاة ساحل بيرو. ما لبث ماوي أن مات، وعندئذ قاد ابنه كيو المجموعة التي بقيت بلا زعيم، واندفع بجرأة إلى أرجاء المحيط الكبير نحو الغرب، إلى جزر بولينيزيا، وطالما أن واقع العودة وارد في الحكاية، يمكن تخمين أن عدداً من الرحالة رجعوا إلى الوطن بسلام، وحدثوا أبناء قبيلتهم بمغامراتهم[٣٨].

وعندنا أيضاً مادة آثارية (وإن كان لا يُركن إليها ابداً) تؤكد وجود صلات بين البولينيزيين، وسكان أمريكا الجنوبية قبل كولومبس. وهكذا فقد دُمِّر مصادفة في بيرو قبران قديمان كانت فيهما مجموعة أشياء مميزة لبيرو بينها لوازم من أوقيانوسيا، وهي عبارة عن هراوتين قتاليتين "باتو" مصنوعتين من نوع متين جداً من الخشب، ومدببتين في الطرف بشكل يمكن معه ضرب العدو وطعنه على حد سواء.[٣٩].

والمواد البولينيزية البحتة التي عثر عليها مصادفة في ساحل جنوب أمريكا تقتضي كذلك اهتماماً من الباحثين. وأطرفها رؤوس الرماح السبجية، "الماتا" النموذجية بالنسبة إلى جزيرة الفصح التي اكتشفت وفرة منها على ساحل تشيلي، وهذا الواقع مهم بحد ذاته، طبعاً، ولكن يعرب أيضاً عن شكوك كبيرة في صدد إمكان الثقة بهذا النوع من اللقيات، وفحوى الأمر أن أناساً كثيرين، ممن زاروا جزيرة الفصح في نصف القرن الأخير أخذوا معهم "للذكرى" رؤوس "الماتا" السبجية، وحملوها إلى القارة، وهنا يمكن أن يظهر شتى الاحتمالات والحالات: بعض الرؤوس وصل مصادفة إلى أراضي المستوطنات والمدافن الهندية القديمة، وبعضها قذف به عمداً في هذه الأماكن بهدف تزوير الاستنتاجات التاريخية.

والأمر نفسه ينطبق على الفؤوس الحجرية المتشابهة ظاهرياً على نحو مدهش في بولينيزيا وتشيلي. يشير مثلاً الأثنوغرافي الأرجنتيني المعروف خوسيه أمبليوني إلى أن هذه الفؤوس تستخدم بين سكان أمريكا الجنوبية الأصليين في مراسم خاصة، وتسمى عند الهنود التشيليين "توكي"، ولكن للفؤوس الحجرية في أوقيانوسيا أيضاً تسميات مشابهة: "توكي" في جزر مركيز، "تو- اي" في تاهيتي، "كو- اي" في هاواي[٤٠].

وهكذا، فمن المستبعد أن يمكن الشك الآن في أن البحارة البولينيزيين المقاديم قطعوا مراراً قبل اكتشافات كولومبس بأمد طويل الجزء الشرقي لأكبر محيط في كوكبنا، ونزلوا على ساحل أمريكا الجنوبية. ولا يمكننا إلا أن نخمن مجرد تخمين نتائج هذه "الزيارات" مع أنه من المستبعد أنها مارست أي تأثير ملحوظ في تطور ثقافة الهنود الحمر أو سكان بولينيزيا.

نظرة من الجانب المقابل

بيد أنَّ أفكار أريك بيشوب لم تحظ باستقبال حماسي من جانب كل العلماء، ومن باب أولى من جانب كل الأوساط الاجتماعية.

أولاً: في العقود الاخيرة تبين بوضوح، مما أثار دهشة الخبراء، أن سكان المناطق الساحلية في أكوادور وتشيلي وبيرو لم يكونوا مبتدئين في فن الملاحة. فقد عثر في الأرشفات على شهادات للغزاة الإسبان الأوائل الذين رأوا عند الهنود المحليين أطوافاً بلزية ضخمة للرحلات البحرية البعيدة ذات أشرعة، ونظام معقد لدفات القيادة، "غوار". وثمة إشارات مباشرة أيضاً إلى أنّ سكان بيرو القدماء قاموا مراراً برحلات استطلاعية بحثاً عن أراض جديدة سواء بمحاذاة الساحل الأمريكي، أو في الاتجاه الغربي، إلى عرض البحر[٤١].

أنا لا أتكلم عن الحالات الطارئة أو الاضطرارية التي كانت تحدث دائماً زمن الزوابع والعواصف الاستوائية الهوجاء. يكتب كنوروزوف: "لم تكن القوارب والأطواف الهندية التي تقذفها العاصفة إلى المحيط تستطيع الوصول إلى الساحل الآسيوي بأي شكل من الاشكال (إلا في ظروف استثنائية). كان يجب أن تنساق من شواطئ أمريكا الشمالية إلى الجنوب، ومن شواطئ أمريكا الجنوبية إلى الشمال، حتى المنطقة الاستوائية، ولكن في كلتا الحالتين كانت الرياح والتيارات الاستوائية تستطيع حملها إلى بولينيزيا

أو حتى أبعد، حيث يتحطم الناجون على صخور الجزر، أما الركاب الباقون على قيد الحياة فيستقبلهم "بسرور" أكلة لحوم البشر المحليون..."[٤٢].

ونملك أيضاً شهادات وثائقية على رحلات محددة لسكان بيرو في عصر الأنكيين بعيداً في المحيط، إلى أراضٍ وجزر مجهولة. يتحدث كاتب الأسفار الإسباني خوسيه دي أكوستا، مستنداً إلى معلومات تلقاها من هنود مدينة أريكا، عن رحلة "إلى الجزر الغربية".

ليس معروفاً في هذه القصص من سافر ومتى ولاية أغراض؟ الحديث يجري، كما يبدو، عن إحدى الحالات الاستطلاعية في عصر الأنكيين. ومع ذلك يعتبر بعض الاختصاصيين أن المقصود هنا جزر محددة تماماً في المحيط الهادئ: سالا - اي - غومس والفصح ومنغاريف[٤٣].

في أواخر القرن الخامس عشر نظم الأنكي توباك يوبنكي بعثة استقصائية لم يعهد لمقاييسها مثيل إلى مناطق المحيط الواقعة إلى الغرب من بيرو. أبحر من منتا في اكوادور على مئات الأطواف البحرية الكبيرة التي كانت تقل حتى ٢٠ ألفاً من البحارة والجنود. قاد الأسطول تلكا يوبنكي، أخو الأنكي الأعلى، استمرت البعثة سنة كاملة. وتشير الأسفار الإسبانية إلى أن البحارة وصلوا إلى جزر أطلق عليها الأنكيون تسميات غريبة : أفا- تشمبي وخغوا- تشمبي ونينا- تشمبي ("الجزيرة النارية"). اتضح أن الجزر كانت مأهولة، ولكنها لم تكن تحتوي على أي شيء يجذب القادمين، ولهذا عاد سكان بيرو إلى شواطئهم، بعد أن قبضوا على عدد من السكان المحليين "السود" بمثابة أسرى. يضع مختلف المؤلفين على نحو متباين هذه الجزر على الخارطة الجغرافية المعاصرة، وهكذا يعتبر بول ريفيه وتور هيردهل أن أفا- تشمبي هي جزيرة منغاريف، ونينا- تشمبي هي جزيرة الفصح[٤٤].

بعد هذه الحادثة لم تجهز، على ما يبدو، بعثات إلى بولينيزيا.

وثمة أيضاً براهين مادية على هذه الرحلات في المحيط، وقد حصلت عليها البعثة الآثارية النروجية برئاسة هيردهل في جزر غالاباغوس التي تقع على بعد ١٠٠٠ كم تقريباً إلى الغرب من أكوادور. اتضح أن هذه الجزر، المقفرة وغير المأهولة، قد زارها البحارة من الهنود الحمر مراراً ابتداء من القرنين الثامن والتاسع وحتى الاستيطان الأوروبي. عثر هناك على كسارات من السيراميك القديم لكل الأصناف الأساسية تقريباً من الآنية المصنوعة في أكوادور وبيرو على امتداد الفترة المشار إليها (أعوام ٨٠٠-١٥٣٠). وفي الوقت نفسه لم يعثر هناك على أي شيء يشهد على وجود أناس في الجزر قادمين من الغرب، من بولينيزيا[٤٥].

وثمة أيضاً تصورات مهمة أخرى. منذ ١٨٠ سنة أصدر الكاهن الإسباني خواكين مرتينس دي سنييغا كتاباً عن الفيليبينيين أعرب فيه لأول مرة أنهم وسكان بولينيزيا كافة لا يرجعون بأصلهم إلى آسيا، بل إلى أمريكا. وبمثابة برهان أورد القس الواسع الاطلاع جداً بضع كلمات متشابهة من مفردات البولينيزيين والهنود الأمريكيين إلا أن العثور عليها لم يكن صعباً؛ لأنه يوجد في العالم الجديد أكثر من ألفي لغة مختلفة، ويمكن أن تنتقى منها كلمات لها ما يشبهها ظاهرياً في أية لهجة في العالم، بيد أن "القوى السماوية والبحرية" كانت حجة سنييغا الرئيسة: كان يشير بكل السبل إلى واقع أن الإبحار من أمريكا إلى جزر أوقيانوسيا باتجاه الغرب سهل للغاية بفضل التيار الاستوائي القوي، والرياح التجارية، وفي الوقت نفسه يستحيل عملياً للسبب ذاته الإبحار من آسيا إلى الشرق مباشرة، عبر وسط المحيط الهادئ. في عام ١٨٢٧ لقي الإسباني دعماً حاسماً من المبشر الإنكليزي وليم أليس[٤٦].

وفي عام ١٨٧٠ ظهرت مقالة للإنكليزي ماركهم الذي نبه إلى التشابه الكبير بين منحوتات جزيرة الفصح الواقعة شرق بولينيزيا والتماثيل الحجرية في أمريكا الجنوبية قبل كولومبس. يكتب قائلاً: "بعد استيلاء الإسبان على البلاد، اكتشفت في تياواناكو أطلال قواعد تشبه القواعد في جزيرة الفصح التي كانت تنتصب عليها منحوتات تذكر إلى درجة معينة بمنحوتات جزيرة الفصح، وهي عبارة عن عمالقة بعيون واسعة، وبتيجان أو قبعات مخروطية على رؤوسهم، ولكن من الواضح أن التشابه ينتهي هنا لأن؛ زخارف كثيرة تغطي العمالقة الايماريين (أي الأمريكيين - المؤلف)... ولا يستبعد إمكان افتراض التشابه بين الصور الإيمارية وتماثيل جزيرة الفصح"(٤٧).

وبعد ذلك ظهرت مواد أخرى يعرب مؤلفوها عن دعم الأفكار القائلة بأصل البولينيزيين الأمريكي الجنوبي، ولكن في أواخر القرن التاسع عشر تخلى العلماء المطلعين عن هذا الرأي مع تراكم الوقائع في أرخيولوجيا وأثنوغرافيا ولسانيات المنطقة، برهن بما لا يدحض على أن استيطان أوقيانوسيا لم يجر من أمريكا، بل من آسيا، وأن البولينيزيين أنفسهم ولغتهم ومعيشتهم وثقافتهم يعودون بجذورهم إلى جنوب شرق آسيا.

كتب الباحث الفرنسي مترو في عام ١٩٤٠: "التشابه بين جزيرة الفصح وحضارة أمريكا الجنوبية خيالي وساذج إلى درجة أنني لا أعتقد أنه يستحق الاهتمام لمناقشته هنا"(٤٨).

ولكن لم يمض عقدان على قول هذه الكلمات حتى اقتضى الأمر أن يناقش من جديد التشابه "الخيالي والساذج" بين جزيرة الفصح وأمريكا الجنوبية في الأوساط العلمية، وبأكثر ما يكون من الجدية.

عكر صفو الهدوء هذه المرة نروجي شاب لا يعرفه أحد، وهو تور هيردهل. تردد بإصرار إلى دور النشر العلمية، وهيئات التحرير يطلب نشر محاكماته عن قدوم أسلاف البولينيزيين من الشرق، من الساحل الأمريكي، وجمع في كل منها حجج سابقيه، سنيبغا وأليس وغيرهما، وحلل المئات من أوجه الشبه الاثنوغرافية الأخرى بين الثقافتين، ووضع فرضية مبتكرة للغاية حول الموجة المزدوجة لاستيطان بولينيزيا من الشرق، ولكن كل هذا كان عبثاً، فلم يشأ أحد مجرد الاستماع إلى النروجي العنيد.

قال معارضوه: "عن أي هنود يمكن الحديث إذا لم تكن عندهم قبل الغزو الأوروبي أية خبرات في الملاحة، ولم تكن عندهم سفن مناسبة للانطلاق إلى عرض المحيط؟" ورد هيردهل على معارضيه: "وأطواف الأنكيين البلزية، وقوارب الصيد المصنوعة من القصب في بحيرة تيتيكاكا؟" ولكن لم يتسن له أن يقنع أحداً بصواب رأيه، وعندئذ قرر خلف الفيكنغ السكاندينافيين أن يضع على الطاولة حجته الحاسمة: أن يقوم على طوف من خشب البلزا برحلة طولها ألفا ميل من شواطئ بيرو إلى جزر بولينيزيا الشرقية.

ندد كل الاختصاصيين بهذا المسعي باعتباره عملاً طائشاً؛ لأن التجارب بينت أن خشب شجرة البلزا الجاف والخفيف يتشرب ماء البحر بسرعة ويتضخم. وكان يجب وفق كل الحسابات أن يهترئ الطوف البلزي بعد عدة أيام من السفر في المحيط.

" كون - تيكي " وألغاز جزيرة الفصح

كل ما جرى بعد ذلك يشبه المعجزة، أين ومتى في التاريخ أدت الحماسة وحدها إلى النجاح؟ رغم كل التوقعات، قرر هيردهل، وبعض السكاندينافيين الذين يشاركونه في الرأي الإبحار إلى بولينيزيا على طوف بلزي هش من تسعة جذوع قطعت لتوها على ساحل أكوادور. في ٨ نيسان عام ١٩٤٧ جرت قاطرة الميناء هذه المنشأة العجيبة، الغائرة عميقاً في الماء من خليج كلياو إلى عرض المحيط، وبدأت رحلة حافلة بالتحدي. بقيت الرياح والتيارات تهز هذه الحفنة من المقاديم ثلاثة أشهر وتسعة أيام على أمواج المحيط الهائجة إلى أن قذفت بهم أخيراً إلى الصخور المرجانية لإحدى جزر أرخبيل تواموتو.

قبل بداية هذه الرحلة الفريدة قال هيردهل: "عقدنا الأمل على اختبار إمكانات وخصائص طوف الأنكيين وصلاحيته للسفر في البحر وحمولته، واستيضاح ما إذا كان سيتسنى له - ونحن على متنه - أن يعبر المحيط بسلام وهو تحت رحمة الطبيعة، ويصل إلى بولينيزيا".[٤٩]

يمكن الآن اعتبار أن هدف الرحلة قد تحقق تماماً، ولم يرد الاعتبار تماماً إلى الأطواف البلزية لسكان بيرو القدماء فحسب، بل وإلى السفر عبر المحيط من ساحل أمريكا الجنوبية إلى الغرب، إلى جزر أقيانوسيا. كان ذلك نصراً للأثنروغرافي المبتدئ الشاب، ولكنه كان في الوقت نفسه نصراً

لإنجازات سكان بيرو القدماء المنسية منذ زمن بعيد. ما كان يعتبر سابقاً ثرثرة فارغة وخيالاً جامحاً (الحديث يجري عن الرحلات البحرية البعيدة لهنود أكوادور وبيرو على أطواف من البلزا وعن اتصالهم الممكن بعالم الجزر البولينيزية) أخذ يتحول على مرأى العين إلى حقيقة واقعة!

وبعد أن اطلع ملايين القراء في العالم بأسره، حابسين أنفاسهم، على كتابَي هيردهل الشهيرين "رحلة في "كون- تيكي" و"أكو- أكو"، اللذين يصفان مغامرات النروجي في المحيط الهادئ، تجاوزت الحماسة الشاملة كل الحدود. وصارت موضعاً للثقة كل أقوال هيردهل "الذي برهن بالأفعال" على صحة فرضياته، ووصم "العلماء المكتبيين" بالخزي.

بيد أن هذا الدعم كان من جانب الرأي العام والجمهور الواسع، ولم يكن أبداً من جانب الاختصاصيين، فهؤلاء الأخيرون، وقد تمالكوا أنفسهم بعض الشيء، شددوا مجدداً وبحدة في الصحافة من انتقاد آراء هيردهل في استيطان بولينيزيا. واقتضى الأمر التذكير بأن تجربة بروح رحلة طوف "كون- تيكي" البلزي يمكن لها فقط أن تبين على أي نحو تحققت الاتصالات الثقافية قديماً، ولكنها لا تبرهن أبداً على أن هذه الصلات وجدت في الواقع. لا بد هنا من حجج أكبر وزناً. وسرعان ما حاول النروجي المكلل بغارات النصر أن يعثر عليها.

في عام ١٩٥٢ ظهرت على رفوف مخازن الكتب في عدة بلدان دفعة واحدة دراسة مسهبة لهيردهل بعنوان "الهنود الأمريكيون في المحيط الهادئ"[٥٠]. وفيها ينفي نفياً قاطعاً، على غرار بعض سابقيه، أية إمكانية لاستيطان جزر بولينيزيا أول الأمر من الغرب، من جنوب شرق آسيا، مشيراً إلى الرياح والتيارات المعاكسة.

في رأي هيردهل كان أول من استوطن بولينيزيا القوقازيون (الأوروبيون) البيض القادمون من أمريكا الجنوبية نحو عام ٨٠٠ ب.م. هؤلاء القوقازيون المتحدرون، على الأرجح، من أمريكا الشمالية انتقلوا فيما بعد إلى أمريكا الوسطى والجنوبية، وأسسوا جملة من الحضارات الرفيعة في المكسيك وبيرو، ثم استقروا في بوليفيا، في منطقة تياواناكو، موطن إحدى حضارات المدن المحلية في الألف الأول ب.م، ولكن قبائل معادية إزاحتهم من هناك، فانطلقوا على أطواف في المحيط مع زعيمهم الأسطوري كون-تيكي فيراكوتشا، وهؤلاء القوقازيون بالذات استوطنوا، حسب قول العالم النروجي، أغلبية جزر بولينيزيا، وتركوا صورهم على شكل منحوتات عملاقة في جزيرة الفصح.

وموجة المستوطنين الثانية، الأحدث عهداً، قدمت إلى بولينيزيا (أو بالأحرى، إلى جزر هاواي) في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من أمريكا الشمالية، من ساحلها الشمالي الغربي، وكانت تتكون من الهنود الكفكيوتليين.

يشير هيردهل لتعليل آرائه إلى معطيات علم النبات - واقع أنه توجد في بولينيزيا وفي العالم الجديد، إلى جانب البطاطا، نباتات مفيدة مثل القطن والقرع القاروري والفول اليامي - (Pachyrrhi Zus) وجوز الهند وغيرها. وجمع كذلك الكثير من الملامح الثقافية المتشابهة ظاهرياً الملازمة سواء للبولينيزيين القدماء أو لسكان أمريكا قبل كولومبس. وأهمها منشآت البناء الحجري الضخم والمنحوتات الحجرية المتربعة. ثم أعلن هيردهل أن لغة قوقازيي تياواناكو قد اضمحلت، أما الأنكيون الأحدث عهداً (لم تكن لغتهم تشبه اللغة البولينيزية على الإطلاق) فلم يستوطنوا بولينيزيا بمجموعات كبيرة.

تشغل مواد جزيرة الفصح حيزاً خاصاً في كل محاكمات العالم النروجي. ولما كان إنساناً حازماً وعنيداً للغاية، فقد استطاع أن ينظم ويجري في الخمسينات بعثة آثارية إلى هذه القطعة الصغيرة من اليابسة الضائعة في أرجاء المحيط المترامية الأطراف.

كانت نتائج الابحاث ممتعة جداً. فقد تسنى قبل كل شيء الحصول على أول تصنيف آثاري صحيح إلى هذه الدرجة أو تلك لمراحل تاريخ الجزيرة يتكون من ثلاثة أطوار: الطور المبكر (القرن الرابع - القرن الحادي عشر ب.م) والطور الأوسط (القرن الثاني عشر - القرن السابع عشر) والطور المتأخر (أعوام ١٦٨٠ - ١٨٦٨). اتضح أن التماثيل الحجرية الشهيرة في جزيرة الفصح لم تشيد إلا على امتداد الطور الأوسط[٥١]. وعثر على منشآت حجرية مجهولة تماماً في السابق - قواعد، بيوت، وكذلك أصناف جديدة من المنحوتات الحجرية. وتسنى العثور في بحيرة تكونت في فوهة بركان منطفئ على قصب التوتورا (**Scirpus riparius**) ونباتات مثل **Polygonura acuminatum** و **Cyperus toromiro**. ومنشؤها جميعاً، شأن شجرة التوراميرو (**Sophora toromiro**) المصدر الوحيد للخشب في الجزيرة، من أمريكا الجنوبية[٥٢]. والبطاطا موجودة هناك على نطاق واسع. وعلى أساس المنشأ الأمريكي الجنوبي لهذه النباتات حاول هيردهل ان يعزز فرضيته حول صلة ثقافة جزيرة الفصح بأمريكا الجنوبية.

شوهد في الجزيرة ما يصل مجموعه إلى ٦٠٠ منحوتة حجرية كبيرة بقي ١٥٠ منها غير مكتمل. وطول أكبرها ١١,٥ متر ووزنها نحو ١٠٠ طن. ووفق تقديرات العلماء عمل لإنشائها ٣٠ شخصاً على امتداد سنة،

ونقل التمثال ٩٠ شخصاً على امتداد شهرين إلى مسافة ٦ كم من المقلع على سفح بركان إلى مكان نصبه، وقام ٩٠ شخصاً على امتداد ثلاثة أشهر بجعل التمثال في وضعية قائمة.

تصور التماثيل الحجرية، كقاعدة عامة، "أناساً" طويلي الآذان، وللبعض منها فقط آذان عادية. ويرى العلماء أن "عمالقة جزيرة الفصح" عبارة عن "بورتريتات" لزعماء مؤلهين متوفين[٥٣].

في خلال حفريات القواعد الحجرية من الطور المتأخر عثر على عدد كبير من مدافن سكان الجزيرة، وتعود كل هياكلهم العظمية إلى النمط الانتروبولوجي البولينيزي.

بعد الأبحاث في جزيرة الفصح غير هيردهل وجهة نظره بعض الشيء إزاء مسيرة الأحداث. صار يعتبر أن الجزيرة سكنها أول الأمر في الطور المبكر (القرن الرابع- القرن الحادي عشر ب.م) قوقازيون من تياواناكو كانوا يعبدون الشمس والإله ماكيماكا. في أواخر هذا الطور توقفت الحياة في الجزيرة، وغادرها سكانها، على ما يبدو، في بداية الطور الأوسط، قدم إلى هناك مستوطنون جدد من أراضي بيرو جلبوا معهم عبادة "الإنسان- الطائر" وعبادة الأسلاف (ومن هنا إقامة منحوتات الزعماء العملاقة على قواعد حجرية - "أخو"). وبعد ذلك بقليل، ولكن في الطور الأوسط، ظهر في جزيرة الفصح البولينيزيون بالذات، وذلك، على الأرجح، من جزر مركيز. تعايشت المجموعتان طويلاً، إلى أن تسنى للبولينيزيين، أخيراً في الطور المتأخر إبادة كل أخلاف الهنود الأمريكيين الجنوبيين.

ولكن حتى النتائج الرائعة للأبحاث العلمية الكبرى الأولى في جزيرة الفصح التي أجرتها البعثة برئاسة هيردهل لم تستطع وقف الموجة المتعاظمة لانتقاد الاحكام الأساسية لفرضية العالم النروجي. مع العلم أن العلماء المحليين[٥٤] والأجانب[٥٥] على حد سواء أجرَوا تحليلاً انتقادياً شديداً لآرائه. سأقتصر لاحقاً على عرض صيغة موجزة فقط لحجج معارضي قبطان "كون- تيكي".

يكتب الأثنوغرافي توماركين: "في الأربعينات استطاع هيردهل متمتعاً ببعض المسوغات أن يضع نفسه في معارضة العلماء "المكتبيين"، ولكنه فقد وضعه "الخاص" فيما بعد. فقد توجهت إلى جزر أوقيانوسيا عشرات البعثات الآثارية والأثنوغرافية وغيرها، وأجري العديد من الرحلات التجريبية على سفن بنيت وفق النماذج البولينيزية، وتطورت بشكل ملحوظ النمذجة الرياضية لشتى جوانب عملية استيطان بولينيزيا، ونتائج هذه الأبحاث تدحض الأحكام الأساسية لمفهوم هيردهل"[٥٦].

ويعارض العلماء المحليون بحدة خاصة النظرية التي وضعها هيردهل، "نظرية العرق الأبيض"، القوقازيين ذوي الشعر الأمغر الذين حملوا، على حد زعمه، ثمار الحضارة الرفيعة من العالم القديم إلى أمريكا أول الأمر، ومن ثَم إلى بولينيزيا.

في كتاب "أكو- أكو" يتحدث هيردهل غالباً عن أناس بيض ومغر الشعور وزرق العيون في جزيرة الفصح، ولكن لا مجال هنا حتى لمجرد الحديث عن استيطان جماعي للقوقازيين- الأوروبيين. وينبه الأنتروبولوجي بوناك: "يجب أن يعزى اختضاب البشرة الفاتح، إذا وجد بين البولينيزيين،

إلى المهق، وهو لا يشهد بحال من الأحوال على وجود سمات للعرق الأوروبي". ثم يشير مرة أخرى: "لا توجد في نمط البولينيزيين الصرف أية سمات خاصة للعرق الأوروبي"[٥٧].

ويعترض النيوزيلاندي بيتر بلفود، الذي أتى ذكره، على مفهوم العالم النروجي بصورة ألطف، ولكن بالحزم نفسه من حيث الجوهر:

"لاشك في أن لهيردهل ملاحظات قيمة. ومع ذلك فإنه، إذ توجه إلى جزيرة الفصح كان، كما يبدو يميل سابقاً إلى البرهان على وجود أساس أوروبي في بولينيزيا، ومن بواعث سروره أنه برهن على هذا. وفحوى الأمر أن أرخيولوجيا وأنتروبولوجيا أمريكا الجنوبية وبولينيزيا الشرقية تنطوي على جملة وقائع (متناقضة ومتباينة من حيث القيمة والأصالة في حالات ليست بالنادرة) يستطيع معها أي إنسان مطلع ولو بعض الشيء أن يبرهن بإقناع على وجود صلات أمريكية - رابانوئية، ولا يتسنى لأحد أن يدحض حججه تماماً. من المستبعد أنه ينبغي اعتبار هيردهل مخطئاً في كل شيء، ولكن ما تسنى تبينه بعد عام ١٩٥٦ يجعل فرضيته محتملة أقل وأقل...

سنتطرق فقط إلى بعض الجوانب التي تثير أشد اهتمام.

أولاً: يتكلم سكان جزيرة الفصح باللغة البولينيزية، ويتكلمون بها، على ما يبدو، منذ زمن بعيد، منذ عام ٥٠٠ ب.م على الأقل... ولا توجد في اللغة البولينيزية أية كلمة ذات أصل أمريكي جنوبي.

ثانياً: تحليل الهياكل العظمية التي اكتشفت في مدافن الجزيرة (مع أنها تعود جميعاً إلى الطور المتأخر) يشير بما لا يقبل التأويل إلى أن أصلها من بولينيزيا، لا من بيرو بحال من الأحوال.

ثالثاً: كل مصنوعات جزيرة الفصح إما بولينيزية نموذجية، وإما يمكن لها أن تعزى إلى هذه الأخيرة، وتشكل تطوراً منطقياً لها... لا توجد في الجزيرة ولم توجد أدوات من النمط الأمريكي الجنوبي.

رابعاً: فرضية هيردهل حول عبادة الشمس التي مورست على حد قوله، في الطور المبكر تقوم، كما يبدو، على تفسير رومنتيكي غير مسوغ لمعطيات آثارية لا يعول عليها كثيراً.

ثم إن منحوتات جزيرة الفصح لا تشبه منتجات تياواناكو أكثر مما تشبه المنحوتات البولينيزية. فالتقنية البدائية لإعداد المنحوتات من كتلة واحدة تحد من تنوع الأشكال. أما في خصوص الأوضاع التي صور فيها الناس الحجريون، فإن الوضعيات تتكرر في كل مكان في تماثيل جنوب شرق آسيا وأوقيانوسيا وأمريكا...

وبعض ملامح الثقافة الرابانوئية (المجاذيف المزدوجة، تصوير العيون الباكية، أنماط البيوت الحجرية، صور "الإنسان - الطائر" الرمزية، الماتا الحجرية السبجية) هي على الأرجح نتيجة لتطور داخلي محلي. ووجود تطابقات عرضية مع الثقافة الأمريكية الجنوبية ممكنة تماماً، ولكن تكتشف بالسهولة نفسها تطابقات مع الثقافة البولينيزية"[٥٨].

هذا لا يعني طبعاً أن كل أحكام فرضية هيردهل على الإطلاق مخالفة للواقع. أنا أفترض أنه إذا روعي وجود البطاطا وقصب التوتورا وجملة من النباتات الأمريكية الجنوبية الأخرى في جزيرة الفصح، فيمكن تماماً التسليم بأن بعثة أو عدة بعثات من هنود بيرو زارت الجزيرة على أطواف، والأرجح أن هذه الزيارات جرت في الفترة من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر.

بودي، إذ أنجز هذا الفصل أن أورد نتيجة لكل ما قيل كلمات حكيمة أعرب عنها عالم أوقيانولوجي و"منظر" و"ممارس" في مجال عمله. "يمكن، طبعاً، لتاريخ جزيرة الفصح أن يبدو بالصورة التي عرضناها مبتذلاً إذ لا توجد أية أساطيل لفيراكوتشي أو الأنكيين، وأية قارات غرقى (يعتبر الكثير من السطحيين والمشعوذين جزيرة الفصح شظية لقارة "باسيفيدا" العملاقة التي غرقت منذ أقدم الأزمنة، والتي غاصت معها في أعماق المحيط حضارة رفيعة لا مثيل لها - المؤلف). ولكن لعل البحث عن لغز كهذا هو نتيجة للأخطاء المعاصرة، والتصور المبتذل للأزمنة القديمة بحد ذاتها؟

لماذا لا تثير الاهتمام إلا هجرات بعينها؟ وهل يبعث على دهشة أقل أن يتسنى لحفنة من البولينيزيين تحقيق كل هذا بقواها الخاصة، وأن تقيم كل هذه الثقافة الرائعة وهي معزولة عن العالم بأسره، لا سلاح لها إلا عقلها وطاقتها، وجرأتها وتعطشها إلى البناء؟ يتمسك الكثير من علماء الماضي برأي مفاده أن كل ما هو جيد ويستحق الاهتمام لا يمكن له إلا أن ينشأ من عدة مناطق ثقافية، مع العلم أن غالبية هذه المناطق المفترضة يسكنها الأوروبيون. هذه الآراء المتحيزة لم تجذب الآثاريين في يوم من الأيام، ولكن يبدو أنه حان الوقت الآن لإعلان هذا على نطاق واسع. ثقافة أوقيانوسيا إنجاز للأقيانوسيين أنفسهم، لا محصلة لنقل حضارة من البحر الأبيض المتوسط إلى الجزر"[٥٩].

هوامش الفصل الثامن

١- كريوكوف. المحيط وملاحوه. – في كتاب: بلفود. إخضاع الإنسان للمحيط الهادئ. جنوب شرق آسيا وأوقيانوسيا قبل التاريخ. موسكو. دار "ناؤوكا"، ١٩٨٦، ص ٣.

٢- كريوكوف. المحيط وملاحوه ...، ص٦.

٣- ألكسييف: المراكز الجغرافية لتكون الاجناس البشرية. موسكو. دار "ميسل"، ١٩٨٥، ص ١٣٧، ١٤٨ – ١٤٩.

٤- بلفود. إخضاع الإنسان...، ص ٣٣٤،

٥- بلفود. إخضاع الإنسان...، ص ٣٢٤.

6- A.Sherrat (ed). The Cambridge Encyclopedia of Archaeology. Cambridge, 1980, p. 325 – 327.

٧- غولنت. اكتشفوا الكوكب سوية. موسكو. دار "ناؤوكا"، ١٩٧١، ص ٣١ذ.

٨- غولنت. اكتشفوا الكوكب سوية...، ص ٣٢.

٩- غولنت. اكتشفوا الكوكب سوية...، ص ٣٥.

١٠- كويليتشي. المحيط. موسكو، ١٩٧٦، ص ٥٦.

١١- الاستشهاد من: كويليتشي. المحيط ...، ص ٦٢.

١٢- بلفود. إخضاع...، ص ٣٢٤-٣٢٥.

١٣- غولنت. اكتشفوا...، ص ٣٨.

١٤- بلفود. إخضاع...، ص ٣٢٦.

١٥- غولنت. اكتشفوا...، ص ٣٩-٤٠.

١٦- غولنت. اكتشفوا...، ص ٤١.

17- B.G.Corney (ed.). The quest and occupation of Tahiti by emis saries of Spain during the years 1772-1776. London, 1913-1919, vol. 2, p. 285-286.

١٨- بلفود. اخضاع...، ص ٣٢٧- ٣٢٨.

١٩- غولنت. اكتشفوا...، ص ٤٢- ٤٣.

20- Jourdain. Pirogues anciennes de Tahiti. –Societe des Oceanistes. Paris, 1970.

٢١- كويليتش. المحيط...، ص ٦٠.

٢٢- الاستشهاد من: غولنت. اكتشفوا...، ص ٥٨ – ٥٩.

٢٣- الاستشهاد من: غولنت. اكتشفوا...، ص ٦١.

24- C.A.Sharp. Ancient vojagers in the Pacific. Wellington, 1956.

٢٥- بلفود. إخضاع...، ص ٣٣٠.

٢٦- هيردهل. مغامرات إحدى النظريات. لينينغراد. غدرومتيو ازدات، ١٩٦٩، ص ١٦.

٢٧- كويليتشي. المحيط...، ص ١٢٧.

28- P.J.O"Brien. the Sweet Potato: its origin and dispersal. –"American Antiquity", vol. 74. Washington, 1972, p. 342-365; D.E.Yen. Sweet-potato variation and its relation to human migration in the Pacific. –In: Barrau (ed.) "Plants and the Migrations of Pacific Peoples", honolulu, 1963, p. 93-117.

٢٩- غولنت. اكتشفوا ...، ص ٨٧.

٣٠- كنوروزوف. حول مسألة الصلات بين أمريكا قبل كولومبس والعالم القديم. - "أمريكا اللاتينية"، العدد ١، ١٩٨٦، ص ٨٦.

٣١- تي رانغي خيروا. بحارة شروق الشمس. موسكو. دار الأدب الأجنبي، ١٩٥٠، ص ٢٦٢-٢٦٥.

٣٢- الاستشهاد من: غولنت. اكتشفوا...، ص ٨٧.

٣٣- غولنت. اكتشفوا...، ص ٨٩.

٣٤- كويليتشي. المحيط ...، ص ٢٥.

٣٥- كويليتشي. المحيط...، ص ٢٥- ٢٦.

٣٦- كويليتشي. المحيط...، ص ٢٧.

37- R.C.Suggs. The Island Civilizations of Polynesia. New York, Mentor, 1960, p. 207-208.

38- R.C.Suggs. The Island Civilizations..., p. 208.

39- Digging up America. New Yowk, 1965, p. 56. . F.C.Hibbe

40- .R.C.Suggs. The Island Civilizations..., p. 208-209.

٤١- هيردهل. مغامرات إحدى النظريات...، ص ٢٣- ٢٤.

٤٢- كنوروزوف. حول مسألة الصلات...، ص ٨٧.

٤٣- كنوروزوف. حول مسألة الصلات...، ص ٨٧.

٤٤- هيردهل. مغامرات إحدى النظريات...، ص ٧٣.

45- T.Heyerdahl and A.Skjolsvold. Archaeological evidence of prehispanic visits to the Calapagos Islands. –"Memoirs of the Society for American Archaeology", vol. 12, Salt lake city, 1956.

46- R.Heine-Geldern. Some problems of migration in the Pacific. – "Kultur und Spache", Wiener Beitrage zur Kultur geschichte und linguistic, Jahrgang 9, Wien, 1952, p. 313.

٤٧- الاستشهاد من: كندراتوف. عمالقة جزيرة الفصح. موسكو. سوفيتسكي خودوجنيك، ١٩٦٦، ص ٩٩-١٠٠.

48- A.Metraux. Ethnology of Easter Island. Honolulu, 1940 .

٤٩- هيردهل. رحلة على كون- تيكي. ألما- أتا، ١٩٦٠، ص ٣٧.

50- T.Heyerdahl. American Indians in the Pacific. London, 1952.

51- T.Heyerdahl. and E.N.Ferdon (eds.). Archaeology of Easter Island, vol. 1, Stockholm, 1961, p. 527-533

٥٢- بلفود. اخضاع...، ص ٣٩٦-٣٩٧.

٥٣- بلفود. اخضاع...، ص ٤٠٥-٤٠٦.

٥٤- بوتينوف، كنجالوف، كنوروزوف: تعليق على:
Thor Heyerdahl “Aku-aku”, Oslo, 1957- "الأثنوغرافيا السوفييتية"، العدد ١، موسكو، ١٩٥٩، ص ١٤٤-١٥٣؛ كنوروزوف: أسطورة استيطان جزيرة الفصح. "الأثنوغرافيا السوفييتية"، العدد ٤، موسكو، ١٩٦٣، ص ١٤٥-١٥٥؛ توماركين: تور هيردهل وقضايا استيطان بولينيزيا. مجموعة "أستراليا وأوقيانوسيا" (التاريخ والمعاصرة). موسكو، دار "ناؤوكا"، ١٩٧٠.

55- R.Heine-Geldern. Heyerdahl ‘s hypothesis of Polynesian origins: a criticism. –“The Geographical journal”, vol. 116, №4-6, London, 1950, p. 182-190; R.C.Suggs. The Island civiliciations of Polynesia. New York, Mentor, 1960, ch. 16, p. 212-224, etc.

٥٦- توماركين: الأخطاء التي نتعلم بها. - "أمريكا اللاتينية"، العدد ٦، موسكو، ١٩٧٤، ص ١٦٦.

٥٧- بوناك، توكاريف. قضايا استيطان أستراليا وأوقيانوسيا. مجموعة "أصل الإنسان وانتشار البشرية القديم"، مؤلفات معهد الأثنوغرافيا لأكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي، المجلد ١٦، موسكو، ١٩٥١، ص ٥١٧.

٥٨- بلفود. إخضاع...، ص ٤١٠.

٥٩- بلفود. إخضاع...، ص ٤١٣.

الفصل التاسع

العلماء يتناقشون: "الانتشاريون" و"الانعزاليون" والصلات بالعالم الجديد قبل كولومبس

"زرت قاعات جلسات العلماء
وسمعت مذعوراً كلماتهم تلقى برتابة واتساق.
وبدا لي أن سياطاً رعناء
تلهب ثيراناً خانعة لتجر صنم المعارف العملاق".

بريوسوف، ١٩٠٦

معرض في نيويورك

في عام ١٩٤٩ افتتح في القاعات الرحبة لمتحف التاريخ الطبيعي في نيويورك معرض غير عادي له اسم طويل وغامض: "الاتصالات عبر المحيط الهادئ: هل أثرت حضارات الشرق الأقصى القديمة في ثقافة الهنود الأمريكيين؟" كان الكثير من المواد والنماذج والصور المعروضة على لوحات المتحف وواجهاته يهدف إلى إقناع الزوار بأن القارتين الآسيوية والأمريكية أقامتا اتصالات ثقافية ناشطة فيما بينهما قبل ظهور الأوروبيين بزمن طويل.

وفيما بعد تقدم بتقرير في هذا الموضوع كل من الأثنوغرافي النمساوي خيني- غلدرن والآثاري من الولايات المتحدة أكهولم. أثار المعرض والتقريران انتباهاً شاملاً، ونشبت نقاشات حادة حول الموضوع المثار. والأمثلة الخاصة الملموسة على التشابهات الآسيوية- الأمريكية في الفن، التي قدمت في المعرض، زعزعت كثيراً مواقع العلماء الذين نظروا إلى هذه الملامح المتشابهة كتطابق عرضي أو فسروها بالمزاج السيكولوجي العام لكل الناس.

هل يمكن أن تظهر إلى الوجود بدون تأثير متبادل الزخرفة على شكل شرائط ذات تجعدات حلزونية على الأطراف، وبندقية الهواء - "السرباكان" ومزمار الإله "بان" والأهرام إلخ؟

"الانتشاريون" - كما يسمى أنصار فكرة الصلات - يرفضون هذا الاحتمال بحزم. البشرية، في رأيهم، لا تستطيع القيام بأي اكتشاف معقد أو اختراع إلا مرة واحدة، وفي مكان معين. وإذا صادفناهما لدى شعوب مختلفة أو حتى في عهود تاريخية مختلفة، فإن هذا يشكل على أي حال برهاناً لا شك فيه على صلات متبادلة.

يتضح أن كل المنجزات الثقافية الأساسية القديمة- الزراعة ومعالجة المعادن ودولاب الخزاف والمحراث والعجلات والعمارة الحجرية والكتابة والتقويم- قد اكتشفت مرة واحدة فقط في مركز الثقافة الأول ومن هناك انتشرت بالتدريج إلى مناطق العالم الأخرى. من مصر وما بين النهرين، مهد أقدم الحضارات، انتشرت منجزات الثقافة المذكورة في كل أرجاء العالم على رؤوس حراب جيوش النهب التابعة للفراعنة والباتيسي السومريين والملوك الآشوريين. عن طريق التجار اطلع عليها الأجانب الجهلاء، ونشرها البحارة والمهاجرون المتململون الذين كانوا بلا سبب واضح يغادرون من

حين إلى آخر أماكن إقامتهم، ويندفعون إلى أرجاء مجهولة بحثاً عن أرض الميعاد. تتجلى مسيرة التاريخ، بناء على هذا المفهوم، ببساطة ساذجة: الشرق "المانح" والفناء الخلفي "المتلقي" الذي يكاد يشمل كوكبنا بأسره.

هكذا تكون بالتدريج اتجاه (أو تيار) جديد في دراسة الشؤون الأمريكية، وهو الانتشارية. واضطلعت بدور كبير في غضون ذلك مؤلفات الأثنوغرافيين الألمان والنمساويين في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، واضعي نظرية "الدوائر الثقافية"، غربنر وشميدت وأكرمان وكبرس وغيرهم ممن حاولوا البرهان على أن ثقافات كل شعوب العالم ظهرت نتيجة سبع أو ثماني موجات لهجرات متعاقبة من مركز عملاق واحد في جنوب شرق آسيا. كل موجة كانت تحمل معها مجموعة جديدة، أعلى للثقافة. وفسر كل تنوع التقاليد الثقافية لسكان العالم بتشابك وتفاعل أمواج الهجرة المشار اليها، وكأن الحديث لا يجري عن أناس أحياء، بل عن سيول من الحمم البركانية.

لم يظهر إلا في القرن العشرين نظريات علمية جدية إلى هذه الدرجة أو تلك في صدد هذه القضية، وكان في عداد الممثلين الأوائل لهذا الاتجاه علماء مشهورون مثل ليونارد ادم، وكارل غنتسي، وبول ريفي وغيرهم. لقد وجهوا اهتمامهم الأساسي إلى البحث عن أوجه تشابه آسيوية- أمريكية في الفن والثقافة المادية. يورد غنتسي وادم في مؤلفاتهما الرزينة جملة من أوجه التشابه الطريفة والخاصة في مواضيع وزخرفة وأساليب التصوير بين فن جنوب شرق آسيا من جهة، وساحل أمريكا الشمالي الغربي والمكسيك من الجهة الأخرى. (مثلاً، تطابق الاساليب الفنية على الآنية الرخامية من وادي نهر أولوا في هندوراس، وعلى المصنوعات البرونزية من عصر تشو في الصين)[1].

هل زار بوذا أمريكا؟

استخدم في أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين الأثنوغرافي النمساوي روبرت هيني- غلدرن والآثاري الأمريكي غوردن أكهلم، زعيما "الانتشارية الجديدة" في دراسة الشؤون الأمريكية المعترف بهما، طرائق وحجج سابقيهم، وانطلقا في استنتاجاتهما شوطاً أبعد بكثير. يربط هذان العالمان، من حيث الجوهر، أهم منجزات الهنود الأمريكيين بتأثير آسيا الشرقية والجنوبية الشرقية.

وفي هذا الصدد كان الفن الهندي- البوذي في الألف الأول ب.م محظوظاً بشكل خاص. تضم قائمة "الانتشاريين الجدد" الطويلة لأوجه الشبه الأمريكية- الآسيوية المعابد الحجرية على الأهرام المدرجة ذات السطح المنبسط (كمبوديا والمكسيك)، وتصوير "التنين"، وعبادة الشمس، والأعمدة النصفية المعمارية على واجهات الأبنية، والزخرفة على شكل شرائط بتعاريج حلزونية على نهاياتها، والنقوش البارزة التي تصور حكاماً أو كهنة جالسين على عروش منخفضة، وقد أنزلوا رجلاً واحدة، والصولجانات والمحفات والمظلات والظلل كرموز للسلطة الملكية، وتماثيل "الأطلنطات"، ودرابزينات أدراج المعابد على شكل أفاع ذات أفواه مفتوحة (المكسيك وجزيرة جاوا) والكثير غيرها[٢].

ولكن هذا التشابه يتجلى بوضوح خاص في تصوير اللوتس (اللوتس هو الموضوع المفضل لفن الهند البوذي). والطريف أن للوتس على النقوش

البارزة الحجرية في تشيتشين- أيتسا (المكسيك) وعلى الألواح في أمارافاتي (الهند) ناحية خاصة للغاية، وهي الأملود الأفقي للجذر الذي ينمو عميقاً تحت الماء ولا تراه عين الإنسان. وفي المكسيك، كما في الهند، غالباً ما يصور عسلوج اللوتس مقترناً بإنسان شبه مضجع أو بغيلان بحرية وأسماك[٣].

وكل هذا، للأسف، تشابه ظاهري. فالهوة الزمنية بين هذه الأمثال تشكل في كل مرة قروناً عديدة. فإذا كانت نقوش اللوتس النافرة في الهند تعود إلى القرن الثاني ب.م، فإن "نظائرها" المكسيكية في تشيتشين- إيتسا تعود إلى فترة ليست أبكر من القرنين الحادي عشر والثاني عشر ب.م. ظهرت أهرام كمبوديا لأول مرة في الفترة من القرن الثامن إلى القرن العاشر ب.م، في حين أن أقدم المنشآت الهرمية في المكسيك ظهرت في الألف الأول ق.م. أما في خصوص الأعمدة والدرابزينات على شكل أفاع مفتوحة الأفواه التي تتشابه، حسب قول أكهلم، تشابهاً شديداً في بوروبودور (جزيرة جاوا - أندونيسيا، القرن الثامن ب.م) وفي تشيتشين- إيتسا (لوكاتان، المكسيك، القرنان الحادي عشر والثاني عشر ب.م)، فإنه لم تصور على النقش النافر في بوروبودور أفاع بالمرة، بل "ماكاراس"، أي الغيلان الخيالية من الأساطير الأندونيسية التي لها جسم سمكة ورأس فيل.

بيد أن هذا لم يمنع الانتشاريين من التوصل إلى استنتاجات حاسمة للغاية حول طابع الصلات الآسيوية- الأمريكية. يكتب أكهلم: "يدرأ العدد الكبير من أوجه الشبه الخاصة أية إمكانية للتطابق العرضي. من الجوهري جداً أن الملامح ذات المنشأ البوذي الواضح سواء في المكسيك أو عند المايا ممثلة بغزارة في العمارة الدينية والكوسمولوجيا والميثولوجيا

ورسم الأيقونات، ولكنها تنعدم تقريباً في الثقافة المادية، وهذا لا يمكن من افتراض أن التأثير الهندي- البوذي في أمريكا الوسطى يقتصر على اتصالات عرضية على غرار سفن قذفت بها العواصف والتيارات إلى الساحل الأمريكي. يمكن لهذه المراكب أن تحمل على متنها بحارة وتجاراً، ولكن لا أولئك الذين يمكن أن نتوقع منهم معارف في ميدان العمارة العقائدية والدين"(٤).

وبالتالي، اضطلع المبشرون والكهنة البوذيون بالدور الرئيس في إقامة الصلات الآسيوية- الأمريكية. ولكن كيف ذللوا المسافات الشاسعة للمحيط الهادئ؟ في الفترة المعنية (من القرن الثاني إلى القرن الثاني عشر) كان بناء المراكب والملاحة في جنوب شرق آسيا، كما يؤكد الانتشاريون، متطورين بما يكفي للقيام برحلات عبر المحيط. منذ زمن بطليموس كانت المراكب الهندية تبحر إلى الملايو وأندونيسيا عبر خليج البنغال مباشرة، لا بمحاذاة الساحل. في القرن الرابع ب.م كانت تبنى في الهند سفن تتسع لملاحين وركاب يصل عددهم إلى ٢٠٠ وتتفوق كثيراً من حيث المقاييس على مراكب كولومبس والباحثين الإسبان المبكرين الآخرين.

كيف تولد الحضارات

لم تذهب جهود "الانتشاريين الجدد" عبثاً. فقد ظهر لخيني- غلدرن وأكهلم الكثير من الأنصار والأتباع سواء في أمريكا، أوفي أوروبا. والآن حان الوقت لنثير الشكوك في استقلالية كل المنجزات الثقافية الأساسية للسكان الأصليين في العالم الجديد. حينما كان البعض يحاول تفسير أصل سيراميك ودلند الأمريكي بمؤثرات من سيبيريا أوحى آخرون بإصرار إلى القراء أن أساس الحضارات الرائعة للاتستيكيين والمايا والأنكيين قد أرسي بفضل "حملة الحضارة" من آسيا. فأي مكان يبقى هنا للنشاط الابداعي للهنود الحمر أنفسهم؟

يكتب المكسيكي ميغل كوفروبياس: "يستحيل تصديق أن الهنود الأمريكيين حققوا في غضون ألفي سنة النجاحات نفسها التي توصل إليها سكان العالم القديم في خلال ستة آلاف سنة"[٥]. وينحو أكهلم نحوه: "... ظهرت كل حضارات العالم القديم، وتطورت مقيمة صلات دائمة فيما بينها. فلماذا تستثنى أمريكا من هذا؟"

لعل هيني- غلدرن هو الوحيد الذي حاول وضع أساس نظري لآرائه. ولما كان يتمتع باحتياطي يحسد عليه من المعارف في كل ميادين العلوم التاريخية، بين بما لا يخلو من النجاح ضعف مواقع بعض خصومه. وفحوى الأمر أن أغلب العلماء في القرن التاسع عشر، حينما ساد في العلم الأوروبي

ما يسمى بالمدرسة "الارتقائية"، اعتبروا أن رابطة التكوين النفسي لدى كل الناس في الأرض تؤدي بصورة تلقائية تقريباً إلى تشابه في تطور ثقافتهم، أما ما يلاحظ من اختلافات فلا تفسير له إلا تأثير شتى الظروف الطبيعية.

يكتب هيني - غلدرن: "مفهوم طرق التطور المتوازية العديدة هذا قد شاخ ودفن منذ أمد بعيد في ضريح النظريات التي مضى زمانها، ولكن الكثير من الباحثين، حتى وإن رأوا صواب الفرضيات والآراء الجديدة (أي فرضيات "الانتشاريين الجدد" - المؤلف)، يغمضون العين عن هذا الواقع. هذا التنافر يخلق وضعاً حافلاً بالمفارقات. أي آثاري يؤكد اليوم أن شعوب أوروبا ما قبل التاريخ اخترعت بصورة مستقلة عن بعضها البعض منجزات مهمة للشرق القديم مثل الزراعة أو سبك البرونز أو معالجة الحديد أو الدولاب أو التقويم أو الكتابة يخاطر بأن يجعل نفسه سخرية في أعين عالم العلماء. فلماذا لا يصح هذا على الهنود الأمريكيين الذين كرروا بصورة مستقلة، كما يفترض، أعقد الاختراعات التي تحققت في مكان آخر"[٦].

وعلى هذا النحو، إذا انطلقنا من آراء "الانتشاريين" لا يبقى أي شيء أصيل ومستقل في الثقافات القديمة للعالم الجديد. يتلخص الأسلوب المفضل لممثلي هذا التيار في الإشارة بكل السبل إلى الظهور "الفجائي"، "المباغت" لهذه الثقافات أو تلك في أمريكا قبل كولومبس، وانعدام مراحل التطور السابقة عندهم، وغياب الجذور المحلية. يؤكد العالم الألماني فالتر كريكيبرغ بجدية تامة أن كل الحضارات المكسيكية قبل الإسبان ظهرت فجأة، من غير أن يكون لها سابقة، وكأنها وتسيلوبتشتلي[١] أو أثينابلادا. من

---

(١) وتسيلوبتشتلي إله الحرب عند الأتستيكيين.

المعروف أن كليهما ظهر أمام العالم المشدوه بالغاً تماماً، حتى إن الأخيرة ظهرت وفي يدها رمح. وهذا مفهوم. فقد خرج وتسيلوبتشتلي من باطن إلهة الأرض كوتلكوي، أما أثينابلادا فخرجت من رأس زفس.

غالباً ما تذكر بين هذه الثقافات التي "ولدت فجأة"، ولم "يكن لها سابقة" ثقافة الألميكيين على الساحل الجنوبي لخليج المكسيك (ولايتا فيركروس وتابسكو). لقد كانت، من حيث الجوهر، واحدة من الثقافات الرفيعة في أمريكا قبل كولومبس، فهرعوا على الفور إلى البحث عن "قريبات" آسيويات لها.

يكتب أكهلم الذي أتينا على ذكره: "تتجلى الثقافة الألميكية على مستوى المعارف المعاصر كأقدم حضارة رفيعة في ميزوأمريكا[1]. وهي تعرض بعض الملامح المعقدة للغاية التي يستحيل العثور على مراحل تطور سابقة لها. تشير كل الدلائل إلى أن الثقافة الألميكية كانت مرتبطة بالصين، في عصر البرونز المبكر، ولا سيما بثقافات سلالة شانغ (القرن السادس عشر - القرن الحادي عشر ق.م)"[7]. كان لا بد وأن تشكل برهاناً على هذا الأمر التطابقات في فن المنطقتين، مثل الانتشار الواسع لموضوع النمر، وولع الصاغة والصناع المحليين باليشم الثمين بمثابة خامة أساسية لتحضير مصنوعاتهم إلخ. في السابق شاطر ألمايا وأنكيو بيرو وحتى الثقافات الزراعية المبكرة في العصر القديم الألميكيين مصيرهم. لقد ظهروا جميعاً، كما

(١) ميزوأمريكا المنطقة الشمالية لأراضي الثقافات الرفيعة في أمريكا قبل كولومبس، وكانت تضم إقليمياً: المكسيك وغواتيمالا وبليزه وغرب سلفادور وشرق هندوراس.

يزعمون من لا شيء، بشكل متكون تماماً، وبالتالي كان يجب البحث عن جذورهم في أي مكان آخر، لكن لا في أمريكا نفسها.

كان الانتروبولوجي الأمريكي كريوبر مصيباً حينما قال: "إذا كان المايا القدماء قادرين على أن يضعوا مفهوم "الصفر" الرياضي بصورة مستقلة عن الهنود، وقبلهم بعدة قرون، فلماذا لا يستطيعون أن يخلقوا ويطوروا بصورة مستقلة الجوانب الأخرى لثقافتهم (الدين، الفن، الكتابة)، بل كان عليهم أن يقتبسوها من العالم القديم حتماً؟"[٨].

رحلات النبات

تضطلع معطيات علم النبات بدور كبير في حل قضية الصلات الآسيوية- الأمريكية. لقد ثبت أن الإنسان لم يزرع أول الأمر إلا أصناف النباتات الصالحة للأكل التي تنبت في منطقة محددة معينة. اعتبر إلى الآن أن للعالمين القديم والجديد، اللذين يفصلهما محيطان، تشكيلة متباينة تماماً من النباتات الزراعية، وهذا الواقع، بحد ذاته، كان آماداً طويلة حجة وجيهة في مصلحة الطابع المستقل للزراعة الأمريكية.

بيد أن هذه الموضوعة تزعزعت بعض الشيء في السنوات الأخيرة. وهذا ما استغله على الفور الانتشاريون الذين إذ استندوا إلى الحالات الفعلية والمشبوه فيها لتبادل النباتات الزراعية بين نصفي الكرة الأرضية قبل كولومبس، حاولوا زعزعة الثقة بالأصل المستقبل لكل الزراعة الأمريكية. يعزو عالم النبات الأمريكي جورج كارتر القرع القاروري، والقطن وجوز الهند، والبطاطا الحلوة والذرة، أو المائيس إلى النباتات الزراعية التي تصادف منذ أقدم الأزمنة في نصفي الكرة الأرضية كليهما. ولما كانت أرجاء المحيط الشاسعة تنفي حسب قوله أي مكان للانتقال الطبيعي للنباتات والثمار البيتية من الخارج، فمن الطبيعي أن يكون الإنسان وحده هو الذي نقلها[٩].

المكانة التي كانت تشغلها الذرة في الحياة اليومية للهنود الأمريكيين تجعلنا ننظر باهتمام خاص إلى تاريخ هذا النبات. وخبر العثور على نوع من

المائيس البدائي لدى القبائل الجبلية المتخلفة في أسام أثار في حينه الكثير من الضجيج المثير والنقاشات. وأعلن عالم النبات الأمريكي أدغار أندرسن على الفور أن صنف الذرة الذي عثر عليه حديثاً يمت بأقرب صلة لنماذج المائيس البدائي من ريو لوا في تشيلي، وهذا يشكل، حسب قوله، برهاناً كافياً تماماً على الأصل الآسيوي لهذا النبات(١٠).

ولكن ينبغي التنويه بأن أغلب علماء النبات والآثاريين الأمريكيين لا يشاطرونه هذا الرأي. لقد ثبت الآن بشكل نهائي أن هذا النبات القيم لم يكن قبل عام ١٤٩٢ معروفاً (إذا ضربنا الصفح عن حالة واحدة في إفريقيا يشك في أمرها) في أية بقعة من العالم القديم. وفي الوقت نفسه كان المائيس يشكل في أمريكا المادة الغذائية الأساسية لمؤسسي كل الثقافات المتطورة قبل كولومبس بما في ذلك حضارات المايا والأتستيكيين في أمريكا الوسطى، والأنكيين في أمريكا الجنوبية. والمائيس، علاوة على ذلك، نبات أمريكي بحت كان ينبت في العالم الجديد قبل أن يسكنه الإنسان بزمن طويل. في إحدى الآبار المحفورة في أراضي مدينة مكسيكو اكتشف فجأة طلع مائيس بري لا يقل عمره عن ٨٠ ألف سنة.

وكما بينت حفريات الآثاري ماك نيش من الولايات المتحدة فإن المائيس الذي يحمل أولى سمات التدجين ظهر نحو عام ٥٠٠٠ ق.م في المكسيك (تخواكان، ولاية بوبلا). وفي الألف الرابع قبل الميلاد ظهرت هناك بواكير الزراعة القائمة على إنتاج المائيس والفاصولياء والقرع وبعض النباتات الأخرى(١١).

القرع القاروري واحد من أكثر النباتات المزروعة انتشاراً في العالم. ويعتبر أن إفريقيا هي وطنه. وهو غير صالح للأكل ويزرع لنيل ثمار على

شكل قوارير تستخدم بمثابة آنية للسوائل. وقد ظهر القرع من هذا النوع في أمريكا في وقت مبكر جداً: في المكسيك (تاموليباس) بين عامي ٧٠٠٠ - ٥٠٠٠ ق.م، ويعود تاريخه في طبقات مستوطنة خواكا- بريبتا في بيرو إلى نحو ٢٥٠٠ ق.م؛ وظهر في جنوب شرق أمريكا نحو عام ٤٠٠ ب.م، وثمة افتراض انه يوجد في أمريكا صنفا البذار الآسيوي والإفريقي على حد سواء، مع أن الصنف الإفريقي هو الذي ظهر هناك أولاً. ينبه الاكاديمي جوكوفسكي إلى أن ثمار هذا القرع حينما تجف، تعوم بحرية في المحيط، أما البذور (الأمر الذي برهن عليه تجريبياً)، فتحتفظ بقابلية التفريخ على امتداد ٢٠٠ يوم. يمكن لهذه الثمار أن تعوم من إفريقيا إلى العالم الجديد وحدها؛ وهكذا فإن مسألة كيفية تغلغل هذا النبات في أمريكا تبقى معلقة[١٢].

تجري إلى الآن مناقشات كثيرة حول وطن جوز الهند. تتحدث الأسفار الإسبانية من القرن السادس عشر عن أن نخيل جوز الهند كان لحظة ظهور الكونكستادور في أمريكا موجوداً هناك: على الساحل الغربي لأمريكا الوسطى وفي باناما. وكما يعتبر بعض العلماء، لا يمكن له الوصول إلى هناك بطريق طبيعي عبر المحيط. أجرى تور هيردهل إبان رحلته على طوف "كون- تيكي" تجارب خاصة: كل جوز الهند الموجود وسط الجذوع في ماء البحر لم يتحمل نصف الطريق. في هذه الحالة يبقى أن نفترض أن جوز الهند حمله الإنسان "إلى " أمريكا أو "من" أمريكا. ونظراً إلى المغزى الكبير لهذا النبات في آسيا ودوره الزهيد في أمريكا، فمن المنطقي افتراض أنه جلب إلى القارة الأمريكية قبل الغزو الإسباني بوقت قصير. وإلى جانب ذلك، بين إجراء التجارب ثانية على جوز الهند

المقذوف في ماء البحر، في ظروف قريبة من الظروف الطبيعية، إنه يمكن لهذه الثمار أن تعوم في المحيط، من غير أن تفقد خواصها، فترة تصل إلى ٢٠٠ يوم وحتى أكثر.

ظهرت البطاطا الحلوة في بولينيزيا في وقت مبكر، وهذا ما تشهد عليه أشكالها المتنوعة والتباينات في تسمياتها، وكذلك مكانتها في الميثولوجيا والطقوس. وانتشارها الطبيعي مستبعد تماماً. بيد أن البطاطا نبات أمريكي، بلا شك، وموطنها المناطق الجبلية في بوليفيا وبيرو. وواقع أنها تصادف في بولينيزيا وفي أمريكا الجنوبية يشهد بوضوح على وجود صلات بين المنطقتين الأمر الذي جرى الحديث عنه سابقاً.

وعلى هذا النحو، حتى ولو اعترفنا بواقع تأثير السكان القدماء للعالم القديم في إدخال القرع القاروري والقطن وجوز الهند في زراعة الهنود الحمر، فإن هذا لا يمكن له أبداً ان يدحض الطابع المستقل للزراعة الأمريكية. القرع القاروري والقطن على حد سواء نباتان غير صالحين للأكل، وبالتالي، لا يمكن لهما أن يضطلعا بدور حاسم في تكون الاقتصاد الزراعي للقبائل الهندية، أما نخيل جوز الهند فقد ظهر، بدوره، في العالم الجديد في وقت متأخر جداً، عشية الغزو الأوروبي ولم يكن موجوداً إلا في منطقتين أو ثلاث مناطق صغيرة نسبياً في الجزء الجنوبي من القارة.

الانتشاريون والانعزاليون

يبرز في دراسة الشؤون الأمريكية من يسمون "الانعزاليين" بمثابة نقيض لفكرة "الانتشارية". وتدخل في عدادهم الأغلبية الساحقة من الأنتروبولوجيين والأثنوغرافيين والأرخيولوجيين، أي أولئك الاختصاصيون بالذات الذين يصطدمون مباشرة بالمواد التاريخية الملموسة.

الحضارات القديمة في المكسيك وبيرو تطورت حسب قناعتهم العميقة، بصورة مستقلة تماماً، وبدون أي تأثير من الخارج. مع العلم أن موضوعة وجود رابطة روحية لكل البشرية هي تعليل فلسفي من نوع خاص لإمكان الاختراع المكرر، المستقل لجملة من الأشياء وظهور جملة من الأفكار (بما في ذلك أعقدها). أما الأساس الفعلي لآراء "الانعزاليين" فقوامه **أولاً:** الموقع الجغرافي المنعزل لأمريكا التي يفصلها أكبر محيطين في الأرض عن القارات الأخرى **ثانياً:** انعدام البراهين المباشرة والمقنعة على الصلات الأمريكية- الآسيوية قبل كولومبس **ثالثاً** وأخيراً: العملية المتواصلة والمستقلة التي ارتسمت الآن بخطوط عريضة في العلم لتطور الثقافات الأساسية للعالم الجديد قبل قدوم الإسبان.

صحيح أن أكثر المدافعين غيرة عن فكرة الطريق المستقل لتطور الهنود الأمريكيين، كالأرجنتيني أميخينو، مثلاً يصلون في مؤلفاتهم إلى تطرف آخر، معلنين أمريكا موطناً للإنسان البدائي، مع أنه لم يعثر هناك إلى الآن

على أية آثار للقرود الشبيهة بالإنسان وللنياندرتاليين. بيد أن أغلب "الانعزاليين" يعترفون بهجرة أو عدة هجرات من آسيا إلى العالم الجديد في فترة بعيدة جداً (منذ ٢٠ - ٣٠ ألف سنة تقريباً). وفيها بعد انقطعت، حسب رأيهم، الصلات بين القارتين، وتطورت ثقافة الهنود الأمريكيين على نحو مستقل بهذه الدرجة أو تلك. وقد وقف الكثيرون ضد تطرفات نظرية النزوحية التي تعتبر "الانعزالية" شكلاً لها.

كتب الآثاري المعروف أرتسيخوفسكي: "الايديولوجيا البرجوازية هي عموماً علم للاقتباسات من نوع خاص. تحصر مسيرة النشاط العلمي غالباً في العمل الآتي: تؤخذ، مثلاً موجودات قبر أو أطلال مدينة وتفرز منها المواد المستوردة، ثم المواد المقتبسة، ثم التي ظهرت بتأثير الآخرين، ثم الناجمة عن تضافر المؤثرات. وكلما كان الباقي أقل كانت سعادة الباحث أكبر.

وفي الواقع فإن تقارب التشكيلات الاجتماعية قد خلق على حد سواء ما يسمى بالتطابقات والاقتباسات التي لا جدال فيها. لا مجال على هذا النحو إلى نفي هذه الأخيرة نفياً قاطعاً، ولكن تفسير الصلات الثقافية، الذي تحول إلى هدف بحد ذاته، أوجد اتجاهاً لا مفر منه إلى البحث عن أماكن نشوء بعيدة للآثار القديمة وفق أوجه شبه عرضية. وإذا لم توجد أوجه شبه كهذه، لا يقنع الآثاري عادة، ويعزو المادة التي ينظر فيها إلى ميدان غير مدروس"[١٣].

عند الاطلاع عن كثب على المؤلفات الأخيرة لزعماء "الانتشارية" المعاصرة يلفت النظر على الفور التشابه الجزئي، وأحياناً الكامل، مع المفاهيم "الوحشية" والمأخوذة من الكتاب المقدس التي سادت في العلم

على امتداد الفترة من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر. ومع ذلك ظهر شيء جديد.

يتسم "الانتشاريون الجدد" قبل كل شيء بدقة خاصة في انتقاء أوجه الشبه التي يوردونها. وتفضل في غضون ذلك الرموز الدينية والعمارة العبادية ورسم الأيقونات ومختلف الطقوس والمراسم المبهمة، أي جوانب الثقافتين الروحية والمادية التي يصعب جداً تفسيرها بدقة نظراً لطابعها المعقد والمشوش.

تعرضت آراء "الانتشاريين الجدد" لتغيرات كبيرة أيضاً إزاء تحديد مكان وزمان الاتصالات قبل كولومبس. من المستبعد أن يؤكد أحد منهم الآن أن موطن الحضارات الأمريكية هو أطلنطيد أو أن مؤسسيها هم أخلاف "الأسباط الإسرائيلية المختفية". بل على العكس، فإن أي "انتشاري" معتدل يعتبر الآن أن الحق في الوجود هو بصورة رئيسة من نصيب الاتصالات عبر المحيط الهادئ بين آسيا الشرقية والجنوبية الشرقية من جهة، والعالم الجديد من الجهة الأخرى.

الصفة المميزة الأخرى لكل أعمال "الانتشاريين" المعاصرين تتلخص في التجاهل الكامل تقريباً للأطر الزمنية للظواهر التي يدرسونها في حين أن هذا قد يكون أكثر المسائل مبدئية. يكتب الآثاري المكسيكي المرموق ألفنسو كاسو: "الخطوة الأولى والأساسية، عند محاولة إظهار وجود صلات بين العالمين القديم والجديد، هي النظر إلى التسلسل الزمني للخصائص الثقافية التي تجري دراستها. من الواضح أنه إذا ظهرت الخاصية المعنية في العالم الجديد أول الأمر، ثم في العالم القديم، فإنها لا يمكن أن تظهر في العالم الجديد كنتيجة مؤثرات من جانب العالم القديم. ولهذا اعتبر مسألة التسلسل

الزمني مهمة إلى درجة أنه إذا لم تحل نهائياً تفقد كل الحجج الأخرى مع أو ضد الصلات قبل كولومبس مفعولها..."[١٤].

وأخيراً، لا تصمد أيضاً في وجه النقد الجدي الطريقة الأساسية التي يستخدمها "الانتشاريون" للبرهان على الصلات الآسيوية- الأمريكية القديمة، طريقة التشابه الأسلوبي والخارجي لتفاصيل التصوير أو المواد. ينوه كاسو: "لا ينبغي إسباغ مغزى كبير على التشابه الشكلي أو الأسلوبي للمواد المدروسة حتى وإن كان واضحاً. والرسمان الواردان في هذه المقالة مدعوان إلى إظهار عدة حالات لتطابقات كهذه من أبسطها إلى أعقدها مما يصادف في ثقافات لم تكن توجد أية اتصالات فيما بينها. وهما لا يهدفان أبداً إلى إبداء غياب الصلات بين العالمين القديم والجديد، بل إلى إظهار ضعف الطريقة التي ينظر بناء عليها إلى مثل هذه التطابقات في شكل المواد كبرهان على أصلها المشترك". وكمثال على هذه التطابقات يورد العالم المكسيكي إشارة على شكل خطين أفقيين ونقطتين: يرمز هذا عند المايا إلى الرقم ١٢، أما في فرنسا فهو علامة للمصنوعات الشهيرة من القاشاني السيفري إلخ[١٥].

لا شك في أن "الانتشاريين" يبالغون أيضاً في دور كل الاتصالات، حتى وإن كانت عرضية، في تطور الثقافة. إذا سلمنا بأن بعض المراكب من العالم القديم وصلت مصادفة إلى سواحل أمريكا ونزلت طواقمها بسلام إلى "أديم الأرض"، فمن المستبعد أن ينبغي المغالاة في تقدير تأثيرها في السكان الأصليين.

لقد كدس العلم الآن الكثير من الوقائع التي تشهد على العكس غالباً: لم يخلف القادمون بعدهم أي آثار ملموسة. هذا ما كانت عليه الحال مثلاً بالنسبة إلى مستوطنات الفيكنغ في غرونلاند ونيوفوندلاند وأمريكا

الشمالية. في عام ١٥١١ تحطم مركب إسباني عند شواطئ يوكاتان، ونجا جزء من الطاقم، وحتى إن اثنين، وهما غونسالو غريرو وخيرونيمو اغيلار بقيا حتى قدوم جيش كورتس عام ١٥١٩. وهنا اتضح أن غريرو فقد تماماً كل عاداته الأوروبية وتحول، من حيث الجوهر، إلى هندي حقيقي. لا مجال حتى لمجرد الحديث عن أي تأثير ثقافي مارسه في المايا المحيطين به. وتلاحظ اللوحة نفسها بالنسبة إلى هنود فلوريدا الذين لم يحتفظوا بأية آثار للعيش مع المساهمين في البعثة الإسبانية الكبيرة برئاسة ألفارو نونييس كابيسا دي فاكا.

وفحوى الأمر كله أن السكان المحليين لا يتقبلون هذه المستحدثات التي يأتي بها أحد من الخارج أو تلك إلا إذا كان التطور الداخلي قد مهد التربة لها.

هل هذا يعني أن العلماء القائلين بهذا الرأي يشاطرون "الانعزاليين" وجهة نظرهم تماماً؟ لا، بالطبع، إنهم لا يوافقون هؤلاء الآخرين إلا على أنه تكمن في نشوء وتطور الحضارات القديمة في أمريكا بداية محلية بصورة رئيسة، وعلى ان هذا ناجم عن الطريق الواحد لتطور البشرية بأسرها، ولكن ما تفسير هذه الوحدة! ليس تفسيرها "تشابه" العقول البشرية"، كما يعتقد "الانعزاليون"، بل وحدة قوانين حياة المجتمع المادية ووحدة قوانين الانتاج الاجتماعي. وينجم عن هذا أن التشابه الخارجي العام لبعض ملامح الثقافة على جوانب المحيطين ليست برهاناً لا يدحض على وجود صلات بين سكان نصفي الكرة الأرضية قبل كولومبس.

والعلماء الذين يضعون التطور الداخلي للمجتمع في المقام الأول، لا ينفون في الوقت نفسه أبداً الدور الكبير للاتصالات والمؤثرات في تكوين الثقافة. لقد اضطلعت هذه الاتصالات بدور مسرع جبار وحافز من نوع

خاص أثر بشكل ملحوظ في وتائر تطور كل من المجموعات البشرية. وهم لا ينفون أيضاً وجود صلات آسيوية - أمريكية قديماً. وتنحصر المسألة كلها في أنه ينبغي في كل حالة ملموسة النظر بتمعن في إمكانية هذه الصلات ودرجة تأثيرها في سكان العالم الجديد الأصليين.

نعم، إن لوحة العلاقات المتبادلة لسكان نصفي الكرة الأرضية لم تكن وحيدة الجانب إلى الدرجة التي ترسمها مخيلة أكثر "الانعزاليين" تعنتاً: هجرة كبيرة واحدة للمغول من آسيا في أواخر الباليوليت، ثم عزلة كاملة عن العالم الخارجي وتطور جوفي داخلي للثقافات الأمريكية. كان سكان القارة الآسيوية، أو بالأحرى طرفها الشمالي الشرقي، يستطيعون في أي وقت الوصول إلى ساحل أمريكا عبر مضيق بهرنغ الضيق، الأمر الذي كانوا يفعلونه بقدر ما كانت تسمح به إمكانياتهم.

والصلات الوثيقة لسكان القارتين المتجاورتين، التي بدأت منذ الباليوليت الأعلى، استمرت بالوجود حتى قدوم الأوروبيين، وهذا بالذات ما يفسر التشابه الملحوظ في الثقافات والمعتقدات الدينية لدى سكان ألاسكا وهنود ساحل أمريكا الشمالي الغربي والأسكيمو من جهة، وسكان ساحل شرق آسيا من الجهة الأخرى. على هذا الطريق القديم (بمحاذاة الساحل، لا مباشرة عبر المحيط) وصل إلى أمريكا الشمالية الكثير من مصنوعات المهرة الآسيويين، ومن بينها الأدوات الحديدية التي لوحظت في بعض المستوطنات الهندية منذ القرن العاشر ب.م. بيد أن الصلات المذكورة لم تنطو على مغزى إلا بالنسبة إلى عدد صغير من سكان العالم الجديد الأصليين الذين كانوا يقيمون في جزء القارة الشمالي.

عوضاً عن الخاتمة

وهكذا، فإن الخيوط الدقيقة للصلات ما قبل كولومبس، التي امتدت عبر أرجاء المحيطين المترامية الأطراف، قد تأكدت في الوقت الحاضر بالنسبة إلى جملة من مناطق العالم الجديد: الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية (استيطان الفيكنغ) وساحل المكسيك (المنحوتة الرومانية) والأشياء الصينية واليابانية على الساحل الشمالي الغربي لكندا والولايات المتحدة، وأخيراً اتصالات البولينيزيين وبعض الشعوب الهندية في أمريكا الجنوبية. ومن المميز أن هذه المؤثرات الثقافية تأتي من شتى مناطق العالم القديم، وتحمل طابعاً غير منتظم وعرضياً. والأطر الزمنية لهذه الاتصالات محدودة نسبياً أيضاً: المقصود، بصورة رئيسة، رحلات جرت في أواخر القرن الأول قبل الميلاد وبعده.

تشير المعطيات المتوفرة الآن إلى أن تأثير هذه الاتصالات العرضية في نشوء وتطور الحضارات القديمة للعالم الجديد كان زهيداً. تمكننا مؤلفات الآثاريين الأخيرة من تتبع التطور المتواصل للثقافات المحلية في إحدى أكثر المناطق تقدماً في أمريكا قبل كولومبس، أي ميزوأمريكا، ابتداء من أول ظهور للإنسان في هذه الأماكن وحتى الغزو الإسباني. هذا الواقع يشكل، في رأيي، أكثر البراهين إقناعاً على أن الحضارات العظيمة للهنود الأمريكيين قد ظهرت بصورة مستقلة تماماً، بدون أي تأثير ملحوظ من الخارج.

يكتب الباحث الأمريكي جون فسكي: "ثمة ما هو مهيب وحافل بالعبر في منظر حياة نصفي الجنس البشري اللذين قطنا على امتداد قرون لا تحصى في نصفي الكرة الأرضية الشرقي والغربي، من غير أن يعرف أحدهما الآخر على الإطلاق، مع العلم أن كلاً منهما بقي بمنأى عن تأثير الآخر. والتماس بين العالمين لم يبدأ من حيث الجوهر إلا في عام ١٤٩٢.

بيد أنني لا أنوي أبداً أن أنفي أنه كان يمكن لزوار عرضيين من العالم القديم أن يظهروا، وقد ظهروا بالفعل، قبل ذلك الزمن، بل، على العكس، أنا أميل إلى التفكير في أن هذه الزيارات العرضية كانت أكثر بكثير مما نفترض عموماً، ولكن الحديث عنها بأغلبه يكتنفه ضباب الحكايات الغامضة والتخمينات الخيالية"[١٦].

هذه الكلمات قيلت في أواخر القرن الماضي، وطبيعي أنها تحتاج الآن إلى بعض التدقيقات. "ضباب الحكايات الغامضة" يتبدد على نحو متزايد تحت تأثير الضوء الساطع للمعرفة العلمية، وما كان يبدو أمس خيالاً وتخميناً لا أساس لهما يكتسب اليوم على أساس الوقائع المنتقاة كل حقوق فرضية علمية لها وزنها. الحل النهائي لقضية الصلات قبل كولومبس أمر يخص المستقبل، وعلى الجهود المشتركة لعلماء مختلف البلدان فقط يتوقف الآن مدى السرعة التي سيحل بها.

هوامش الفصل التاسع

1- C.Hentze. Objets rituels, croyances et dieux de la chine antique et de l'Amerique. Antwerpen, 1936; L.Adam. Das Problem der Asiatish – Altamerikanischen kulturbeziehungen mit besonderer Berucksichtigung der kunst, Wien, 1931; وله ايضاً Nort-West American Indian Art and its Early Chinese Parallels. –"man", vol. 36, No 2-3, London, 1936.

2- R.Heine-Geldern, G.Ekholm. Significant parallels in the symbolic arts of Southern Asia and Midlle America. –In: "Selected papers of the 29 th International Congress of Americanists", vol. 1, Chicago, 1951, p.299-309.

3- R.Heine-Geldern, G.Ekholm. Significant parallels..., p. 301

4- R.Heine-Geldern, G.Ekholm. Significant parallels..., p. 308-309.

5- M.Covarrubias. El Aguila, el jaguar y la Serpiente. Mexico, 1961. p.12.

6- R.Heine-Geldern. Theoretical considerations of tht problem of pre-Colubian contacts between the Old World and the New. –In: "Men and Cultures". Selected Papers of the 5th International Congress of the Anthropological and Ethnological Sciences. Philadelphia, 1960, p.277.

7- G.F.Ekholm. Transpacific contacts. –In: "Prehistiric man in the New World", Chicago, 1964, p. 504.

8- R.Wauchope. Lost tribes and sunken continenets. Chicago, 1962 p. 89.

9- G.F.Carter. Plants across the Pacific. –In: "Asia and North America Transpacific Contacts", Memoirs of the Society for American Archaeology, No 9. Salt Lake City, 1953, p. 62-71.

10- C.Stonor and E.Anderson. Maize among the Hill Peoples of Assam. – “Annals of Missouri Botanical Gardens”, vol. 35, No 3. St.Louis, 1949.

11- G.R.Willey. Recent Researches and Perspectives in Mesoamerican Archaeology: an introductory commentary . –In: Supplement to the Handbook of middle American Indians”, vol. 1: Archaeology. Austin, 1981, p. 5-6; P.C.Mangelsdorf, R.S.Macneish and W.C.Galinat. Prehistoric Wild and Cultivated Maize. –In: “The Prehistory of the Tehuacan Valley”, vol. 1: Environment and Subsistence, Austin and London, 1967, p. 178 –200.

١٢- جوكوفسكي. النباتات الزراعية وأقرباؤها. لينينغراد. "ناؤوكا"، ١٩٩٤.
E.R.Fingerhut. Who first discovered America..., p. 114-120.

١٣- ارتسيخوفسكي. المنمنمات الروسية القديمة كمصدر تاريخي. موسكو، ١٩٤٤، ص ٥.

14- A.Caso. Relations between the Old and New Worlds. –“Actas y Memorias del 35 Congreso Internacional de Americanistas”, vol. 1, Mexico, 1964, p. 55-58.

15- A. Caso. Relation..., p. 55-58.

١٦- فسكي . اكتشاف...، ص ١٠٥.

فهرس

الصفحة

فاليري غولاييف

- كاتب روسي؛
- حاصل على دكتوراه في العلوم التاريخية؛
- له العديد من المؤلفات حول الحضارات القديمة في دول ما بين النهرين وأمريكا الوسطى والمدن والدول التي أنشأها المايا.

طارق معصراني

- مترجم سوري.
- **من أعماله:**

- سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني
- نجوم السهب
- الأنثوس والتاريخ
- المدن الأولى

٢٠٢٢م